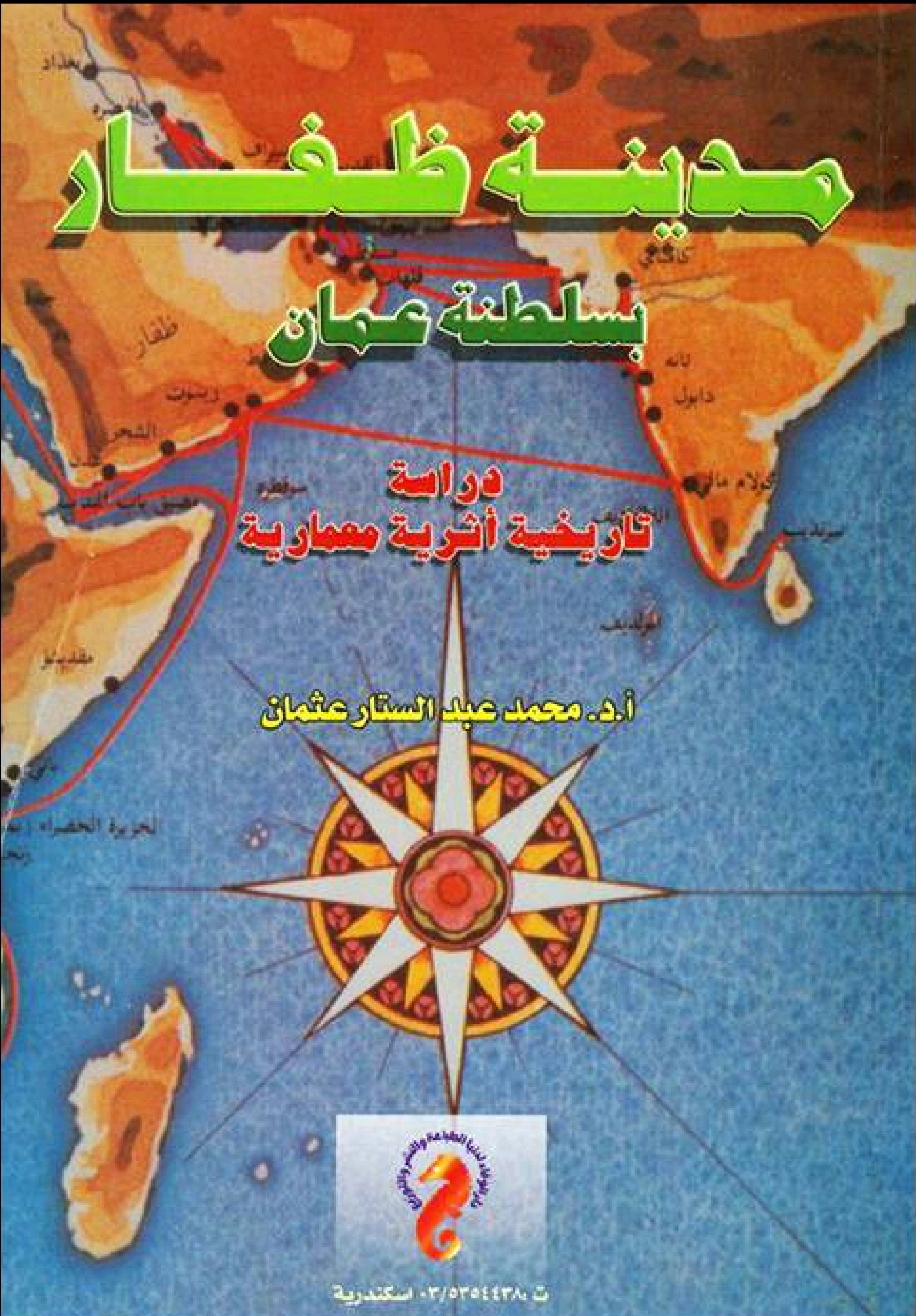
مدينة ظفار

بسلطنة عمان

دراسة
تاريخية أثرية معمارية



أ.د. محمد عبد الستار عثمان

ت ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨٠ اسكندرية

دكتور محمد عبد الستار عثمان

مدينة ظفار بسلطنة عمان..

"دراسة تاريخية أثرية معمارية"

كمبيوتر : دار الوفــاء (علا علاء)

الطباعة : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنوان : ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣

الرقم البريدى : ٢١٤١١ فيكتوريا ــ اسكندرية

رقم الإيــــداع : ١٩٩٩/٨٤٨٧

الترقيم الدولى : 3 - 80 - 5904 - 977

مدينـــــة ظفـــار بسلطنة عمان

"دراسة تاريخية أثرية معمارية"

الأستاذ الدكتور

محمد عبد الستار عثمان

عميد كلية الآداب

جامعة جنوب الوادى

النـاشـــــر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع

ت : ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

إهداء

إلى من جمعت رؤيته الثاقبة بين
الأصالة والمعاصرة
إلى من أحب تاريخ عمان وآثارها
فكانت رعايته لها
إلى من اسس نهضة عمان المعاصرة
إلى جلالة السلطان قابوس المعظم
أهدي هذا الكتاب عن مدينة ظفار
كما أهديه إلى شعب عمان الحبيب
الذي يحب العلم وأهله..

أ.د/ محمد عبد الستار عثمان

المقدمة:

بدأت معرفتى المباشرة بمدينة ظفار بسلطنة عمان عندما شاركت فــى بعثة قسم الاثار بجامعة السلطان قابوس للتنقيب فى أحد المواقع بهذه المدينة فى إطار مشروع المتنزه الأثرى الذى تشرف عليه حكومة ســـلطنة عمـــان ممثلة فى وزارة الاعلام وتنفذه جامعة آخن الألمانية. وأثنـــاء العمــل دارت مناقشـــات علمية بين اعضاء بعثة قسم الاثار بجامعة السلطان قابوس وفريق جامعة آخن الألمانية تحت اشراف الأستاذ يانسين Machael Jansen. ومن خلال هذه المناقشات شعرت بمدى الحاجة إلى عمل دراسة تاريخية أثريـــة عــن مدينة ظفار يمكن لها أن تفيد العمل فى هذا المشـــروع وأن تقـدم للقــارئ صورة واضحة عن الدور الحضارى لهذه المدينة.

وتطلب العمل فى هذه الدراسة البحث عن المصادر التى تناولت مدينة ظفار باعتبار أهميتها فى الكشف عــن الجوانـب الحضاريـة والتاريخيـة والأثرية سيما وأن من بين هذه المصادر ما كتبـــه الرحالــة والمؤرخــون المعاصرون عن فترات إزدهار عمرانها كابن بطوطة وماركو بولو وابـــن المجـاور وغيرهم، وقد افادتنى هذه المصادر أيما إفـــادة وبخاصـة ذلـك الفصل الرائع الذى كتبه ابن بطوطة الذى زار المدينة وعاش فيها مدة مـــن الزمن وكذلك ما سجله ابن المجاور عن مراحل بنائها وما تضمنه وصفه من تعريف ببواباتها وأسوارها وبعض المنشـــآت التجاريـــة المهمـــة الأخـــرى "كالفرضة". كذلك تضمنت بعض المصادر الأخرى معلومـــات مهمـــة عــن

جغرافية هذه المدينة مثل ما أورد ابن سعيد المغربي فى كتابه "الجغرافيا"، والخزرجي فى كتابه "العقود اللؤلؤية فى الدولة الرسولية"، وابن أبى مخرمة فى كتابه "تاريخ ثغر عدن"، وقد تضمنت هذه المصادر وغيرها أخباراً مهمة عن تاريخ إنشاء المدينة ومراحل نموها المعمارى والعمرانى كما زودتنا بالكثير من المعلومات عن أعلامها وما مر بها من أحداث.

واستكمالاً للبحث كان من المهم التعرف على ما كتب حديثاً عن مدينة أو منطقة ظفار وتنوعت هذه الكتابات فبعضها عبارة عن تقارير عن نشاطات العمل الأثرى فى المنطقة مثل ما كتبه Clevelant L. R. تحت عنوان
The 1960 American Archaeological Expidition to "Dhofar" Bulletin of American School of Orieral Research. An Ancient South Arabian Necropolis. Baltemore: American Foundation for Study of Man. 1955.

وما كتبه يوريس زارينز Juris Zarins تحت عنوان Dhofar- Land of Incense, Archaeological Work in the Sultanate of Oman 1990-1995، وهو تقرير تحت النشر تتولى نشره جامعة السلطان قابوس بالتعاون مع وزارة الأعلام بسلطنة عمان.

وهناك كتابات أخرى كتبها المهتمون بتاريخ وحضارة هذه المنطقة من الأجانب الذين عاشوا فى المنطقة بحكم عملهم ومن أوائل هؤلاء كارتر Carter H. J الذى سجل مشاهداته عن أطلال مدينة ظفار فى مقال نشر فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٨٤٦ تحت عنوان The Ruins of El-Balad J. R. A. S. 1846, Vol. 16، ثم تأتى بعد ذلك دراسة باولو كوستا سنة ١٩٧٩ والتى نشر فى مجلة دراسات عمانية تحت عنوان The Study of the City of Zafar (al Balid) Jornal of Oman Studies Vol, 5.

وقد نشرت الدراسة مترجمة إلى العربية فى كتاب أصدرته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان سنة ١٩٨٤م.

وإذا كانت هذه التقارير والدراسات تركز على أطلال مدينة ظفار من وجهة نظر معمارية أثرية فإن هناك كتابات أخرى عرضت للجوانب التاريخية للمدينة مثل ما كتبه ميلز Miles S. B. فى كتابه من بلدان الخليج وقبائله The Countries and Tribes of Pesian Gulf. London Edinburgh (New Editthion Published in 1966) وما كتبه جيست Guest. R سنة ١٩٣٥ تحت عنوان "ظفار فى العصور الوسطى" Zufar in the Middle Ages. Islamic Culture IX, Hyderabad، وكذلك ما كتبه وندل فيليبس عن "تاريخ عمان".

ولاشك أن الدراسة الميدانية لأطلال المدينة سواء من خلال أعمال التنقيب فيها أو مصاحبتى لطلاب قسم الآثار بجامعة السلطان قابوس فى الرحلات العلمية للمدينة وغيرها من المواقع الأثرية فى سلطنة عمان كان له أثره الواضح فى معرفة كثير من المعلومات التى لا تتضمنها المصادر أو الدراسات التى سبقت الاشارة إليها كما كان لمقابلاتى مع المتخصصين فى مجال الآثار من أبناء المنطقة مثل الأستاذ عوض عيسى والأستاذ مسعود المعشنى والأستاذ على أحمد الشهرى- صاحب كتاب "ظفار كتاباتها ونقوشها القديمة" فضل كبير فى زيادة معرفتى بتاريخ منطقة ظفار وعادات أهلها.

وفى إطار خطة حكومة سلطنة عمان وعلى رأسها السلطان قابوس المعظم والتى ترمى إلى كشف آثار هذه المدينة من خلال مشروعها الثقافى الكبير الذى سبقت الإشارة إليه والذى يعرف بمشروع "المتنزة الأثرى". وهو

مشروع يرمى إلى كشف أثار هذه المدينة وترميمها فى إطار برنامج لتطويرها تطويراً معمارياً وعمرانياً لتكون مركزاً للجذب السياحى فى مدينة صلالة العاصمة الثانية للسلطنة كانت هذه الدراسة التى تهدف إلى تقديم ما يعين القارئ والباحث على معرفة تاريخ عمارة مدينة ظفار وأسلوب تخطيطها والملامح المعمارية لمبانيها ومنشآتها المختلفة، وما كان بها من حرف وصناعات. كما أن هذه الدراسة فى كثير من المواضع توجه إلى أهمية التراث المعمارى الباقى فى هذه المدينة سواء الذى تم الكشف عنه أو الذى مازال مطموراً فى تخوم الأرض كما أنها تحاول أحياناً أن تحدد نوعيات ووظائف تلك المنشآت التى تشكل النسيج العمرانى لمدينة ظفار، ولعل فى ذلك ما يفيد بعثات التنقيب فى السنوات القادمة.

واهتمت هذه الدراسة بإلقاء الضوء على أهمية النقوش الكتابية فى مقبرة الرباط المقبرة الرئيسية لمدينة ظفار طوال فترات تاريخها الممتد لأكثر من تسعة قرون وذلك من خلال دراسة مجموعة من شواهد القبور اختارها الباحث ودرسها لايضاح ذلك ولبيان المنهج الذى يمكن اتباعه فى دراستها. ولاشك أن هذه المقبرة تحتاج إلى توثيق علمى صحيح بالرفع المعمارى وحصر شواهد القبور الباقية فيها وعمل خطة للمحافظة عليها تمهيداً لدراستها دراسة علمية لاشك أنها ستضيف كثيراً عن تاريخ وحضارة مدينة ظفار باعتبارها كتاباً مفتوحاً يسجل تاريخ أعلامها وأحياناً أحداثها.

وإذا كانت مدينة ظفار فى إطار هذه الرؤية الأثرية تبدو مهمة باعتبارها نموذجاً مهماً من نماذج مدن الموانئ فى القطاع الجنوبى الشرقى من سواحل الجزيرة العربية وباعتبار خطورة الدور الذى لعبته فى مجال التجارة العالمية. فإن الدراسة التاريخية لهذه المدينة من الأهمية بمكان سيما

وأن معظم الدراسات التى عرضت للمدينة لم تركز كثيراً على البعد التاريخى وهو بعد مهم يساعد الدارسين فى المجالات المختلفة للتعرف على هذه المدينة ويساعد الآثاريين على التعرف على المراحل العمرانية التى عاشتها وبذلك تضيف هذه الدراسة حلقة مهمة من حلقات تاريخ المدن الاسلامية التى هى وعاء حضارة الاسلام.

وأرجو من الله العزيز القدير أن تحقق هذه الدراسة إفادة للعامة والمتخصصين من الباحثين والله من وراء القصد.

مسقط - يونيو ١٩٩٧م

الباب الأول

تاريخ مدينة ظفار وحياتها الاقتصادية

الفصل الأول
تاريخ مدينة ظفار

موقع مدينة ظفار:

أطلق الجغرافيون والبلدانيون والمؤرخون إسم ظفار على موقعين أحدهما في اليمن، والآخر في عمان. واشتهرت ظفار اليمن بأنها كانت عاصمة للحميريين عند قيام دولتهم حوالي سنة ١١٥ق.م[1]. أما ظفار عمان فهي المنطقة الجنوبية من سلطنة عمان وتشغل مساحة تقدر بثلث مساحة عمان الكلية، وتمتد هذه المنطقة من منطقة جعلان إلى حدود حضر موت، وكانت مدينة ظفار – موضوع البحث – عاصمة هذا الاقليم منذ عهد الحبوضيين حتى حوالي سنة ١٨٧٦م عندما حلت محلها مدينة صلالة[2] التي أصبحت عاصمة هذه المنطقة حتى الآن. [انظر شكل ١]

وتحفل هذه المنطقة بالمواقع الأثرية المهمة كآثار مدينة سمهرم التي اشتهرت بتصدير اللبان وميناء ريسوت الذي يعتبر أيضاً من أهم المواقع القديمة في هذه المنطقة وما زالت بعض آثار قلعته القديمة باقية حتى الآن. وتذكر المصادر الجغرافية والتاريخية أن منطقة ظفار هي منطقة الأحقاف التي وردت ذكرها في القرآن الكريم، ويوجد بالمنطقة قبور لبعض الأنبياء كقبر هود في سدح وقبر النبي أيوب وقبر النبي صالح. كما تضم المنطقة بعض المقابر الأثرية كمقبرة مرباط ومقبرة الرباط التي تعتبر المقبرة الرئيسية لمدينة ظفار، هذا بالاضافة إلى أطلال مدينة ظفار التي كانت عاصمة الاقليم كله في العصور الوسطى والتي عرفت في فترة متأخرة باسم "البليد".

تاريخ عمران مدينة ظفار:

عثر فى بعض المواضع فى مدينة ظفار [البليد]، وبخاصة فى منطقة القصر على قطع من الفخار الأحمر ذو النقاط المستديرة، الذى يرجع تاريخه إلى الفترة الممتدة من العصر الحديدى إلى الفترة الكلاسيكية [٥٠٠ق.م إلى ٤٠٠ م]. وفى ضوء هذه المعثورات يرجح الأثاريون وجود استيطان بشرى فى هذا الموقع فى حدود هذا التاريخ، كما يرجحون احتمال الكشف عن تكوينات معمارية ترجع إلى هذه الفترة فى منطقة التل الذى تعلوه أطلال القصر الذى أنشئ فى المدينة فى العصر الإسلامى[٣]، ويبقى الأمر مجرد احتمال إلى أن يتم الكشف عن هذه المنشآت.

وربما استمر استيطان هذا الموقع فى العصور التالية حتى العصر الإسلامى وربما انقطع وعاد الاستيطان إليه فى العصر الإسلامى، حيث يشير "جيست" Guest إلى أن المنطقة كانت تنتشر فيها القبائل فى مستوى حضارى بسيط إلى أن جاء المنجويون الذين سيطروا على المنطقة وأداروها إدارة جيدة، وأنشأوا بها من المستوطنات والقلاع ما ساعد على تحقيق نقلة حضارية لها[٤]. وكانت مدينة ظفار من إنشائهم. وكلا الاحتمالين قائم فى ضوء القياس على ما أوضحته المسوحات الأثرية والدراسات المبدئية لمدن ومراكز للإستيطان مهمة فى منطقة ظفار كعين حمران وسمهرم وغيرها[٥].

المنجويون وإنشاء ظفار:

ومدينة ظفار الأثرية [البليد] التى مازالت أطلالها باقية تنسب الدراسات التاريخية إنشاءها إلى المنجويين[٦] الذين أنشأوا لهم دولة فى منطقة ظفار فى القرن السادس الهجرى[٧] [الثانى عشر الميلادى]، وظلوا يحكمون المنطقة

كلها من قاعدتهم مرباط[٨] طوال هذا القرن إلى أن قامت على أعقابهم دولة الحبوضيين فى مطلع القرن السابع الهجرى [الثالث عشر الميلادى].

وتؤكد الدراسات الأثرية المبدئية صحة ما ورد فى الدراسات التاريخية حيث تشير هذه الدراسات إلى أن ما عثر عليه فى مدينة ظفار من قطع المسكوكات وشقافات الفخار، توحى دراستها بأن مدينة ظفار ظهرت إلى حيز الوجود فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى[٩].

وفى ضوء ما سبق يتضح أن المنجويين هم الذين أنشأوا مدينة ظفار فى المرحلة الأولى من تاريخها المعمارى، وكانت مرباط فى عهدهم هى قاعدة إقليم ظفار كله، والذى يمتد من منطقة جعلان إلى حدود حضرموت، وظل الأمر كذلك حتى توفى آخر سلاطين هذه الدولة وهو محمد بن أحمد بن الأكحل بعد ستمائة من الهجرة، ولم يكن له عقب، ولا فى أهله من يتأهل للملك، وكان محمد بن أحمد الحبوضى يتجر له فقام بالولاية من بعده[١٠].

ظفار فى عهد الحبوضيين:

وقامت الدولة الحبوضية[١١] مع تولى محمد بن أحمد الحبوضى الحكم فى مطلع القرن ٧هـ/١٣م، وقام الحكم فى عهد هذه الدولة على مبدأ الوراثة، حيث تولى أحمد بن محمد الحبوضى السلطة فى ظفار بعد موت والده، وكان له دور بارز فى تاريخ عمارة مدينة ظفار، ويبدأ هذا التاريخ بما أحدثه من تخريب للمدينة سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، حسب رواية ابن المجاور[١٢]، وفى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م حسب رواية ابن خلدون[١٣]. وذلك خوفاً من الملك المسعود أبى المظفر يوسف بن محمد بن أيوب الذى هدد

بالإستيلاء على المدينة. وبهذا التخريب انتهت المرحلة الأولى من تاريخ عمارة هذه المدينة.

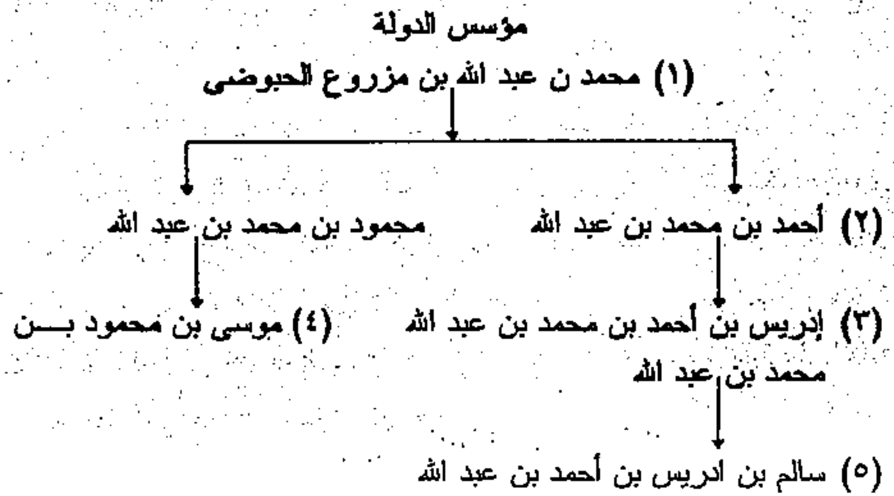
ثم أعاد أحمد بن محمد الحبوضي سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م إنشاء مدينة ظفار بشكل معماري اهتم فيه إهتماماً واضحاً بتحصين المدينة تحصيناً قوياً يحميه ورعيته من أي مخاطر[١٤]. وتشير المصادر إلى مسميات أخرى للمدينة يقال إنه أطلقها عليها بعد تعميرها منها؛ القاهرة والمنصورة[١٥] والأحمدية[١٦]، لكن إسم "ظفار" ظل هو الإسم الذي يطلق عليها[١٧]. واحتلت مدينة ظفار في المرحلة الثانية من تاريخ عمرانها وعمارتها مكانة مدينة مرباط فقد استمرت بعد ذلك قاعدة منطقة ظفار كلها، بل ونسبت مدينة ظفار والمنطقة كلها لابن الحبوضي فعرفت "بظفار الحبوضي"[١٨].

ويذكر أبو مخرمة حقيقة مهمة تتصل بالنشاطات الاقتصادية في منطقة ظفار في عهد المنجويين والحبوضيين يتضح منها السبب الرئيسي وراء ازدهار مدينة ظفار بل ومنطقة ظفار كلها في عهد الحبوضيين، فقد أقر بأن "الملوك المنجويين كانوا يعتمدون في اقتصادهم على المواشي كالبدو، لكن الحبوضيين إعتمدوا على الزراعة والتجارة"[١٩]. ولاشك أن هذا التوجه الاقتصادي نحو الزراعة والتجارة كان له أثره المباشر في إزدياد عمران مدينة ظفار واتساعه - كما سنوضح - بل إنه انعكس على وضع الحبوضيين السياسي إنعكاساً مباشراً فأصبحوا هدفاً للطامعين في السيطرة على التجارة البحرية في منطقة الخليج وساحل بحر العرب، ولا أدل على ذلك من تهديدات الملك المظفر مسعود بن أيوب - التي سبقت الاشارة إليها - وكذلك مهاجمة صاحب هرمز للمدينة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م[٢٠] وفي المقابل أصبح

الحبوضيون بفضل ما توفر لهم من اقتصاد قوي قادرين على أن يوسعوا مناطق نفوذهم لتشمل بعض مناطق حضر موت وسوقطرى[٢١].

واستمر حكم الحبوضيين حوالي سبعين عاماً تبدأ من مطلع القرن ٧هـ/١٣م، تولى الحكم فيها محمد بن أحمد الحبوضي مؤسس هذه الدولة ثم تولى من بعده ابنه أحمد الذي أعاد إنشاء مدينة ظفار -كما أشرنا- ونسبت إليه، وبعد وفاته سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م[٢٢] كانت الولاية من بعده لابنه إدريس الذي كان يعتقد أنه ظل يحكم حتى وفاته سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١[٢٣]، لكن اليونيني ذكر أن موسى بن محمود بن محمد الحضرمي حكم ظفار في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م[٢٤] ثم تولى الحكم بعد ذلك سالم ابن ادريس الذي كان آخر حكام الحبوضيين، والذي امتد سلطانه إلى حضر موت، فدانت له القبائل بالولاء، مما أحدث بينه وبين الملك المظفر الرسولي حاكم اليمن منافسات وعداوات، واستمرت بينهما الحروب في حركة مد وجزر حتى انتهت بمقتله في محلة عوقد سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وبمقتله انتهت الدولة الحبوضية وبدأت فترة سيطرة الرسوليين على المنطقة[٢٥].

وفي إطار هذا العرض التاريخي لحكام الدولة الحبوضية يمكن أن نضع الجدول التالي[٢٦]. الذي يبين تسلسلهم في النسب والحكم.



وبالرغم من قصر المدة التى حكمت فيها الدولة الحبوضية منطقة ظفار إلا أنه يلاحظ من سرد الأحداث التاريخية التى مرت بها أن هذه الأحداث كان لها تأثير مباشر على ازدهار مدينة ظفار فى عهدهم. فقد كان للظروف السياسية التى مرت بها الدولة أثرها المباشر فى تاريخ عمارة المدينة، فقد خربت ثم أعيد إعمارها وبأسلوب محصن تحصيناً جيداً يساعد على التصدى لما يمكن أن تتعرض له من هجوم وبخاصة وأن ذلك كان ممكنا بعد اتساع نشاطها التجارى وإزدهارها إزدهاراً كبيراً. وساعد على هذا الازدهار الاستقرار السياسى الداخلى الذى تمتعت به هذه الدولة، فقد كان انتقال السلطة انتقالاً طبيعياً ومثالياً فى إطار توريث الأب الحكم لابنه ولم تشهد الدولة- فى ضوء ما نعلم- صراعاً على الحكم كان له مردودات سلبية على النواحى الاقتصادية ويبدو أن هذا الحكم كان مدعوماً بالوجوه والأعيان الذين كان لهم دور مؤثر فيه، ويدلل على ذلك تلك الرواية التى تشير إلى أن أحمد بن محمد قد عزل عن الحكم مرة لخلاف بينه وبين أعيان ظفار لكنهم أعادوه مرة أخرى للحكم[٢٧] وهى رواية تشير إلى أن الحاكم لم يكن منفرداً بالحكم رغم نظام توريث الحكم بل كان الأمر مرهوناً بتأييد القوى المؤثرة الأخرى كالأعيان والوجوه.

ولاشك أن لهذا الاستقرار السياسى أثره أيضاً على استقرار مركز الحكم والادارة بالمدينة وهو "القصر" الذى كان يتوارثه الحكام فلم تظهر الحاجة إلى انشاء قصر آخر للحكم أو إحداث تغيير معمارى شامل بل إن المتوقع أن تتم المحافظة على الشكل المعمارى الأصلى مع إحداث إضافات لما هو قائم وهو أمر يختلف فى حالة إذا ما كان تأريث الحكم بشكل آخر كما حدث فى عهد الأموين وغيرهم.

ظفار فى عهد الرسوليين:

بدأ حكم الرسوليين لمنطقة ظفار بتعيين حاكم لها من قبلهم، وبعد أن استقرت الأحوال وبالتحديد فى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م "أقطع السلطان الملك المظفر الرسولى ولده الملك الواثق إبراهيم بن يوسف "ظفار الحبوضى"، فسافر إليها فى البحر من عدن فى شهر رمضان، ولم يزل بها إلى أن توفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م[٢٨]. ويذكر الخزرجى أن الواثق كان فريداً فى محاسنه له معرفة بالأدب ومشاركة فى فنون العلم ويحسر عليه الجوائز السنية"[٢٩] وقد انعكس هذا بلا شك على مدينة ظفار.

وقد دفن الواثق فى مقبرة الرسوليين فى ظفار، ونقل شاهد قبره إلى متحف الإنسان التابع للمتحف البريطانى بلندن[٣٠].

وظل ولاء ملوك ظفار للسلطان الرسولى فى اليمن حيث يذكر ابن بطوطة أن "الملك الفائز ابن عم الملك فى اليمن كان أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن، وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة"[٣١]. لكن المغيث ابن الملك الفائز - كما يذكر ابن بطوطة أيضاً - والذى تولى حكم ظفار بعد أبيه الفائز استبد بملكها، وامتنع عن إرسال الهدية، فعزم الملك المجاهد سلطان اليمن [٧٢١-٧٦٤هـ/ ١٣٢١-١٣٦٣م] على محاصرة ظفار، وعين ابن عمه على رأس جيش كبير لانتزاعها من المغيث وهو ابن عمه أيضاً، فلما خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه، ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها لو طلبها[٣٢].

ونظراً لبعد ظفار عن قاعدة الحكم الرسولى فى اليمن، ومع انشغال سلاطين وملوك الدولة الرسولية بالأمور الداخلية فى بلاد اليمن، فإنه يبدو أن العلاقة بين حكام ظفار الرسوليين الذين توارثوا الحكم وبين ملوك وسلاطين

الرسوليين فى اليمن سارت فى إطار التبعية الاسمية التى إقتصرت على إرسال الهدايا من ظفار إلى الملك الرسولى باليمن، وتدلل على ذلك إشارة الخزرجى إلى وصول صاحب ظفار الفقيه محمود بهدية وتحف وطلب لصاحب بلاده نيابة عن السلطان فكتب له بذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ٧٦٧هـ/١٢٦٨م(٣٣). ويبدو أن هذه العلاقة ظلت على هذا المستوى حتى أواخر القرن الثامن الهجرى، حيث يذكر الخزرجى أيضاً أنه "فى أثناء شهر رمضان سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م وصل الملك الفائز بن الملك المظفر صاحب ظفار الحبوضى مستوفداً للصدقات السلطانية"(٣٤).

ومن الملاحظ أن حكام ظفار قد اتخذوا ألقاباً ونعوتاً شخصية مثلهم فى ذلك مثل سلاطين الرسوليين فبالاضافة إلى لقب السلطان الذى يضفى عليهم سمة الاستقلال فكانت لهم ألقاباً خاصة كالواثق والمظفر والمغيث والفائز. وربما كان ذلك فى إطار فكرة التناظر والمماثلة التى سعى لتحقيقها سلاطين وملوك ظفار وبخاصة بعد أن أصبحت تبعيتهم لسلاطين وملوك الرسوليين باليمن تبعية إسمية. ويأتى فى إطار هذا التوجه تلقب حكام ظفار بلقب السلطان، وتمسكهم بالرسوم السلطانية التى كانت سائدة فى هذا العصر، والمتأثرة بصفة خاصة برسوم سلاطين المماليك فى مصر وسلاطين الرسوليين فى اليمن كى يضفوا على أنفسهم مظاهر الاستقلال، ونلحظ ذلك فى الرسوم المتعلقة بنظم الحكم والإدارة والمواكب وغيرها(٣٥).

وساعد الازدهار الاقتصادى والاستقرار السياسى فى هذه الفترة والذى تبع استقلال الحاكم بحكم المنطقة على الازدهار العمرانى لمنطقة ظفار بصفة عامة ومدينة ظفار على وجه الخصوص. فاتصل عمران مدينة ظفار الممتد خارج أسوارها إلى منطقة الرباط وأصبحت هذه المنطقة جزء من

عمران مدينة ظفار [شكل ٢)، ويسجل ابن بطوطة الذى زار المدينة فى هذه الفترة كثيراً من ملامح هذا الازدهار العمرانى(٣٦).

ظفار فى عهد الكثيريين والطوارق:

فى القرن التاسع الهجرى [الخامس عشر الميلادى] قامت إحدى قبائل ظفار وهم آل كثير بالسيطرة على حضر موت، بالاضافة إلى جزء من داخل البلاد وكذلك الساحل حتى الشحر بل وفيما وراء حصن الغراب، ومن المثير للاهتمام أن نعرف أن الخواطر قد حكموا الشحر كوكلاء لآل كثير وأن الآخيرين هم خلفاء الرسوليين، ولقد استمر حكم تلك القبيلة الظفارية "الخواطرة" إلى وقت متأخر من القرن العاشر الهجرى [السادس عشر الميلادى](٣٧).

وفى هذه الفترة برز إسم السلطان بدر بن عبد الله والذى عرف باسم بدر بن طويرق وقد حكم فيما بين عامى ٩٢٢-٩٧٧هـ [١٥١٦-١٥٦٩م] وقد بدأ حكمه بسقوط حكم آل كثير بنى طاهر تحت الموجة العارمة للحملات التوسعية للماليك، وتصادف ذلك مع قمة الصراع ما بين الأتراك والبرتغاليون(٣٨).

وفى عهد السلطان بدر بن عبد الله وعلى وجه التحديد فى سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م قام سرب بحرى بقيادة "هكتور داسيلفيرنا" بناء على أوامر حاكم جوا بمهاجمة وتدمير جزء من ظفار، وبعد عشرين عاماً قصفت أربعة غليونات تركية مدينة ظفار بمدافعها الثقيلة، وقذفتها بقذائف من الحديد الزهر ذات أحجام كبيرة ضخمة، فأحدثت تلفاً قليلاً، لكنها أحدثت كثيراً من

الذعر، وسرعان ما أوفد حاكم ظفار ابنه إلى مسقط ليشكو لحاكمها البرتغالى من أن الأتراك قد قصفوا ظفار وأقاموا حامية لقلعتهم هناك[٣٩].

ويبدو أن مرحلة الازدهار التى كانت تتمتع بها منطقة ظفار قد بدأت تخبو مع مطلع القرن التاسع الهجرى [الخامس عشر الميلادى]، فقد آلت بعض المدن إلى الخراب كمدينة مرباط التى كانت مركزاً لنشاط كبير وميناء مهماً، فقد كانت كما ذكر ياقوت الحموى "مرسى مدينة ظفار"[٤٠]. ومع ذلك فان مدينة ظفار ظلت حتى مطلع القرن العاشر الهجرى [السادس عشر الميلادى] محتفظة بمظاهرها الحضارية، ويسجل هذا الرحالة الايطالى الشهير "لودفيكو أى فارثيما" -من بولونيا- وهو أول أوروبى يكتب وصفاً صادقاً عن المدينة فى هذه الفترة فيقول: أنه وجد ظفار "رائقة جداً وتزخر بكل شئ"[٤١].

وتدهور الحال بمدينة ظفار في القرن ١٠هـ/١٦م حتى أصبحت بمثابة قرية صغيرة[٤٢]. وكان هذا التدهور امتداداً لما آلت إليه الموانئ الكبيرة الأخرى كمرباط، وذلك بسبب التدهور الذى حدث فى النشاط التجارى البحرى مع سيطرة البرتغاليين على البحار فى المنطقة وفرضهم حصاراً بحرياً على النشاط التجارى العربى البحرى فى المنطقة. وكان توقف تجارة الخيل هو الضربة القاسمة التى أدت إلى الانحدار الشديد الذى أصاب مدينة ظفار، وذلك بسبب الحصار الذى فرض على هذه التجارة واستمر سارياً، فكان سبباً مباشراً فى انحدار النشاط البحرى لمدينة ظفار[٤٣]. وتأثرت النشاطات الاقتصادية الأخرى كالزراعة بسبب انحسار النشاط التجارى، فتدهور اقتصاد المنطقة كلها، وآلت إلى الخراب وانعكس هذا الوضع على

مدينة ظفار التى أصبحت أطلالاً وهجرت وأصبحت صلالة فى فترة لاحقة هى قاعدة الاقليم ومراكز إدارية[٤٤].

من ظفار إلى البليد:

يُطلق على مدينة ظفار الأثرية حالياً مسمى "البليد" وربما كانت هذه التسمية تصغير لمسمى "البلاد" والبلاد فى المصطلح العمانى يطلق عادة على المدينة القديمة التى تكون بمثابة قاعدة لمنطقتها. وإذا كانت مدينة ظفار فى غضون القرن ١٠هـ/ ١٦م – كما سبق أن أشرنا- قد أصبحت "قرية صغيرة" فإن مسمى "البُلَيْد" أصبح ينطبق عليها، ويبدو أنه أطلق عليها فى هذه الفترة المتأخرة التى شهدت انحدارها وظل يطلق عليها هذا المسمى حتى الآن وان كانت العامة تلفظها بفتحة على الباء وكسرة على اللام هكذا "البَلِيد".

هوامش الفصل:

(١) وزارة الاعلام: المنطقة الجنوبية ظفار (سلسلة سلطنة عمان ومسيرة الخير) نشر وزارة الاعلام بسلطنة عمان ١٩٨٧، ص ص ٢٠-٢١.

(٢) وندل فيليبس: تاريخ عمان. ترجمة محمد أمين عبد الله.نشر وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان ١٩٩٤، ص ٩١.

(٣) يوريس زاريتر: التنقيبات الأثرية في محافظة ظفار ترجمة: عبد الله الخراصي. مجلة نزوى.العدد الثاني ١٩٩٥. مسقط. ص ص ١٠-١١، وللإستزاده راجع

- Juris Zarins."Dhufar- Land of Incense", Archaeological Work in the Sultanate of Oman -1990- 1995- to be published by Sultan Qaboos University & Ministry of Information, Sultanate of Oman.

(4) Guest, R. Zufar in the Middle Ages. Islamic Culture XI. 1935, Hydarabad. pp. 407-408.

(٥) يوريس زاريتر: المرجع السابق، ص ١١.

(٦) تنتسب هذه الدولة إلى أحمد بن منجوه الذي أسسها في منطقة ظفار في أواخر القرن ٥هـ/١١م، والمنجويون اصلهم يعوزه التفسير، ويقال أنهم : آل بلخ، وربما كانوا من الأسرات الفارسية أو العربية التي عملت بالتجارة وانتقلت إلى ساحل منطقة ظفار بعد أن تحول النشاط التجاري إلى البحر الأحمر إثر إهتمام الفاطميين بذلك، وربما كان أصلهم من سيراف أو من أحد الموانى الخليجية الرئيسية الأخرى [وزارة الاعلام والثقافة. عمان وتاريخها البحرى. نشر في عمان ١٩٧٩. ص ٤٢، محمد بن الزبير وآخرون: موسوعة السلطان قابوس لأسماء العلماء العرب؛ دليل أعلام عمان. جامعة السلطان قابوس. مطابع العالمية بمسقط ١٩٩١. توزيع مكتبة لبنان ص ١٥٠، فيلبس وندل: تاريخ عمان. ترجمة محمد أمين عبد الله. نشر وزارة التراث والثقافة. سلطنة عمان. الطبعة الرابعة ١٩٩٤ ص ٢٤].

(٧) محمد بن الزبير وآخرون: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٨) مرباط من أهم موانئ عمان على بحر العرب، وقد بلغت رحلة كبيرة من الإزدهار فى القرن ٤هـ/١٠م، وكانت مقر حكم المنجويين الذين أعادوا بناءها فلمع نجمها من جديد فى عهدهم وبخاصة فى القرن ٦هـ/١٢م [وزارة الاعلام: المرجع السابق، ص ٤]، وبعد أن أصبحت ظفار قاعدة المنطقة فى عهد الحبوضيين أصبحت مرباط فرضة ظفار لأن مرساها كان جيداً وأشاد به التجار [ياقوت الحموى [ت٦٢٢هـ]: معجم البلدان. بيروت ١٩٨٠ ـ٤، ص٦٠].

(٩) بالو. إم. كوستا: دراسة لمدينة ظفار [البليد] سلطنة عمان. وزارة التراث القومى والثقافة ١٩٨٤، ص ٦٢.

(١٠) أبى مخرمة [أبى محمد بن عبد الله الطيب بن أحمد: تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندى والأهدل. نشر مكتبة مدبولى. القاهرة. الطبعة الثانية ١٩٩١، الجزء الأول، ص ١٩٥.

(١١) تنتسب الدولة الحبوضية إلى محمد بن أحمد الحبوضى مؤسسها وهو من قريسة حبوظة باليمن وإليها ينسب [محمد بن الزبير وآخرون: المرجع السابق، ص ١٤٣] ويرسم الاسم فى المصادر العربية برسمين ففى بعض المصادر يرسم "الحبوضى" وفى بعضها الآخر "الحبوظى". وقد جرت العادة فى مواضع كثيرة بالجزيرة العربية أن تنطق الضاد ظاء. وربما يفسر ذلك الاختلاف الوارد فى الرسم.

(١٢) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر لابن المجاور. اعتنى بنشره وتصحيحه: أوسكر لوفقرين. المدينة المنورة. الطبعة الثانية ١٩٨٦، ص ٢٦٠.

(١٣) كوستا: المرجع السابق، ص ٦٢. وهنا يجب الاشارة إلى أن ما كتبه ابن خلدون عن عمان وأحداثها بصفة عامة يشوبه الخلط [السيابى [سالم بن حمود بن شامس] عمان عبر التاريخ. سلطنة عمان. وزارة التراث والثقافة. الطبعة الثالثة ١٩٩٤، جـ٢، ص ٢٠٤].

(١٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(١٥) جرت العادة اطلاق هذه الإسم على بعض المدن اليمنية [أبى مخرمة: المصدر السابق ص ٨٠، ١٠٣] وربما أطلقه ابن الحبوضى فى إطار تأثره بذلك.

(١٦) يمكن أن يكون إسم الأحمدية نسبة لمنشئها.

(١٧) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٦٠، كوستا: المرجع السابق، ص ٦٢.

(١٨) محمد بن على الأكوع الحوالى: اليمن الخضراء مهد الحضارة، مكتبة الجيل الجديد، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، ص ص ١٣٦-١٣٧، ص١٤٢.

(١٩) أبو مخرمة: المصدر السابق،ص ١٩٥-١٩٦.

(٢٠) وزارة الاعلام والثقافة، تاريخ عمان البحرى، ص ٤٢.

(٢١) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٦٦.

(٢٢) محمد بن الزبير وآخرون: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢٣) محمد بن الزبير وآخرون: المرجع نفسه، ص ص ٢٩-٣٠.

(٢٤) اليونينى [موسى بن محمد] ذيل مرآة الزمان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن- الهند سنة ١٩٥٥م، الطبعة الأولى، مجلد ٢، ص ٨٩.

(٢٥) أبى مخرمة: المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٢٦) توضح الأرقام فى الجدول ترتيب الحكام الحبوضيين ويلاحظ من خلال هذا الجدول أن الحكم كان وراثياًحيث يرث الحكم الابن عن أبيه، ولم يشذ عن هذا النظام سوى موسى الذى حكم فتره تخللت فيما يبدو فترة حكم ادريس حيث أشارت المصادر والمراجع إلى أن ادريس تولى الحكم بعد أبيه أحمد وتولى من بعده ابنه سالم، كما اشارت إلى أن موسى بن محمود تولى الحكم فى ظفار سنة ٦٥٩هـ، ولم يرد ما يشير إلى تاريخ انتهاء حكمه.

(٢٧) محمد بن الزبير وآخرون: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢٨) الخزرجى [على بن الحسن] العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، دار صادر. بيروت، نسخة مصورة عن طبعة دار الهلال ١٩١١، جـ١، ص٢٦٨، ٣٩٨.

(٢٩) الخزرجى: المصدر السابق، جـ١،ص ٣٩٨.

(30) Guest. Op. Cit., p. 408.

(٣١) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق على المنتصر الكتانى. نشر مؤسسة الرسالة لبنان، بيروت، ١٩٨٥، جـ١، ص ٢٩١.

(٣٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٨٦.

(٣٣) كان السلطان فى ذلك الوقت هو الأفضل العباس بن المجاهد الذى حكم من ٧٦٤/٧٧٨هـ [١٣٦٣-١٣٧٧م] الخزرجى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٣٤.

(٣٤) الخزرجى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٨٦، وهنا تجدر الاشارة إلى أن الخزرجى كان باعتباره مؤرخاً يمنياً يحاول ابراز السطوة وقوة السلطة الرسولية اليمنية على سلاطين ظفار، ويبرز هذا النص أن سلاطين ظفار فى نهاية القرن ٨هـ/١٤م كانوا يستوفدون الصدقات السلطانية اليمنية وهو أمر يتعارض مع قوة ظفار الاقتصادية وازدهارها فى هذه الفترة.

(٣٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٩١.

(٣٦) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٨٧، وسنعرض بالتفصيل لملامح هذا الازدهار العمرانى فى الدراسة المعمارية.

(٣٧) كوستا: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٣٨) فليبس وندل: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣٩) فليبس: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٤٠) ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٤، ص ٦٠.

(٤١) فليبس: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٤٢) فليبس: المرجع السابق، ص ٢٧، كوستا: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٤٣) كوستا: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٤٤) فليبس: المرجع السابق، ص ٩١.

الفصل الثانى

الحياة الاقتصادية لمدينة ظفار

النشاط التجارى لمدينة ظفار:

يمثل النشاط التجارى فى ظفار أهم النشاطات الاقتصادية، بل إنه يمكن القول بأن هذا النشاط بما أحرزه من فائض مالى كان السبب الرئيسى فى إزدهار النشاطات الأخرى كالزراعة والحرف والصناعات وغيرها. وقد توفر لمدينة ظفار مقومات طبيعية وبشرية، وصاحبت ذلك ظروف سياسية ساعدت على إزدهارها كميناء تجارى فى العصور الوسطى.

المقومات الطبيعية:

ظفار ميناء طبيعى يصلح لرسو السفن العائدة من المحيط الهندى فى طريقها إلى باب المندب والبحر الأحمر(١). وتعتبر أيضاً من أقرب الموانى العربية لشبه الجزيرة الهندية فهى أقرب من عدن ومن مرباط التى لعبت دوراً بارزاً فى النشاط التجارى بين الشرقى والجزيرة العربية وإفريقية قبل إنشاء مدينة ظفار، بل أنها ساندت ظفار مساندة قوية حيث كات مرفأ جيداً لرسو السفن الكبيرة على سواحلها مباشرة(٢).

وساعدت الرياح الموسمية على هذا النشاط التجارى بين ظفار والصين والهند شرقاً، وبين شرق إفريقية والبحر الأحمر غرباً. وقد حددت هذه الرياح موعد الرحلة شرقاً إلى الصين فى منتصف شهر نوفمبر حيث تصل السفن إليها فى ابريل، وتبدأ رحلة العودة من أكتوبر وديسمبر وتصل من فبراير ومارس، وإذا كانت التجارة فى سبيل نقلها إلى موانئ الخليج فى الشمال فإن الرحلة تواصل مسيرها بعد ذلك فى أوائل مايو(٣).

أما الرحلة بين ظفار والهند فإنه كان من الممكن لقرب المسافة أن تتكرر مرتين فى العام، حيث تستغرق الرحلة من أسبوعين إلى ثلاثة أشهر ثم تعود مغادرة سواحل الهند "كاتجارات وكونكا" فى أواخر يونيو مستغلة الرياح الجنوبية الغربية والعودة فى شهر مايو[٤].

أما الرحلة إلى شرق إفريقية فإن موعدها كان غالبا فى شهر ديسمبر حيث تنطلق فى اتجاه شرق إفريقية لتصل فى غضون ثلاثة إلى أربعة أسابيع وأحياناً تتأخر إلى شهر فبراير حتى تصل إلى موانئ شرق افريقية، وأهمها كلوة التى بقى نفوذها حتى مجئ البرتغاليين[٥].

ويعتبر الماء من أهم الموارد الطبيعية التى زادت من أهمية الموانئ العمانية وبخاصة ظفار حيث كانت السفن القادمة من الصين والهند تتزود بما تحتاجه من الماء من الموانئ العمانية[٦]. وشكلت الأخوار التى تجرى بالماء العذب من الداخل إلى الساحل المصدر الرئيسى للماء العذب الذى يعتمد عليه الموانئ فى إحتياجات سكانها وكذلك فى تزويد السفن القادمة إليها بما تحتاج اليه.

الظروف السياسية:

أدى ازدهار الخلافة الفاطمية فى مصر، وسوء حال الخلافة العباسية فى بغداد إلى تحول التجارة الشرقية تدريجيا إلى البحر الأحمر بدلاً من الخليج وبلغ الأمر ذروته حين سقطت الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد المغول الذين أدت حروبهم فى بلاد العراق والشام إلى تهديد الطريق البرى الذى يخترق هذه المناطق فزاد الاعتماد بالتالى على الطريق البحرى عبر الموانئ الشرقية لشبه الجزيرة العربية ومنها إلى البحر

الأحمر فمصر إلى أوروبا[٧]، وشمال افريقية. واستغل الأيوبيون والرسوليون والمماليك هذا التحول أيما استغلال، فازدهرت التجارة عبر هذه الموانئ وفى البحر الأحمر بينما ضمرت موانئ الخليج التى اعتمدت على استقبال التجارات التى تكفى المناطق المطلة عليه.

ومع هذا التحول أخذت أهمية ميناء ظفار تزداد بازدياد حجم التبادل التجارى مع الخليج وإفريقيا الشرقية مما أدى إلى تطور الصلات التجارية[٨] بين ظفار وهذه المناطق باعتبارها محطة مهمة فى طريق التجارة البحرية والذى يربط الشرق بالغرب.

المقومات الاقتصادية:

يمكن أن نقول باطمئنان أيضا أن ازدهار مدينة ظفار كان فى إطار النشاط التجارى الذى تميز به الحبوضيون عن أسلافهم المنجويين، فقد شجع الحبوضيون النشاط التجارى، وزاد من أثر ذلك أنهم كانوا فى الأصل تجار مهرة قبل أن يصلوا إلى السلطة[٩] وركزوا اهتمامهم على جعل مدينة ظفار مركزا تجاريا رئيسيا على ساحل بحر العرب، وكذلك كان سكان المنطقة ذوى شهرة كبيرة فى النشاط التجارى منذ اقدم العصور وحتى العصر الحديث.

وتوفرت موارد اقتصادية مهمة لمنطقة ظفار ساعدت على أن تشارك هذه المدينة بها مشاركة جيدة فى النشاط التجارى الذى تقوم به مع بلاد الشرق كالصين والهند أو الغرب كشرق إفريقية وشمالها.

وتعتبر تجارة الخيول من أهم النشاطات التجارية التى جلبت الثروة والرخاء على منطقة ظفار كلها[١٠]. وفى إطار الإهتمام بتنشيط هذه التجارة

كان اتجاه أحمد بن محمد الحبوضى بإحياء الطريق الذى يربط بين بغداد ومرباط وظفار والذى تستجلب بواسطته الخيول من منطقة ظفار وغيرها إلى مدينة ظفار حيث يتم تصديرها بعد أن كان مجمدا فى عهد المنجويين[١١] وتعكس أهمية هذا الطريق وكثافة استخدامه لهذا الغرض ما يذكره ابن المجاور من أن أحمد بن محمد الحبوضى كان يخشى غضب الخلافة العباسية فى بغداد بسبب احتمال تأثر هذا الطريق بالاستخدام المكثف له من قبل البدو الذين يجلبون الخيول إلى مدينة ظفار[١٢]، وقد انعكس هذا الخوف – فيما يبدو – على الإهتمام بتحصين مدينة ظفار عند اعادة بنائها على يديه.

ويعظم ماركو بولو من أهمية دور ظفار فى هذه التجارة حيث يذكر أن "ظفار كانت مكانا مهما لتصدير سلعة من أهم السلع العمانية فى العصور الوسطى وهى الخيل، ويشير إلى أهمية هذه التجارة فى العصور الوسطى حيث كان لها دور عظيم فى خلق وحدة الجماعة التجارية فى المحيط الهندى[١٣].

واستمرت تجارة الخيول هى المحور الرئيسى فى النشاط التجارى لمدينة ظفار حتى القرن التاسع الهجرى [الخامس عشر الميلادى] عندما بدأ البرتغاليون فى السيطرة على التجارة فى المنطقة ففرضوا حصارا على هذه التجارة لم ينفك، وكان هذا الحصار من أهم الأسباب التى أدت إلى انحدار مدينة ظفار وإندثارها[١٤]. ومن طريف ما يذكر أن النعام كان أيضا من الحيوانات التى تصدر إلى بلاد الصين وهكذا كانت مدينة ظفار الميناء الرئيسى لتصدير الفائض من الثروة الحيوانية التى اشتهرت بها عمان بصفة عامة ومنطقة ظفار على وجه الخصوص.

كذلك كان اللبان من أهم منتجات منطقة ظفار التى كانت تصدر إلى البلاد المختلفة وبخاصة بلاد الصين[١٥]. وتشير المصادر إلى أن اللبان كان يجمع محصوله ويحمله العرب فى مراكبهم ليبادلوا به على سلع أخرى فى سان فو– شى (ساحل سوطره الشمالى الشرقى) وعندما يأتى التجار الأجانب إلى ذلك المكان للتجارة تميز سلطات المكس بين ثلاثة أنواع من اللبان حسب نفاذ طيب رائحتها[١٦]. وفى ذلك ما يشير إلى أهمية سلعة اللبان كمصدر للدخل فى موانئ أخرى باعتبارها سلعة رائجة. واذا كان اللبان من أهم صادرات موانئ عُمان ممثلة فى مرباط ومدينة ظفار إلى الشرق فإنه كان أيضاً من أهم السلع التى صدرتها مدينة ظفار إلى مصر ودول حوض البحر المتوسط[١٧].

وصدرت مدينة ظفار بالإضافة إلى السلع السابقة المنسوجات الحريرية التى اشتهرت بها والتى تمت صناعتها فى مدينة ظفار ذاتها، فقد كانت تستورد المواد الخام اللازمة لصناعة هذه المنسوجات ثم تقوم بصناعتها لتعيد تصديرها مصنعة بأثمان عالية فى الوقت الذى تستورد فيه المنسوجات القطنية الرخيصة من الهند للاستهلاك المحلى[١٨]. وفى ذلك ما يشير إلى حكمة التخطيط الاقتصادى المعتمد أيضاً على استغلال إمكانيات مدينة ظفار فى النشاط التجارى البحرى العالمى.

تجارة ظفار مع الشرق [الصين والهند]

من المعروف أن الصلات التجارية بين عُمان والصين فى العصر الإسلامى بدأ منذ وقت مبكر، وتدلل على ذلك نشاط التجار العمانيين مع هذه البلاد فى النصف الأول من القرن ٢هـ/٨م[١٩]. واستمرت هذه الصلات التجارية بين عُمان والصين فى الفترات التالية، لكنها كانت تتأثر بالأوضاع

السياسية في عهد الأسرات الحاكمة في الصين[٢٠]. فعندما استقرت الأوضاع السياسية في عهد أسرة سانج [٣٩١-٦٧٨هـ/ ٩٦٠-١٢٨٩م] عادت السفن العمانية إلى الابحار إلى موانئ الصين للتجارة وتبادل السلع وفي عهد اسرة مينج [٧٧٠-١٣٦٨هـ/ ١٠٥٤-١٦٤م] ازدادت الصلات التجارية توثيقاً، وكان لظفار في هذه الفترة علاقات ذات طبيعة خاصة بالصين تعكسها الصلات الطيبة بين الحكام والبعثات الرسمية بينهما.

وتسجل المصادر مايشير إلى هذه العلاقات فقد ذكر إسم ظفار في المصادر الصينية كمدينة من أهم الموانئ في شرق الجزيرة العربية وعرفت باسم "نوفا" Un-Fa[٢١].

وكذلك تشير المصادر إلى أنه في عهد أسرة مينج زارت مدينة ظفار احدى السفن الكبيرة من أسطول الأميرال الحاج زينغ[٢٢]، وهي سفينة شراعية ضخمة يبلغ طولها ١٦٠متراً، وكان من بين ركابها عدد من الرجال القائمين بالترجمة وتدوين الأخبار، كما حدث في عهد هذه الأسرة أن قام وفد رسمي يمثل ظفار بزيارة الصين وعلى إثر ذلك طلب الامبراطور الصيني مينغ أن يقوم وفد رسمي صيني بزيارة ظفار وأن يحمل معه الهدايا والأوراق الرسمية لاعتمادهم مندوبين عن الصين لدى ظفار[٢٣].

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن حكام اسرة مينج عملوا على إنشاء مدرسة خاصة للترجمة، وشجعوا كذلك على دراسة واكتشاف الدول الأجنبية، كما ركزوا الإهتمام على بناء السفن المحلية الكبيرة الحجم لتكون مناسبة للابحار إلى مناطق بعيدة من العالم، وكان وراء هذه الخطط الجنرال زينغ[٢٤].

وتؤكد الأدلة الأثرية التي كشف عنها في مدينة ظفار على هذه العلاقة التجارية الوثيقة بين بلاد الصين وظفار، فقد كشف عن بعض قطع المسكوكات الصينية التي ترجع إلى القرن ٦هـ/١٢م في مدينة ظفار بالقرب من المسجد الجامع[٢٥][انظر لوحة رقم ١]. وعثر أيضا في التنقيبات التي قام بها قسم الآثار بجامعة السلطان قابوس سنة ١٩٩٦م[٢٦] عن قطع من أساور زجاجية مزخرفة صنعت في الصين [لوحة رقم٢]، كما عثر على قطع مشابهة له في عين حمران مما يشير إلى أن هذه النوعية من السلع الصينية كانت تستوردها ظفار لأهلها ولأهل المدن والبلاد الداخلية الأخرى. كذلك عثر على قطع من الخزف الصيني المعروف الذي يرجع إلى عهد أسرة منبج من النوع المعروف بالسلادون الصيني، وكذلك البورسلين [لوحة رقم ٣]. كذلك عثر على بعض قطع من الزجاج عبارة عن بقايا أواني وردت غالبا من الصين، ولاشك أن الكشف عن بقية مباني المدينة من شأنه أن يكشف عن منتجات صينية أخرى مشابهة تؤكد هذه الصلات التجارية بين الصين وظفار.

تجارة عمان مع الهند :

استمرت الصلات التجارية بين عمان والهند منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث، وهي علاقات وثيقة تؤكدها الشواهد الأثرية ممثلة في صناعة السفن المحيطة بالجبال والتي يقال إن عمان نقلتها عن الهند، ويؤيد هذه الفكرة الألواح المنحوته في الهند والتي يعود تاريخها إلى القرن ٢ ق.م[٢٧].

كذلك فإن كثيرا من العناصر المعمارية ممثلة فى العقـود المفصصة والواجهات الخشبية للمبانى عرفت فى الهند وانتقلت إلى الجزيرة العربية قبل الإسلام واستمرت فى العصر الاسلامى.

وتشير المصادر التاريخية إلى اعتماد عمان فى بعض حاجياتها الغذائية على الهند وكذلك استوردت عمان الملابس القطنية[٢٨]. كما أن بعض المصنوعات المعدنية وبخاصة النحاسية كانت تصنع أو يعاد تصليحها فى الهند، كما استعانت عمان بالخبرة الهندسية فى بناء السفن الضخمة فى بعض الموانى الهندية.

وإذا كانت التجارة بين الصين وعمان قوية مزدهرة فى العصور الوسطى فإن أول محطاتها كانت الموانئ الهندية على الساحل الغربى لشبه القارة الهندية. ومن هنا استفادت الهند استفادة واضحة وبخاصة من تجارة الخيول التى كانت تغل على الوسطاء الهنود ربحاً كبيراً.

التجارة مع شرق إفريقية :

ارتبطت عمان بشرق افريقية ارتباطا وثيقا، وتعود علاقة عمان بشرق افريقية فى العصور الإسلامية إلى سنة ٧٠هـ/٦٩١م حيث كانت مهجرا فر إليه العمانيون من اضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفى[٢٩].

واشتهرت تجارة العمانيين مع شرق افريقية، وساعد على ذلك موقع عمان حيث أنها تحتل موقعا نموذجيا أهلها للاستفادة من الرياح الشمالية الشرقية التى ساعدت السفن التجارية العمانية للوصول إلى شرق افريقية، ولم تكن الرحلة البحرية التى تغادر عادة فى ديسمبر- لاتستغرق أكثر من ثلاثة اسابيع إلى أربعة وأحيانا تتأخر إلى فبراير، وفى القرن ٤هـ/ ١٠م

كان العمانيون قد أثبتوا تفوقهم فى السفر إلى سواحل شرق افريقية وهو تفوق بلغ أوجه فى القرنين ١١-١٢هـ/١٧-١٨م حيث أسسوا دولتهم الكبرى هناك[٣٠]. ومن جهة أخرى فقد ساعدت الظروف السياسية التى تمثلت فى قيام الخلافة الفاطمية في مصر واستمرار مصر كقاعدة لحكم الأيوبيين والمماليك بعد ذلك فى زيادة النشاط التجارى عبر البحر الأحمر وكان لسقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أثره أيضا فى تدعيم هذا النشاط سيما وأن هذا الحدث قد أدى بلاشك إلى ضمور التجارة العالمية البحرية فى الخليج العربى. وكان له أثره أيضا فى اضطرار بعض التجار العرب والفرس إلى الهجرة من مناطق شمال الخليج جنوبا إلى الموانئ الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية والى موانئ شرق افريقية. ويأتى انشاء مدينة ظفار وازدهارها فى إطار هذا التوجه وبخاصة وأن موقعها كان استراتيجيا - فى ذلك الوقت- بالنسبة لحركة السفن بين شمال عمان وافريقيا ومع حلول عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م كانت ظفار قد بلغت أوجها وكانت على وشك أن تشهد قرنين من الرخاء النسبى تخللهما محاولات حكام اليمن الرسوليين وحكام حضر موت الكثيرين لأن يحوزوا عليها وإن كان الكثيرون أنجح الطرفين فى طول السيطرة[٣١].

ولم يقتصر النشاط التجارى للعمانيين على نقل المتاجر بحريا إلى شرق افريقية ولكن امتداد النشاط التجارى العمانى إلى شمال افريقية عبر قوافل تجارية برية تجوب الطرق التجارية البرية الصحراوية الافريقية وصولا إلى بلاد شمال افريقية أيضا تشهد بذلك المصادر التاريخية التى أكدت على أهمية هذا النشاط ليس فقط فى مجال التجارة والاقتصاد ولكن أيضا فى نشر الإسلام بصفة عامة والمذهب الإباضى علي وجه الخصوص.

ويبدو أن لهذا التواصل الدينى أصوله وأحداثه التى ترجع إلى نهاية القرن الأول الهجرى على وجه التقريب، حيث تشير المصادر إلى أن رئيس الدعاة الاباضية فى جبل نفوسه قد تلقى العلم فى أصول المذهب الإباضى على يد أحد أقطابه العمانيين وهو أبى عبيدة بن أبى كريمة. وكان ذلك بداية لتوجه أقطاب المغاربة الأوائل أمثال عبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراتى وأبو داود القبلى النفزاوى واسماعيل بن درار الغدامسى للتكوين المذهبى على ايدى نفس الشيخ الإباضى الذى تحول على بلاد المغرب لانجاح الدعوة الاباضية[٣٢].

وبالمقابل توجه علماء عمانيون إلي بلاد المغرب لنشر المذهب الإباضي وبفضلهم تمكن سكان نفوسه من التفقه في تعاليم الإسلام وحفظ القرآن الكريم[٣٣]، ولعل من أبرز هؤلاء العالم العماني الشهير ابن الجمع الذي رحل إلي المغرب في القرن ٤هـ/١٠م حيث نشر مذهبه وفقهه في المغربين الأدنى والأقصى قبل انتقاله إلى مدينة سلجماسة بجنوب المغرب الأقصى فكان خير معلم وأجل أستاذ[٣٤].

ولاشك أن هذا التواصل الدينى المذهبى بين عمان وبلاد المغرب كان من أهم العوامل التى ساعدت على تكوين أول دولة إباضية في بلاد الغرب فى تاهرت، وانتشار المذهب الإباضى فى جبل نفوسه وجربه. وورجلان ومناطق مهمة من السودان، بل إن مدينة زويله[٣٥]، وطرابلس[٣٦] أيضا كانت من المدن التى اعتنق أهلها المذهب الإباضي[٣٧].

وتعتبر تاهرت وسلجماسة من أهم المدن المغربية التى تربط المشرق الاسلامى ببلاد السودان التى كانت تمثل مركز جذب قوى للتجار بفضل ما

توفر فيها من الذهب وغيره من المواد التى جذبت التجار فى العصور الوسطى.

والخلاصة أن انتشار المذهب الإباضى فى بعض مناطق الشمال الإفريقى كان له دور فى تدعيم النشاط التجارى فى عمان وامتداده من شرق إفريقية إلى شمالها عبر قوافل تجارية عمانية تحمل هذه تجارات الشرق إلى شمال إفريقية وتجارات الشمال الافريقى إلى بلاد الشرق.

واستغل العمانيون بضائع المشرق الإسلامى ليحملوها إلى المغرب كالثياب المختلفة الألوان والديباج والخزف العراقى المتقن الصنع[٣٨] وماء الورد والبنفسج والأحجار الكريمة والعقود والجراير الواردة من الصين والزمرد وغير ذلك من مواد الترف[٣٩]. وجلب العمانيون من المغرب إلى عمان الذهب والفضة واللبود والقنب والكراويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت والحناء[٤٠].

وإلى جانب هذه السلع كانت تجارة العبيد الذين يجلبون من افريقية إلى عمان تمثل تجارة رائجة ومزدهرة[٤١]. ويؤكد ذلك ما رواه ابن الوردى من أن الزنج أنفسهم كانوا يقصدون ميناء سفالة ليبيعوا أولادهم وزوجاتهم لتجار عمان مقابل التمر والخرز والملح[٤٢].

وتشير المصادر إلى وجود هؤلاء العبيد الذين أتوا من أفريقية فى عمان وقيامهم بالأعمال القاسية كقطع الأحجار وأعمال الزراعة التى تحتاج إلى جهد وطاقة[٤٣]. وظلت بقايا هؤلاء العبيد الأفارقة تمثل فئة فى المجتمع العمانى إلى عهد قريب[٤٤].

وإذا كانت ظفار ميناء مهما للنشاط التجارى بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى فإنها كان مركزا تجاريا مهما على الطريق التجارى البرى الذى كان يربط بين ريسوت وظفار فمرباط فالاحساء فبغداد وقد أشار ابن المجاور إلى هذا الطريق وذكر أنه كان مجصصا بالجص والنورة. كما ذكر السلع والبضائع التى تنقل من خلاله فقد ذكر أن البضائع التى تنقل عبر القوافل فى اتجاه الشمال كانت البهار والخزف وأن البضائع التى كانت تنحدر من الشمال لتصدر عبر ميناء ظفار إلى الهند تمثلت فى الصفر (النحاس) والزنجفر والماورد والفضة وما يشابه ذلك[٤٥].

ويتضح من هذا الغرض أن النحاس العمانى كان يصدر من ميناء ظفار إلى الهند، كذلك ربطت بين ظفار والمناطق الداخلية بشبه الجزيرة العربية طرق برية، ويشير إلى ذلك "جيست Guest" حيث يشير إلى أن الاكتشافات الأثرية تشير إلى وجود طريق برى يربط بينها وبين جبرين ومن جبرين إلى اليمامة[٤٦]، وهذه الطريق كانت تتقابل بعد رحلة تستغرق من شهر ونصف شهر، كذلك اتصلت ظفار بالطرق البرية المؤدية إلى اليمن[٤٧]. ولاشك أن القوافل التى مرت بهذه الطرق كان لها دورها أيضا فى تنشيط تجارة ظفار مع هذه المناطق وبخاصة فى فترة أوج ازدهارها فى القرن ١٣/١٤م.

وكانت ظفار تزود المدن والمستوطنات العمانية المجاورة بما تحتاجه من السلع الواردة اليها، ولا أدل على ذلك من تلك الأساور الزجاجية الصينية التى عثر على قطع منها فى عين حمران[٤٨]، والتى ترجع إلى القرن ٨هـ/١٤م والتى عثر على نماذج مشابهة لها فى مدينة ظفار، وهو ما يؤكد هذه الحقيقة. وفى ذلك ما يشير إلى أن قلعة عين حمران التى تمثل قاعدة هذا

المستوطن كانت عامرة فى هذه الفترة. ومن ثم فإن دراسة البقايا المعمارية وبخاصة الطبقات العليا منها من الأهمية بمكان حيث أنه فى إطار هذه المعثورات التى كشفت عنها، وفى إطار دراسة مقارنة بين أساليب بناء السلالم والجدران الباقية فى الطبقات العليا فى المواضع التى تم التنقيب وبين الأسلوب المماثل لبناء جدران المسجد الجامع فى مدينة ظفار يتضح أن هناك إضافات وتعديلات معمارية إسلامية قد تمت فى عمارة هذه القلعة التى يرجع الآثاريون إنشائها إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد[٤٩].

كذلك عثر على قطع من أساور زجاجية مشابهة فى شصر بما يؤكد وجود روابط تجارية بين ظفار كميناء رئيسي على الساحل وبين مناطق الداخل، وإذا كانت شصر نقطة مهمة على طريق التجارة القديم على حافة الربع الخالى وكشف فيها من أدلة أثرية إسلامية ترجع إلى الفترة المحصورة بين سنة ٩٠٠ - ١٤٠٠م[٥٠] فإن فى ذلك ما يؤكد معاصرة النشاط التجارى لها مع نشاط عين حمران وارتباط ذلك بازدهار ظفار التجارى خلال القرنين ١٣/١٤م.

وقد انعكس النشاط التجارى البحرى- بلا شك- على تخطيط مدينة ظفار وبخاصة أبوابها. فقد كرس بابان من أبوابها الأربعة لخدمة الاتصال بالبحر والسفن الواردة والصادرة هما باب البحر فى الضلع الجنوبى، وباب حرقة فى الضلع الشرقى. ويبدو أن هذا الباب الأخير كان يؤدى إلى الموضع الذى ترسو فيه السفن الواردة إلى ظفار حيث ذكر ابن المجاور أن هذا الباب "ينفذ إلى عين فرض"[٥١] أى أنه كان ينفذ إلى المنطقة الجمركية التى يتم فيها التعامل مع السفن الواردة فيما يختص بأخذ العشور على البضائع التى

تحملها هذه السفن، وذلك بعد "المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد"[٥٢] لجميع هذه السلع والبضائع.

وقد جرت العادة فى الموانئ فى هذه الفترة على إنشاء منشأة تسمى الفرضة يتم فيها أداء كل ما يتصل بالجمارك المفروضة على السلع والبضائع الواردة على السفن القادمة لهذا الميناء أو ذاك. وغالبا ما يكون لهذا المبنى بابان[٥٣] أحدهما يؤدى إلى خارج الميناء مباشرة والآخر تمر منه البضائع إلى داخل المدينة. وفى الغالب فإن مدينة ظفار كانت تشتمل على "فرضة" لتؤدى الغرض المذكور. ولا نستطيع أن نحدد موضعها بالضبط ولكن وجود هذه المنشأة فى الغالب يكون مجاور إما للباب الذى بالسور الشرقى والذى يسمى حرقة. وربما يكون فى هذا التصور ما يساعد على تفسير التكوين المعمارى الضخم الذى كشف عن بقاياه بجانب البوابة الشرقية التى ذكر كوستا "أنها عبارة عن نظام معمارى ذو طابع تذكارى له تخطيط مثير للاهتمام حيث أن الجزء الذى تم الكشف يبرز حوالى خمسة أمتار من مكان يبدو أنه الخط العام للسور الرئيسى للمدينة"[٥٤]، ويستطرد كوستا ليقول أن المدخل صمم ليشتمل على قسمين، القسم الأول مواز لمقر اجتماعات المدينة والقسم الآخر يتجه نحو تسعون درجة إلى اليمين على احتمال أنه يمر عبر بوابة أخرى داخلية تنفتح عبر السور، وهناك احتياج لإجراء المزيد من التنقيبات ليس فقط بغرض البحث عن ما يدل على البوابة الداخلية بل أيضا بغرض توضيح العلاقة ما بين كل من البوابة وقاعة الاجتماعات المذكورة [٥٥].

وقد وصف كوستا ما كشف من البوابة الجنوبية "باب الساحل" وصفا موجزا يوحى بأنها مخططه وفق نظام المداخل المنسكرة الذى يساعد على

الدفاع عن المدن وأبوابها كما كان الحال فى بغداد وغيرها [شكل رقم ٣]. ويستطرد كوستا ليذكر أن هذه البوابة كانت صغيرة فى حجمها، ويبدو أنها كانت تؤدى من خلال هذا الممر المنكسر إلى طريق ينتهى إلى المسجد الجامع[٥٦]. وإذا ما عقدنا مقارنة بين هذا الوصف لباب الساحل والوصف السابق لباب حرقة وما يتصل من تكوينات معمارية ضخمة يتضح لنا أن "الفرضة" كانت متصلة معماريا بالباب الشرقى وهو باب حرقة، وأن التكوين المعمارى الذى يطلق عليها كوستا "قاعة اجتماعات" هو فى الغالب بقايا هذه الفرضة. وهكذا تتفق الشواهد الأثرية ما ما ذكره ابن المجاور من أن باب حرقة "ينفذ إلى عين فرض" حيث تصل إلى البحيرة الصغيرة التى تقع إلى الشرق منه والتى كانت كمرسى للسفن الواردة أو الصادرة.

وقد وجدت السفن الواردة إلى ميناء ظفار تعاملا حسنا من سلطات المدينة، حيث يذكر ابن بطوطة "أنه إذا وصل مركب من الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل، وصعدوا فى صنبوق إلى المركب، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس، والكرانى وهو كاتب المركب، ويؤتى اليهم ثلاثة افراس فيركبونها، وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان، فيسلمون على الوزير وأمير الجند، وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب[٥٧].

وإذا قارنا بين هذا السلوك للمسئولين فى ميناء ظفار وبين سلوك نظرائهم فى ميناء عدن لاتضح لنا كيف أن السلطات فى ميناء ظفار تعاملت معاملة حسنة طيبة مع كل وارديها من التجار، وساعدت هذه المعاملة على ازدهارها كميناء تجارى على بحر العرب. قد وصف أبى مخرمة صورة

استقبال السفن الواردة إلى ميناء عدن فقال: إذا قرب المركب من الميناء ركب المبشرون الصنابيق للقاء المركب، فإذا قربوا من المركب صعدوا وسلموا إلى الناخوذة، ويسألونه من أين وصل، ويسألهم الناخوذة عن البلد وعن الوالي وسعر البضائع وكل من يكون له في البلد من أهل أو معاريف من أهل المراكب، إما يهنونه أو يعزونه له وعليه شئ نحو (...)[٥٨]، ويكتب اسم الناخوذة وأسماء التجار، ويكون الكراني قد كتب جميع ما في بطن المركب من متاع وقماش، فيسلم اليهم اليهم الرقعة، وينزل المبشرون في الصنابيق راجعين إلى البلد كلهم رأسا واحدا إلى الوالي، يعطونه رقعة الكراني مع ما كتبوه من أسماء التجار ويحدثونه بحديث المركب، ومن أين وصل وما فيه من البضائع، ويخرجون من عنده يدورون في البلد يبشرون أهل من وصل بجمع الشمل ويأخذ كل بشارته، فإذا وصل المركب إلى المرسى، وأرسى تقدم اليهم نائب السلطان، ويصعد المفتش يفتش رجلا بعد رجل ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط ويضرب بيده على حجرة الانسان ويدخل يده في إليته ويشمه على قدر المجهود، وكذلك عجوز تفتش النساء، تقرب بيدها من أعجازهن وفروجهن، فإذا نزلت التجار إلى البلد نزلوا بدبشهم من الغد، وبعد ثلثة أيام تنزل الأقمشة والبضائع إلى الفرضة تحل شدة شدة وتعد ثوبا ثوبا وإن كان من بضائع البهار يوزن بالقبان ويضرب في جميع ما أشكل عليهم السبح لئلا يبقى شئ، وقد عاهدوا والله عز وجل أن يبذلوا المجهود قدام المشائخ".

ويتضح مما سبق التعنف وسوء المعاملة التي كان يلاقيها التجار في ميناء عدن حتى ليذكر ابن المجاور أنه نتيجة هذه المعاملة السيئة "يظهر على التاجر الحراف ويقتله الحزن ويبقى في وادى الدبور بما يعملون معه من الفعل الذي يطير منه البركة والسعادة"[٥٩].

وقد تنوعت المكوس التي تفرض على البضائع والسلع وكانت تشكل مصدرا مهما من مصادر الدخل، وقد أشارت المصادر على سبيل المثال إلى أنواع المكوس التي كانت تؤخذ على البضائع بميناء عدن فذكرت أنها عشور قديم، وهو مال الفرضة وعشور الشواني ودار الوكالة عن الدينار قيراط ودار الزكوة والدلالة والأربعة الأخيرة استجدت بعد سنة ٦٢٥هـ/ سنة ١٢٢٨م[٦٠]. ولا نعرف بالضبط أنواع المكوس التي كانت تؤخذ على البضائع من ميناء ظفار.

النشاط الزراعي:

توفرت لمدينة ظفار المقومات الأساسية للنشاط الزراعي، سواء في الأرض المنبسطة ذات التربة الخصبة أو في المياه العذبة ممثلة في الخور أو الآبار التي حفرت لتزويد مناطق العمران بالمدينة ومحيطها بالماء اللازم لاستخدامات الحياة والزراعة ايضا[٦١]، ولاشك أن الأمطار التي تسقط بكثافة على منطقة ظفار تجعل استمرارية توافر الماء بالخور والآبار قائمة باستمرار كما أنها تساعد أيضا على نمو المراعي التي تساعد على تربية قطعان الماشية التي تعتبر مصدرا مهما من مصادر الثروة الحيوانية بمنطقة ظفار كلها.

وقد اهتم حكام المنطقة منذ عهد المنجويين بالزراعة ولكن الحبوضيين كان لهم دورا بارزا في توسعة النشاط الزراعي وادخال زراعة العديد من أنواع الأشجار والمحاصيل إلى المنطقة، ويشير إلى ذلك ابن المجاور حيث يذكر أن ظفار "زرعت أنواعا عدة من الفواكه فمن الهند أخذت الفوفل والنارجيل من الساحلية قصب السكر والموز ومن العراق أخذت الرمان والعنب ومن النخل جمل، ومن ديار مصر الليمون والأترنج والنارنج ومن

السند النبق ومن الحجاز الدوم وهو المقل(٦٢). واستغلت بعض أنواع الأسماك المتوفرة في المنطقة في التسميد(٦٣) مما ساعد على زيادة الإنتاج الزراعي ووفرته.

وتمثل أشجار اللبان مصدرا اقتصاديا زراعيا مهما حيث تنمو هذه الأشجار في منطقة ظفار وتنتج أجود أنواع اللبان الذى ظل منذ أقدم العصور من السلع التصديرية المهمة التى اشتهرت بها المنطقة بل وأنشئت من أجل تصديره الموانئ المهمة على بحر العرب كميناء سمهرم وريسوت ومرباط ثم ظفار.

واعتمدت مدينة ظفار – شأنها شأن المدن فى العصور الوسطى– على اقليمها، فقد توافرت فى المدينة المحاصيل الزراعية الغذائية كالأذرة والقمح والفواكه التى زخرت بها أسواق المدينة كما أن الثروة الحيوانية فى المنطقة كفلت توفير اللحوم والألبان والشحوم كمواد غذائية أساسية، هذا بالإضافة إلى ما توفره من مواد أخرى تصلح لقيام بعض الصناعات كصناعة بعض المعدات والأدوات التى تستخدم فى الحياة اليومية.

وقد تنوعت الزراعات فى ظاهر المدينة بين البساتين والمزارع وجاورت المدينة مباشرة البساتين التى انتشرت فيها الدور والقصور والزوايا والمساجد والتى كانت أيضا بمثابة متنزهات جميلة. ويلى منطقة البساتين منطقة المزارع التى خصصت لانتاج المحاصيل والتى شغلت مساحة كبيرة من الأراضى السهلية الخصبة التى تجاور المدينة من الداخل [شكل ٢] وساعد قربها من المدينة على تحقيق أكبر عائد اقتصادى بأقل تكاليف ممكنة.

ولاشك أن إزدهار النشاط التجارى لمدينة ظفار كان له أثره المباشر فى استثمار الفائض المالى فى زراعة أكبر مساحة ممكنة من الأراضى الزراعية التى يمكن زراعتها، وارتباط ازدهار النشاط الزراعى فى عمان بازدهار النشاط التجارى ظاهرة واضحة فى تاريخ المدن العمانية ولعل أروع مثال لذلك مدينة صحار(٦٤).

النشاط الصناعى :

اشتهرت ظفار بالعديد من الحرف والصناعات التى اعتمدت فى المقام الأول على ما توفر بها من مواد خام لازمة وتوفر العمالة الماهرة التى توارثت هذه الحرف والصناعات.

وقد تنوعت هذه الصناعات بتنوع المواد التى تستخدم فيها، فعلى سبيل المثال انتشرت الصناعات التى تعتمد على المنتجات الزراعية بالمدينة وظاهرها فقد قامت على النارجيل عدة صناعات منها صناعات القوارب(٦٥) والحبال(٦٦) والعسل والحليب والزيت(٦٧)، وأحيانا بعض أنواع السعفيات التى تشأت فى المقام الأول على نوع معين من النباتات البرية تشبه أوراقه سعف النخيل والنرجيل ينمو فى سهل قريب من فى الطريق من ظفار إلى شصر. وقد تنوعت المصنوعات السعفية حتى أنه قد صنع من الخوص سجاد للصلاة(٦٨).

وتكشف المصادر على أن مدينة ظفار قد اشتهرت بصناعة المنسوجات الحريرية على وجه الخصوص، وبالرغم من أن عمان كلها وظفار على وجه الخصوص كانت تستورد الملابس القطنية من الهند ليلبسها العامة، فإنها كانت تستورد الحرير والقطن والكتان وتقوم بنسجه وتصديره مرة أخرى

بأثمان غالية. وهو ما يشير إلى وجود الصناعات التصديرية فى ظفار منذ هذا التاريخ المبكر وإن دل ذلك على شئ فإنه يدل على مستوى التفكير الاقتصادى الذى بلغه العمانيون فى العصور الوسطى.

وتؤكد المصادر على هذه الحقيقة فيذكر ابن بطوطة أنه كان يصنع بظفار "ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا"(٦٩). ويشير ابن أبى مخرمة إلى قيمة العشور التى كانت تؤخذ فى ميناء عدن مع الثوب الظفارى فيذكر أنها كانت "ربع دينار وجائز" (٧٠) أى ثلث دينار. حيث أن "الدينار أربعة أرباع كل ربع ثلاثة جوز"(٧١). وإذا كانت العشور على الثوب الظفارى بهذه القيمة فإن فى ذلك ما يشير إلى ارتفاع ثمنه مقارنة بأنواع الثياب الأخرى وبجودته التى جعلته سلعة تصديرية.

وإذا كانت صناعة النسيج فى مدينة ظفار قد بلغت هذا الشأن فإن الأدلة الأثرية الباقية على وجود هذه الصناعة مازالت محدودة وكل ما عثر عليه من أدلة يتمثل فى بعض القطع الحجرية المثقوبة التى تمثل الأثقال التى تربط فى أطراف خيوط السدى فى الأنوال التى تنسج عليها هذه المنسوجات. ومع استمرار أعمال التنقيب فى المدينة فإن احتمال العثور على أجزاء أخرى من الأنوال أو الأدوات الأخرى التى تستخدم فى هذه الصناعة أمر محتمل ويجب أن يضعه المنقبون فى الحسبان وهم يقومون بأعمال التنقيب بهذه المدينة، كما أن احتمال العثور على قطع منسوجة تمثل انتاج ظفار من المنسوجات الحريرية أمر قائم، كذلك فإن ما عثر عليه من منسوجات حريرية فى اليمن أو غيرها من البلاد التى لها تعامل تجارى مع مدينة ظفار، يجب أن يدرس فى ضوء اعتبار شهرة هذه المدينة بهذه النوعية من المنسوجات.

ولم تأت شهرة مدينة ظفار فى صناعة النسيج من فراغ، حيث أن لها أصولها وربما يتجه الباحثون فى تأصيل هذه الصناعة فى ظفار فى اتجاهين فقد تجذب بعضهم شهرة اليمن بصناعة النسيج إلى القول بأن شهرة ظفار بهذه الصناعة ربما تكون قد قامت على أكتاف الحضارمة أو آخرين من مناطق اليمن الأخرى الذين استقروا بظفار وبخاصة فى عهد الحبوضيين، ولكن شهرة الثوب الظفارى والتى تفوق المنسوجات اليمنية المعاصرة تقف حائلا دون الاقتناع بهذا التوجه، ويبقى الاتجاه الآخر الذى يرتد بأصول هذه الصناعة إلى عمان ذاتها حيث اشتهرت بعض مدنها كصحار منذ القدم بانتاج أفضل المنسوجات وكانت منسوجاتها تضارع منسوجات اليمن وغيرها قبل العصر الإسلامى وأثناء فترة ازدهارها حتى القرن ٦هـ/١٢م. ويكفى أن نشير هنا إلى ما تركه النبى ﷺ يوم مات من منسوجات فقد ورد فى الأثر أن الرسول ﷺ يوم مات ترك "ثوبى حبرة وإزارا عمانيا وثوبين صحاريين وقميصا صحاريا وآخر سحوليا وجبة يمانية وكساء أبيض وإزارا طوله خمسة أشبار وخميصة وملحفة مورسة ورداء مربعا طوله أربعة أذرع" (٧٢). وفى إطار ما سبق يتضح أن نسبة كبيرة من ملابس النبى ﷺ كانت من عمان وبخاصة صحار، وفى إطار ما سبقت الإشارة إليه من انتقال كثير من القبائل العمانية وغيرها من منطقة الخليج إلى موانئ بحر العرب فى الجنوب مع تحول التجارة إلى البحر الأحمر، وكذلك ما أشارت إليه الدراسات من أن تعمير منطقة ظفار وعمرانها بدأ بصفة أساسية على أيدى قبائل عمانية انتقلت من شبه الجزيرة العمانية فى الشمال إلى ظفار(٧٣)، فإن ذلك كله يجعل فكرة تأصيل شهرة ظفار فى صناعة المنسوجات الفاخرة ترتد إلى أصول عمانية.

صناعة السفن :

عرفت عمان فى القرن الأول الميلادى صناعة السفن المخيطة بالحبال واشتهرت بها[٧٤]. وفى الحقيقة فإن تأصيل هذه الصناعة فى عمان كان موضع بحث فقد أشار الباحثين أن السفن المخيطة أصلها مصرى، وقد صنعت فى مصر فى فترة ترجع إلى ما قبل سنة ٢٥٠٠ق.م فى إطار ما عثر عليه من نقوش هيروغليفية، وفى إطار الدراسات التى تمت على ما كشف من مراكب الشمس[٧٥]. وإذا كانت الدراسات الأثرية تشير إلى وجود تبادل تجارى بين موانئ الخليج العربى وشواطئ شرق افريقية فى الألف الثالث قبل الميلاد، فإن انتقال فكرة بناء السفن المخيطة إلى منطقة المحيط الهندى والخليج العربى قائمة.

ويقول أحد الباحثين "أن طريقة ربط الألواح بعضها ببعض قد انتقلت إلى عمان من منطقة غرب المحيط الهندى، ويؤيد هذه الفكرة الألواح المنحوتة فى الهند والتى يعود تاريخها إلى القرن الثانى قبل الميلاد"[٧٦] وإذا كانت هذه الطريقة قد عرفت فى الأصل بمصر كما اشرنا فى الألف الثالث قبل الميلاد، وإذا كانت السفن المصرية قد وصلت إلى السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية لنقل اللبان وغيره من السلع الشرقية إلى مصر فى حدود هذا التاريخ[٧٧]، فإن الأرجح أن تكون عمان قد نقلت هذه الطريقة عن مصر وربما تكون الهند قد أخذتها من عمان وبخاصة وأن المصادر الكلاسيكية تشير إلى أن عمان كان من بين صادراتها "مراكب صغيرة قد تم ربط ألواحها بالحبال"[٧٨].

ويؤكد ذلك أيضا ما تشير إليه المصادر التاريخية من أن هذا النوع من المراكب المخيطة كان هو الطراز الشائع للسفن العربية فى البحر الأحمر

والمحيط الهندى سواء فى العصور القديمة أو العصور الوسطى؛ ففى العصور القديمة أشار مؤلف كتاب البريلبوس Periplues Maris Erythraei إلى أن سفن رهابتا "منطقة على ساحل افريقيا الشرقى" كانت من نوع السفن المخيطة، وأن هذه السفن كانت صناعة عربية إذ يقول فى هذا الصدد "... ويوجد ميناء آخر فى أزانيا يسمى رهابتا Rhpata وقد اشتق اسمه من السفن المخيطة Rhpata Plaiarion... وكان أمير معافر (دولة يمنية قديمة) يحكمها بمقتضى حق قديم يخضعها لسيادة المدينة التى تلقاها أو ما تلقاه على ساحل بلاد العرب...، وأهل مواز (مخا الحالية) يحكمونها الآن باسمه، ويبعثون إليها بسفن تجارية يستخدمون فى معظمها ربابنة ووكلاء عرب يألفون أهل البلاد ويتزاوجون معهم ويعرفون الساحل واللغة"[٧٩].

وقد لاحظ بعض الباحثين من ترجمة مؤلف البيريبلوس كلمة راهبتا بالسفن "المخيطه" أو "الخيطية" أن الكلمة قريبة من الكلمة العربية "ربط" ولعلها نفس الكلمة التى تشير إلى عملية بناء هذه السفن بالحبال[٨٠]. وقد أشار البريبلوس أيضا إلى أن السفن المخيطة كانت تصنع فى عمان وتصدر إلى موزا وقال إنها تسمى Madarata، ويرى حورانى أن هذا الاسم عربى الأصل كان يطلق على السفن المشدودة الألواح بالليف[٨١].

وقد استمرت صناعة السفن المخيطة فى عمان حتى الآن حيث أن من اشهر أنواع السفن العمانية السنبوق المخيط، وتشتهر ظفار بصفة خاصة بصناعته وهو مركب متشابه الطرفين ولا يستخدم الحديد إلا فى حاجز المؤخرة، كما أنه لايستخدم فيه الشراع العربى المثلث ولكن يستخدم الشراع المربع القديم وهو بذلك يعتبر النوع الوحيد الذى تجتمع فيه خصائص المراكب التى كانت موجودة خلال الفترة السابقة للبرتغاليين والسنابيق[٨٢].

جميلة الشكل دقيقة الصنع وهي بالتالي قد تكون أفضل من أي مركب عماني آخر، فألواحها من خشب العنبة وعرضها وسمكها متناسقان ويتم تثبيت أجزائها بربطها بعضها إلى بعض بألياف النارجيل ومعدل طول السنبوق من ٢٥ إلى ٤٠ قدما وله دفة صغيرة ومجاديف وصار واحد، ويستعمل غالبا في صيد الأسماك[٨٣].

وإذا كان خشب الساج هو المفضل في صناعة السفن وكان يستورد من الهند فان خشب جوز الهند أو النرجيل كان صالحا هو الآخر لهذه الصناعة متى تم إعداده فلا ينشق ولا يتقلص ولا يتغير شكله، بل كان يصدر للمدن الخليجية الأخرى لنفس الغرض بالإضافة إلى استخدامه في بناء المنازل[٨٤].

ومن طريف ما يذكر أن أشرعة السفن ومنها السنابيق الظفارية كانت تصنع في أول الأمر من سعف النخيل ثم من النرجيل وأخيرا من القماش[٨٥].

وإذا كانت المواد البيئية كالسعف والنرجيل قد استخدمت في صناعة الأشرعة فإن زيت السمك ولا سيما زيت سمك اللخم والحوت والمتوفر في منطقة ظفار أيضا استخدم في دهان جسم المراكب من الخارج لحمايتها من البحر[٨٦]، وكذلك استخدمت ألياف النخيل في قلفطة المفاصل في جسم المركب كما استخدم مزيج من زيت السمك والصمغ أيضا في هذا الغرض.

وفي إطار ما سبق يتضح أن زراعة النارجيل التي أدخلت إلى منطقة ظفار من الهند في عهد الحبوضيين قد استخدمت بعض أجزائها استخداما مؤكدا في صناعة السفن الظفارية وقد أكد على هذه الحقيقة ماركو بولو الذي ذكر أن السفن التي تصنع في ظفار ليس فيها مسامير حديدية، وانما تربط

ألواحها بحبال من لحاء جوز الهند (النارجيل) فكانوا ينقون هذا اللحاء حتى يصبح رفيعا مثل شعر الخيل ثم يفتلون منه الحبال التي يربطون بها ألواح المركب كذلك استخدمت هذه الحبال في حزم الأمتعة[٨٧].

ومما سبق يتضح أن ظفار شاركت مشاركة جادة في صناعة السفن التي تميزت بها بصفة عامة مدن الموانئ العمانية كصور وصحار وغيرها.

وقد ظل العرب والشرقيون بصفة عامة يستخدمون في رحلاتهم من الصين إلى الخليج العربي والبحر الأحمر وشرق افريقية سفنا ذات نمط واحد في صناعته وان اختلفت في أسمائها وأشكالها حيث أن هذه السفن اعتمدت كما أشرنا في أسلوب صناعتها على ربط الألواح بعضها ببعض بواسطة الحبال ولم تستخدم المسامير، وبعد أن تثبت الألواح إلى بعض أفقيا بخيوط الليف توضع لها ضلوع لتقاوم أمواج المحيط، وألواح الجانبين تكون متلاصقة الأطراف، وتغرز الخيوط على ابعاد معينة قرب أطراف الألواح المتجاورة ثم تشد ثقوبها بأجزاء من عيدان النخيل تعرف باسم الدستر أو مسامير الخشب وأحيانا من شحم الحيتان أو سمك القرش ثم تطلى بالقار[٨٨].

ويرى أحد الباحثين أن استمرار استخدام الحبال لخياطة السفن بدلا من المسامير حتى القرن ١٦م يرجع إلى غلاء الحديد الذي يحتاج إلى أفران صهر وخبرة وعلو نفقاته مما لم يمرس عليه الشرقيون، كما أن البحارة الشرقيين اعتادوا على هذا النوع من السفن لكنه يستطرد ويقول أن هذا النوع من السفن المخيطة يتميز بمرونة تساعد على تحمله صدمات الصخور وشعاب البحر المرجانية. ويرى أيضا أن استمرار استخدام الحبال بدلا من

المسامير ليس كما قيل راجع لارتفاع ملوحة المحيط الهندى وتـــأثيره فـى المسامير والروابط الحديدية ولكن للملابسات التى سبقت الإشارة اليها(٨٩).

وكانت دفة السفينة توضع فى الجنب ولكل سفينة تعبر البحر دفتان أما المرساه فكانت من حجر ضخم يثقب فى الوسط لربطه بالحبال وأحيانا كـان يستبدل الحجر بالرخام، وكان لكل سفينة ستة مراسى(٩٠).

أما صارى السفينة فهى من خشب الساج غالبا وأطول مـن السـفينة، ويعمل لها شراع كما أشرنا من سعف النخيل أو النارجيل أو القطن، وتميزت السفن العربية بالشراع المثلثة حتى القرن ١٥م ونقلها عنهم كولمبس وديـارا وفاسكو دى جاما، ويساعد هذا الشكل المثلث على تسهيل تحويل السفينة تجاه الريح من كل جانب حتى لايضغط على الشراع ويحطم الصـارى، ويحمل للسفينة أشرعة احتياطية(٩١).

والبوصلة من الآلات التى ساعدت السفينة والملاحين على الملاحة فى البحار والمحيطات التى تجوبها وتتكون من ٣٢ قسم، وصعب على الملاحين استخدام الأسطرلاب بسبب شدة اهتزاز السفن فى البحر وإن كانوا يستعملونه على الساحل، وكانت تحدد خطوط الطول بالنهار بالشمس وبـالليل بـالنجم القطبى لامكان تحديد مكان السفينة، وكانت المعلومات البحريـة المسـاعدة تسجل فى دفاتر الارشادات البحرية التى أطلق عليها اسم "رهمـانى" ومـن أشهر هذه النوعية من الكتب رهمانى أحمد بن ماجد الذى اعتمد فيـه علـى خبرته الخاصة وخبرة أبيه وجده من قبل فى المحيط والبحر الأحمر وهـو كتاب "الفوائد فى أصول علوم البحار والزخار(٩٢).

وبقى تراث عمان بصفة خاصةوالتراث العربى بصفة عامـة متصـلا على يد سليمان المهرى الذى ألف كتابه سنة ٩١٧هـ/١٥١١ ولعله كما يدل على ذلك اسمه من أهل ساحل بلاد المهرة وهى المنطقة الممتدة من الشحـر إلى مرتفعات ظفار الساحلية، وقد ترك المهرى خمسة مؤلفات، أقدمها كتابه "العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية" وهو من الكتب القيمة فـى علـوم الملاحة، وقد اعتمد فيه على بعض مؤلفات لأحمد بن مـاجد غـير كتابـه الفوائد(٩٣).

وهكذا ساهمت ظفار فى التراث العلمى للملاحة من خلال أحد أبنائـها وهى مساهمة لاشك أنها جاءت فى إطار دور مدينـة ظفـار فـى النشـاط التجارى البحرى فى المحيط الهندى وبحر العرب والبحـر الأحمـر وهـذا النشاط الذى يوظف كل الامكانات المادية والاقتصاديـة والعلميـة لتحقيـق الازدهار الاقتصادى الذى كان له مردوده الايجابى على تحقيـق النهضـة العلمية فى إطار فكرة التأثير والتأثر.

هوامش الفصل

(١) وزارة الثقافة والاعلام: عمان وتاريخها البحرى، سلطنة عمان ١٩٧٩، ص٤٠.

(٢) ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٤ ص٦٠.

(٣) وزارة الثقافة والاعلام: عمان وتاريخها البحرى، ص٩١.

(٤) وزارة الثقافة والاعلام: عمان وتاريخها البحرى ص٩٢.
نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص١٦٥.

(٥) وزارة الاعلام والثقافة: عمان وتاريخها البحرى، ص٩٣.

(٦) نعيم زكى فهمي: المرجع السابق، ص١٦٥.

(٧) نعيم زكى فهمي: المرجع السابق، ص١٢٥.

(٨) وزارة الثقافة: عمان وتاريخها البحرى، ص٤٠.

(٩) أبي مخرمة: المصدر السابق، ص.ص ١٩٥-١٩٦.

(١٠) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٦٤، ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الانجليزية وليم مارسون، وإلى العربية عبد العزيز جاويد، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص٣٤، فليبس: المرجع السابق، ص٢٥، ٢٨، نعيم زكى فهمي: المرجع السابق، ص١٧١.

(١١) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٦٣، ٢٦٤، ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٥٩.

(١٢) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٦٤.

(١٣) ماركوبولو: المصدر السابق، ص
وزارة الاعلا والثقافة، تاريخ عمان البحرى، ص٤٣، فيلبيس: المرجع السابق ص.ص ٢٥-٢٧.

(١٤) فليبس: المرجع السابق، ص٢٧.

(١٥) وزارة الاعلام والثقافة: عمان وتاريخها البحرى، ص٤٣.

(١٦) وزارة الاعلام والثقافة، المرجع السابق، ص٤٣.

(١٧) من الجدير بالذكر أن الدراسات التاريخية أثبتت أن تجارة البخور (اللبان العماني) ترجع إلى القرن ١٢ ق.م وهكذا جددت مدينة ظفار العهد بهذه التجارة القديمة، وزارة الاعلام والثقافة: عمان وتاريخها البحرى، ص٤٣.

(١٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٦.

(١٩) سحر السيد عبد العزيز سالم: عمان وطريق تجارة التوابل عبر المحيط الهندى فى العصر الاسلامى، بحث فى كتاب بعنوان مشروع منظمة التربية والثقافة والعلوم، اليونسكو لدراسة طرق الحرير. الندوة الدولية لطرق الحرير بجامعة السلطان قابوس، مسقط ١٩٩١م، ص٣٦.

(٢٠) سحر عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٣٦.

(٢١) سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٥٢.

(٢٢) هو مسلم صينى من بلدة ينان له اهتمام بالعالم العربى وحج واستطاع أن يغترف كثيرا من المعلومات الصحيحة عن المنطقة.

(٢٣) كوستا: الشواهد الأثرية على وجود التبادل التجارى بين التجار العمانيين من جهة والعالم الخارجى وخاصة الشرق الأقصى من جهة ثانية قبل افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح. بحث بكتاب بعنوان مشروع منظمة التربية والثقافة والعلوم، اليونسكو لدراسة طريق الحرير، الندوة الدولية لطرق الحرير، جامعة السلطان قابوس سنة ١٩٨٠م، نشرة وزارة التراث والثقافة، عمان ص١٣٦، ومن طريف ما يذكر أن الصينيين تعاملوا مع موانئ شرق افريقية بنفس الأسلوب حيث زار أسطول صينى مدينة مقديشيو فى سنة ١٤٣٠ لغرض التجارة وهو ما يشير إلى أن الصين تابعت نشاطها التجارى فى كل الموانى التى تقع فى الطريق إلى مصر ثم أوربا.
محمود محمد الحويرى: ساحل شرق افريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦ ص٣٧
عن: Eliot (Charles) The East of Africa Protectorate. London. 1966, p. 11

(٢٤) كوستا: المرجع السابق، ص١٣٦.

(٢٥) كوستا: المرجع السابق، ص١٣٨.

(٢٦) قام بهذه الحفريات فريق يتكون من أ.د/ معاوية بن إبراهيم، أ.د/ محمد عبد الستار عثمان، د. عاطف عبد السلام بمشاركة طلاب قسم الآثار بجامعة السلطان قابوس، الدفعة الثالثة.

(٢٧) وزارة الاعلام والثقافة: تاريخ عمان البحرى، ص١٠٨، وسنعود إلى تأصيل هذه الحرفة عندما نتعرض لصناعة السفن فى ظفار.

(٢٨) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٢٩) وزارة الاعلام والثقافة: عمان وتاريخها البحرى، ص٩٢.

(٣٠) وزارة الاعلام والثقافة: عمان وتاريخها البحرى، ص٩٢.

(٣١) وزارة الاعلام والثقافة: المرجع السابق، ص٤٢.

(٣٢) الشماخى: المصدر السابق، جـ٢ ص١٢٨.

(٣٣) سيده إسماعيل كاشف: علاقة عمان بشمال افريقية. بحث قدم لندوة "عمان فى التاريخ" جامعة السلطان قابوس ديسمبر ١٩٩٤ ص٣، إبراهيم بو تشيش التواصل الثقافي بين عمان وبلاد المغرب فى العصر الإسلامى. تحت النشر، ص٧.

(٣٤) الدرجينى: المصدر السابق، جـ١ ص١٠١، بوتشيش، المرجع السابق، ص٩.

(٣٥) الادريسى: نزهة المشتاق، جـ٣ ص٢٩٦.

(٣٦) اليعقوبى: البلدان نشر هنرى بيرلس، الجزائر ١٩٦٠، ص٦، ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٧٨-٢٧٩.

(٣٧) ابراهيم بوتشيش: المرجع السابق، ص٨.

(٣٨) ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن على القصيبى (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، تحقيق كريمرز- ليدن ١٩٣٩م، ص٧٥.

(٣٩) بوتشش : المرجع السابق، ص١٧.

(٤٠) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٥-٧٧، الجميرى [محمد بن المنعم]: الروض المعطار، فى خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ١٩٨٤م، ص٣٠٥.

(٤١) حبيب الجنحانى: دور عمان فى نشاط التجارة العالمية فى العصر الإسلامى الأول، ندوة حصاد، جـ٣ ص٦٢.

(٤٢) نعيم زكى فهمى: المرجع السابق، ص١٧٥، ابن الوردى (أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة

١٢٨٠هـ ص ص ٤٩-٥٠، محمود محمد الحويرى: ساحل شرق افريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦، ص٥٦.

(٤٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١ ص٢٥٢.

جامعة السلطان قابوس.

(٤٥) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٦٨، زاريئز: المرجع السابق، ص١١.

(46) Guest: Op. Cit., p. 408

(٤٧) الخزرجى: المصدر السابق، جـ١ ص٢١٠.

(٤٨) زاريئز: التنقيبات الأثرية فى محافظة ظفار، ترجمة عبد الله الحراجى، نزوى. العدد الثانى مارس ١٩٩٥، ص١١.

(٤٩) زاريئز: المرجع السابق، ص١٠.

(٥٠) زاريئز: المرجع السابق، ص٧.

(٥١) ابن المجار: المصدر السابق، ص ٢٦١

(٥٢) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص٤٨.

(٥٣) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص٤٨.

(٥٤) كوستا: دراسة لمدينة ظفار، ص٣٠.

(٥٥) كوستا: دراسة لمدينة ظفار، ص ص ٣٠-٣١، ولا ندرى لماذا أطلق كوستا على المبنى المجاور للبوابة والتى كشف قاعة اجتماعات" (؟!)

(٥٦) كوستا: المرجع السابق، ص ٣١.

(٥٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١ ص٢٨٦.

(٥٨) كلمة غير مقروءة.

(٥٩) ابن المجاور : المصدر السابق، ص١٣٨، ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص ص٥٧-٥٨، وعن هذه المعاملة السيئة، راجع أيضا : ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٢٠، ص٢٥٤.

(٦٠) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٤٣.

(٦١) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٢٨٥

(٦٢) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٢٦.

(٦٣) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٢٦.

(٦٤) للاستزادة: راجع بحث مونيك كارفران "مدينة صحار وعلاقتها بطرق الحرير"، بحث فى كتاب "مشروع منظمة التربية والثقافة والعلوم"، اليونسكو لدراسة طرق الحرير، سلطنة عمان، وزارة التراث القومى والثقافة، ١٩٩١م، ص ص ٨٧-

١٠١، جون وليكنسون، صحار تاريخ وحضارة، وزارة التراث القومى والثقافـــة، سلطنة عمان، سلسلة تراثنا، العدد ٢٠ الطبعة الثانية.

(٦٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١ ص٢٨٩، وزارة الاعــلام والثقافـــة، عمـــان وتاريخها البحرى، ص١١٣.

(٦٦) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ٢ ص١٨٩.

(٦٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ٢ ص٢٩٠.

(٦٨) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ٢ ص٢٨٦.

(٦٩) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٧٠) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق ، ص٦٠.

(٧١) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص٦٥.

(٧٢) سعاد ماهر محمد: مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى: دار مطـابع الشعـب، القاهرة ١٩٦٥، ص٧٨، خالد مصطفى: آثار رسول الله ﷺ ، القاهرة ١٤١٧هـ، ص٧٣.

(73) Cost, Op. Cit., p.

(٧٤) عبد المنعم سيد عبد الحليم: الأصول المصرية لبعض المظـاهر الحضاريـة فـى الجزيرة العربية قبل الاسلام. دراسات تاريخ الجزيرة العربيـة. الكتـاب الثـانى. الرياض ١٩٨٤، ص ص ٣٦٩–٣٧٠.

(٧٥) للاستزادة، عبد المنعم سيد عبد الحليم: المصدر السابق، ص٣٧٠.

(٧٦) وزارة الاعلام والثقافة: تاريخ عمان البحرى، ص١٠٨.

(٧٧) عاطف عبد السلام عوض الله: بلاد بونت ومحاولة لتجديد موقعها ق ١٤ ق.م، رحلة حتشبسوت، مجلة نزوى، العدد السادس، أبريل ١٩٩٦، مسقط، ص ص ٧-١٤.

(٧٨) وزارة الاعلام والثقافة، تاريخ عمان البحرى، ص١٠٨.

(٧٩) عبد المنعم سيد عبد الحليم: المرجع السابق، ص٣٦٩.

(٨٠) عبد المنعم سيد عبد الحليم: المرجع السابق، ص٣٦٩، عن: C. M. C. Boreux, Etudex de nauitique Egyptionne, 1925, p. 138

(٨١) حورانى (جورج فاضلو): العرب والملاحة فى المحيط الـهندى، ترجمـة السيد يعقوب بكر سنة ١٩٥٩. ص٥١، عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق، ص٣٧.

(٨٢) وزارة الاعلام: المرجع السابق، ص١٤٦.

(٨٣) السنابيق مفردها سنبوق وقد وردت الكلمة فى مصادر العصور الوسـطى، ومـا زالت مستخدمة فى عمان والسعودية ومصر وغيرها حتى الآن.

(٨٤) حورانى: المرجع السابق، ص٢٤٤-٢٤٧، نعيم زكى: المرجع السابق، ص٢٤٩.

(٨٥) جورج فاضل حورانى، المرجع السابق، ص٢٦٣، ٢٦٤، نعيـم زكـى فـهمى: المرجع، المرجع السابق، ص١٧٤.

(٨٦) وزارة الاعلام والثقافة، المرجع السابق، ص١١٣.

(٨٧) ابن بطوطة: المرجع السابق، جـ٢ ص٢٨٩، محمد الأكوع: المرجـع السـابق، ص١١٩، وزارة الاعلام والثقافة: المرجع السابق، ص ١١١.

(88) Moreland W. H. The Ships of the Arabian Sea about 1500, J. R. A. S. of Great Britain and Ireland London 1939, pp. 174-179.
Makerjii Radhakumud, N. A, Indian Shipping, A History of Sea Borne Trade and Maritime Activity of Indian from the Early time to the end of Moghol Period. London 1912, pp. 196-197.
، حورانى: المرجع السابق، ٢٥٩.

(89) Mareland: Op. Cit. pp. 188, 197, 192
، نعيم زكى: المرجع السابق، ص١٦٩، هامش ١١٠.

(90) Varthema Ludvice, di Les Voyage de divico Varthema, Paris, 1888, p. 152
حورانى: المرجع السابق، ص ص ٢٦١، ٢٦٢، نعيم زكـى: المرجـع السـابق، ص١٧٠، حاشية ١١٣.

(٩١) حورانى: المرجع السابق، ص٣٦٣-٣٨٦.

(٩٢) يعرف هذا الكتاب أيضا بعنوان الفوائد فى أصول البحر والقواعد، وتم تأليفه فـى الفترة بين سنة ٨٩٥ - ٨٩٦هـ/١٤٨٩-١٤٩٠م، وزارة الاعلام والثقافة، سلطنة عمان، المرجع السابق، ص١٠٤.

(٩٣) وزارة الثقافة والاسلام: سلطنة عمان، عمان وتاريخها البحـرى، ص ص ١٠٥-١٠٦.

الباب الثاني
عمارة مدينة ظفار وآثارها الباقية

الفصل الأول
تخطيط مدينة ظفار ومنشآتها المعمارية

تخطيط مدينة ظفار:

تعتبر مدينة ظفار من المدن الأثرية المهمة التى أنشئت فى نهاية القرن السادس الهجرى- الثانى عشر الميلادى، وأعيد بناؤها فى الربع الأول من القرن السابع الهجرى- الثالث عشر الميلادى، وهى مثال جيد لمدن الموانئ التى أنشئت على الساحل الشرقى لجزيرة العرب فى قطاعها الجنوبى.

وفى إطار الزمان والمكان تبرز أهمية التعرف على تخطيط هذه المدينة. وتخطيط المدينة هو عملية تحديد وتعريف أفضل طريقة لتحقيق أهداف معينة ثم اختيارها وفقاً لاعتبارات معينة فى ظل الموارد المحددة والقيود المفروضة السائدة فى المجتمع أو أنه عملية ضبط البيئة الطبيعية والبشرية من أجل استخدام أفضل الموارد البيئية، وبالتالى فإن هناك محاولات كثيرة للتخطيط منها التخطيط الاقتصادى والتخطيط الإجتماعى والتخطيط العمرانى(1).

وفى إطار هذا التعريف فإن مدينة ظفار- كما اتضح من الدراسة التاريخية أنشئت فى إطار ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية معينة حددت الهدف من انشائها وتوسعت فى المراحل التالية توسعاً ارتبط فى المقام الأول بازدهارها اقتصادياً واستقلالها سياسياً.

ومدينة ظفار أنشئت فى الأصل لتكون ميناءً تجارياً يواكب حركة التجارة التى تحولت من الخليج العربى إلى البحر الأحمر، وهى فى هذا التوجه تذكرنا بمدن ريسوت وسمهرم اللتين قامتا بهذا النشاط فى عصور ما قبل الاسلام. ومقارنة سريعة بين التخطيط العمرانى والتجارى لمدينة ظفار وبين هاتين المدينتين تكشف عن أن مدينة ظفار تأثرت إلى حد كبير بالتطور الحضارى للمدن فى العصر الاسلامى وخططت وفق المنهج الاسلامى والرؤية الاسلامية فى تخطيط المدن فلم يعد تخطيط المدينة منصباً على النشاط التجارى المتمثل فى تصدير اللبان إلى بلاد الشرق عبر المحيط الهندي ومصر وغيرها عبر البحر الأحمر، وحماية هذا النشاط من خلال مركز حصين عبارة عن قلعة تتضمن مخازن للسلع المصدرة والواردة. ولكن تطور تخطيط الميناء ليصبح مدينة كاملة تضم المرافق التجارية كالفرضة والوكالات والقياسر وغيرها من المنشآت التجارية التى تتسع لتبادل السلع أو مؤسسات ادارية ودينية كالقصر والمسجد الجامع ومساجد الفروض ومنشآت صناعية تستوعب النشاط الصناعى المتميز والمرتبط بالنشاط التجارى كصناعة الثياب الحريرية، حيث كان يستورد لصناعتها الحرير من الشرق ثم يصنع ويعاد تصديره، هذا بالإضافة إلى المناطق السكنية للعامة الذين يسكنون داخل أسوار المدينة وما تحتاج اليه هذه المناطق السكنية من مرافق ومنشآت أخرى تفى بحاجاتها المادية كالأسواق التى لوحظ أنها أنشئت فى محلة مجاورة من الجهة الغربية لمدينة ظفار تسمى "الحرجاء" فى إطار تنزيه المدينة عما يتخلف عن الأسواق من مكونات للبيئة.

وأطلال مدينة البليد الباقية تشغل مساحة يبلغ طولها ١٦٠٠م من الشرق إلى الغرب وحوالى ٥٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب ويمتد الضلع الجنوبى لها بمحازاة ساحل بحر العرب، أما الضلع الشرقى والشمالى فيحدهما الخور، ولاشك أن احاطة الماء للمدينة من هذه الجهات الثلاث من شأنه أن يوفر لها تحصينا طبيعياً استكمل من الجهة الغربية بحفر خندق فى الجهة الغربية عند محور احداثى ٣٥٠ - ٣٧٠ شرقاً [شكل ٢]، ويمكن تقسيم هذه المساحة التى تشغلها مدينة ظفار إلى ثلاثة قطاعات، القطاع الشرقى الذى يشمل الفرضة أو المنطقة الخاصة بالجمارك المتصلة بالبوابة الشرقية، والقطاع الأوسط الذى كان غالباً هو منطقة سكنى العامة بفئاتهم المختلفة وتتركز فى هذه المنطقة مساجد الفروض التى تؤكد كثافة السكان فى هذا القطاع وتوفر المرافق والمنشآت الدينية التى تخدمه.

أما القطاع الثالث فهو القطاع الغربى ويضم فى جانبه الشمالى القصر الذى يقابله المسجد الجامع، وكانت بوابات المدينة تنتهى إلى شوارع تصل ما بين وحدات النسيج المعمارى لهذه المدينة، وتتسع لحركة المرور بها سيما المواكب الخاصة بالتجار الوافدين أو السلطان وحاشيته، وكذا حركة المرور العادية فى المدينة. ولا نستطيع حالياً أن نحدد هيئة شبكة الطرق لكن بوابات المدينة تمثل بلا شك نقاط البداية للرئيسى منها، وإلى الشمال والشمال الشرقى من الخور توجد منطقة تفصل مدينة ظفار والخور وبين مقبرة الرباط تضم حالياً مجموعة من المنشآت الحديثة وبعض المزارع والبساتين تتناثر فيها بقايا بعض المبانى الأثرية تكثر بينها أطلال المساجد، ويبدو أن العمران كان يمتد إلى مقبرة الرباط [شكل ٢] وهو ما يشير إلى أن مدينة ظفار لم تقتصر منشآتها على تلك المنشآت التى داخل أسوارها، ولكن كان

ظاهرها الشمالي يمتد عمرانيا حتى مقبرة الرباط وهو الأمر الذى يؤكده أوصاف ابن بطوطة وبخاصة فى حديثه من زاوية الشيخ محمد بن أبى بكر وبستان السلطان[٢]. وهذا الامتداد العمرانى ارتبط بلاشك بازدهار الاقتصاد فى ظفار والذى كان للنشاط التجارى فيه الدور الرئيسى وهو النشاط الذى قام عليه فيما بعد النشاط الزراعى والصناعى المزدهر فى المنطقة والذى تمثل فى إدخال مزروعات وأشجار ومحاصيل جديدة إلى المنطقة وزراعة البساتين والأراضى الزراعية المجاورة لمنطقة ظفار، وكذلك النشاط الصناعى الذى تمثل فى إزدهار صناعة المنسوجات والسفن والصناعات الغذائية الأخرى التى تعتمد على السمك والنرجيل.

وأطلال البليد المدينة القديمة المسورة [شكل ٤- ٥] بما تحتويه من منشآت حربية ممثلة فى الأسوار والبوابات ومن منشآت دينية كالمسجد الجامع ومساجد الفروض والمدارس وغيرها والمنشآت السكنية كقصر السلطان والدور والمرافق الأخرى: تشكل جميعاً النسيج المعمارى لمدينة ظفار. ويمكن من خلال دراسة ما كشف من منشآت ودراسة ماورد عنها فى المصادر الأدبية أن نحدد ملامح المدينة المعمارية ومراحل تطورها العمرانى.

وفى المرحلة الثانية من عمران المدينة والتى تمثلت فى هدمها ثم إعادة بنائها كان التوجه إلى الاهتمام بتحصينها سيما وأنها أصبحت مطمعاً للطامعين بسبب بروز مكانتها الاقتصادية وخطورة الدور الذى تلعبه فى التجارة العالمية فى هذا الوقت.

وانعكس الثراء فى عمارة المدينة وتكويناتها داخل الأسوار سواء فى مساجدها أو قصورها بل إنه امتد إلى خارج الأسوار رابطاً بين المدينة وما جاورها كالحرجاء ومنطقة الرباط التى شهدت ازدهاراً عمرانياً تمثل فى التوسع فى النشاط الزراعى نتيجة استثمار الموارد المالية الناتجة على النشاطات التجارية والصناعية. وأثمر هذا التوسع فى النشاط الزراعى ظهيراً اقتصادياً وزراعياً مهماً للمدينة تمثل فى توفير المحاصيل الغذائية وقيام بعض الصناعات الغذائية التى تعتمد على جوز الهند وغيرها من المحاصيل البستانية التى أدخلها الحبوضيون إلى المنطقة، واحتوى ظاهر المدينة على منطقة لزراعة البساتين تليها منطقة لزراعة المحاصيل الزراعية الأخرى كالحبوب مثل الأذرة وغيرها.

وتخللت منطقة البساتين القصور والدور والمساجد والطواحين والآبار وغيرها من المنشآت التى جرت العادة بإنشائها وأصبحت مدينة ظفار فى عهد الرسوليين والكثيرين تشتمل على قطاعين متميزين هما المنطقة السكنية داخل الأسوار والمنطقة إلى الشمال الغربى ممثلة فى منطقة الرباط وتتميز المنطقة الأولى بنشاطات اقتصادية تجارية وصناعية مشكلة النمط المعمارى والعمرانى للمدينة داخل السور تشكيلاً متضاماً لعدم توفر المساحات، أما المنطقة خارج السوار تغلب عليها النشاط الزراعى وتناثرت عمائرها فى البساتين فى شكل عمرانى ومعمارى متناثر يختلف عن النمط السابق اختلافاً واضحاً. ويذكرنا بنمط العمائر البستانية فى المناطق المجاورة لبعض المدن العربية والاسلامية كتونس والقيروان والمدن العمانية كنخل وغيرها. وهو نمط يختلف عن المدن التى ألحقت بدورها وقصورها حدائق وبساتين كما كان الحال فى القاهرة فى بداية عهدها[٣].

وفي إطار ما سبق يتضح أن المقومات الطبيعية والاقتصادية مكنت مدينة ظفار من تحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها فازدهر عمرانها وتطورت عمارتها تطوراً واضحاً يعكس نجاح أهداف تخطيطها، تلك الأهداف التي تجسدت في أحداث تاريخها ونشاطاتها الاقتصادية التي سبقت الإشارة إليها.

وقد نظمت هذه الرؤية لتخطيط مدينة ظفار التكوين المعماري والعمراني للمدينة باعتباره الوعاء المادي الذي يحتوي كل نشاطات المدينة ومجتمعها، وسنعرض فيما يلي لنوعيات المنشآت المعمارية لمدينة ظفار في ضوء ما بقي منها، وفي ضوء ما ذكرته المصادر التي تحدثت عن عمارتها وعمرانها.

تحصين موقع ظفار

اختير موقع مدينة ظفار في إطار توفر المقومات الأساسية للتحصين الطبيعي فيحدها من الشرق والشمال خور، ومن الجنوب بحر العرب وهكذا أحاط الماء بموضع المدينة من جهات ثلاث وحفر خندق في الجانب الغربي ليكمل التحصين الطبيعي للموقع. وهذه الرؤية في اختيار الموقع المحصن والذي يحيط به الماء من أكثر من جانب رؤية متكررة في مواقع المدن العمانية القديمة، حيث نرى مثل هذا التوجه في اختيار مدينة سمهرم التي تبعد عدة كيلو مترات عن مدينة ظفار ولاحظناه أيضاً في مدينة صحار، ومدينة قلهات وهذه الرؤية في التخطيط بدأت مبكراً في المدن الاسلامية عندما توفر للمسلمين مقومات الدفاع البحري عن مدنهم ومن أوائل المدن الساحلية التي أنشئت في حدود هذه الرؤية مدينة المهدية التي أنشأها الفاطميون.

وبالاضافة إلى ما يوفره الخور من مميزات حربية تتصل بتحصين المدينة فإنه من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن اختيار مواضع المدن الساحلية متلازماً بالأخوار ذات المياه العذبة كان مرتبطاً في المقام الأول بتوفر المياه العذبة اللازمة للأغراض الحياتية اليومية وتعتبر هذه الأخوار بالاضافة إلى الآبار المصدر الرئيسي للماء في هذه المدن، وساعدت الأخوار أيضاً على زراعة ما يمكن زراعته من أراض مجاورة.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأخوار تصب مياهها في بحر العرب ويساعد ذلك على توفر نوع معين من الأسماك "السردين" بكميات وفيرة وفرت مصدراً مهماً للغذاء والتسميد وأدي إلى قيام بعض الصناعات الغذائية كصناعة زيت السمك بالاضافة إلى بعض الحرف المتصلة بتوفير مراكب الصيد وأدواته.

أولا : أسوار مدينة ظفار وأبوابها:

كانت إعادة أحمد بن الجبوضي لإعمار مدينة ظفار سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م بعد تخريبها سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م في إطار ظروف سياسية وحربية دفعته إلى الاهتمام بتحصين المدينة إهتماماً واضحاً. وتتمثل هذه الظروف في إمكان تعرض المدينة لخطر الغزو من جانب الأيوبيين مثلما حدث من جانب الملك المسعود أبي المظفر يوسف ابن أيوب، أو من جانب الخلافة العباسية بسبب احتمال اندراس الطريق الذي يربط بين ظفار وبغداد بواسطة البدو الذين يجلبون الخيل إلى ظفار[٤] وغضب الخلافة من ذلك.

وتعكس أوصاف ابن المجاور هذا الإهتمام حيث يذكر أن ابن الحبوضي "أدار عليها سوراً من الحجر والجص ويقال من اللبن والجص، ورتب عليه أربعة أبواب: باب البحر ينفذ إلى البحر ويسمى باب الساحل، وبابين مما يلي البر وهما على الإسم لأبواب ظفار المهدومة أحدهما مشرق يسمى باب حرقة ينفذ إلى عين فرض، والثاني مما يلي المغرب ويسمى باب الحرجاء، والحرجاء مدينة لطيفة وضعت على ساحل البحر بالقرب من البلد، وما بنى المنصورة إلا لاحكام البلاد خوفاً على العباد(٥).

ويومئ هذا النص في جملته الأخيرة إلى أن المدينة المهدومة لم تكن تحصيناتها محكمة كافية لتأمين من بداخلها وروعي تحقيق ذلك في المدينة بعد إعادة بنائها وإنشاء أسوارها وأبوابها.

كما أن هناك إشارة واضحة إلى أن المدينة القديمة كان لها أبواب بأسماء معروفة واحتفظ بابان من أبواب المدينة الجديدة بأسمي بابين من أبواب المدينة المهدومة وهما باب حرقة في الشرق وباب الحرجاء في الغرب، وقد ذكر كوستا أنه "في منتصف المدينة لاحظنا على ما يبدو نوعاً من التلال وفي الاتجاه الشمالي الجنوبي وبالقرب من الاحداثي ٩٣٠ شرقاً و٣٣٠ شمالاً لاحظنا وجود حجارة لاشك أنها خاصة ببوابة وهذه الحجارة مبعثرة على مساحة محدودة" ودعاه ذلك إلى افتراض وجود بوابة في هذا الموقع وقام بالتنقيب فيه، وبالرغم من عدم اكتمال الكشف في هذا الموقع الذي أسماه المنطقة "B" إلا أنه ذكر أنه "لابد من المعقول أن نفترض أن هذه البوابة غير المسماه والتي تنتمي إلى ظفار القديمة هي نفس البوابة التي جاءت في وصف ابن المجاور"(٦). وهذا التفسير في ضوء ما تم من تنقيبات لكوستا في المنطقة "B" تفسير غير صحيح حيث أن التفاصيل المعمارية

للمبنى الذي كشفه كوستا هذا الموقع [شكل٦] تكشف عن أن هذا المبنى ليس بوابة ولكنه أشبه ما يكون بمنشأة تجارية فهو مبنى يشغل مساحة مستطيلة مقاساتها من الخارج ٢٦,٥ × ٢٥متر واتجاه محوره الرئيسي هو ١١٠ درجة وهو اتجاه قريب من اتجاه القبلة وسمك جدرانه ١,٥ متر وينقسم المبنى إلى عدة حجرات تتراوح مساحة كل منها ما بين ٣,١٠ × ٣,٢٥متر إلى ٤,٣ × ٤ متر تحيط بفناء مكشوف في الوسط مساحته ١٣م٢. وقد ذكر كوستا أن هذا البناء ينتمي إلى المرحلة الأولى من تاريخ عمران المدينة(٧).

وقد ذكر كوستا أن هذه البوابة غير المسماه هي نفس البوابة التي جاءت في وصف ابن المجاور، ويكشف هذا القول عن أن كوستا قد خلط بين أوصاف ابن المجاور لأبواب المدينة بعد إعادة بنائها علي يد أحمد بن محمد الحبوضي سنة ٦٢١هـ/١٢٢٣م وبين ما ذكره من أبوابها القديمة(٨). حيث أن الباب الرابع الذي لم يذكر اسمه ابن المجاور أحد أبواب المدينة بعد اعادة بنائها على يد ابن الحبوضي. كما أن موقع هذا المبنى الذي يفترض كوستا أنه بوابة يعني على افتراض صحة ما يذكره أنه الباب الذي بالضلع الشرقي للمدينة القديمة والباب الشرقي في ضوء رواية ابن المجاور كان يسمى بباب حرقة أي أنه إسمه معلوم وهو ما يؤكد شدة خلط كوستا في فهم رواية المجاور، كما يعني أن السور الشرقي للمدينة قبل هدمها على يد ابن الحبوضي كان عند المحور ٩٣٠ شرقاً وهو ما يعني أن امتداد ظفار القديمة من الشرق إلى الغرب كان حوالي نصف امتداده بعد اعادة بنائها، ولا توجد أي شواهد معمارية تدلل على وجود بقايا السور

القديمة أو نهاية عمران المنطقة الأولى عند هذه النقطة، ولاشك أن استكمال التنقيبات شرق هذا الموقع من شأنه أن يوضح الحقيقة بعيداً عن هذا الخلط.

وربما كانت أبواب مدينة ظفار متصلة بأسوار أنشئت حول المدينة القديمة، وربما لم تكن للمدينة أسوار، وكانت الجدران الخلفية لدورها ومنشآتها متلاصقة مكونة حاجزاً بنائيا، لايمكن اختراقه، وينحسر بذلك الخروج والدخول من وإلى المدينة من هذه الأبواب، وهو نمط من التخطيط يوجد فى مدن عمان القديمة كعبرى ومنح وأدم وغيرها، ويبقى التأكد من هذا الأمر مرهوناً بالكشف الأثرى عن أسوار المدينة.

وقد كشفت بعض أجزاء من سور المدينة فى الجانب الشمالى، وكذلك كشف بقايا ثلاث بوابات من بواباتها الأربع، وهى مبنية بالحجر والجص بناء يكشف عن مدى الإهتمام بقوة تحصين المدينة، ويتوافق مع وصف ابن المجاور لبناء الأسوار بالحجر والجص، أما ما يسرده من قول آخر لبناء الأسوار باللبن والجص فقول لايمكن اثباته أو نفيه إلا بعد اتمام الكشف عن أسوار المدينة كلها.

وتعكس مسميات أبواب المدينة جانباً مهماً من جوانب تخطيطها الذى ارتبط بظروف موضعها وارتباطه بالبحر العربى كميناء تأتيه التجارات وتدخله المتاجر فى الغالب من جهة الجنوب والشرق مروراً بالخور إذا ما افترض أن الخور كانت تدخله السفن الصغيرة. ويبدو أن الباب الشرقى الذى كان يسمى باب حرقة[٩] هو الذى كان يؤدى حسب وصف ابن المجاور الى "عين فرض" ويقصد بذلك غالباً مرسى السفن، أما الباب الذى فى الجانب الجنوبى فيسمى باب الساحل وهو الذى يؤدى مباشرة إلى منطقة ساحل

البحر، وهكذا انسحب الاتجاه الذى يؤدى إليه على مسماه. أما الباب الذى يقع فى الجانب الغربى فهو "باب حرجاء"[١٠]. والحرجاء كما يذكر ابن المجاورمدينة لطيفة كان بها سوق ظفار، وقد سمى الباب باسمها باعتبارها المسلك المؤدى إليها، أما الباب الرابع فيفترض أنه كان فى الضلع الشمالى للمدينة، حيث أن وجود جسر يربط بين المدينة والجهة الشمالية منها عند احداثى ٤٥٠ شرقاً، ٤٢٥ شمالاً ووجود القصر قريباً من هذا الجسر، وخروج السلطان من قصره إلى بستانه الذى كان فى الغالب فى اتجاه المنطقة شمال المدينة يزيد من ترجيح هذا الافتراض. [احداثى ١٥٥٤ شرقاً - ٢٧٥ شمالاً].

وقد كشفت البعثات الآثارية التى عملت فى المدينة عن ثلاث من بوابات المدينة أحدها يقع فى منتصف الضلع الجنوبى [احداثى حوالى ٩٨٠ شرقاً، ١٤٠ شمالاً] [شكل ٤] والبوابة الثانية تقع فى ضلع السور الغربى فى موقع لايبعد كثيراً عن البحر [احداثى حوالى ٤٩٠ شرقاً و ٦٠ شمالاً]، والبوابة الثالثة هى التى تقع فى الضلع الشرقى لسور المدينة، وكشفت عن أجزاء منها البعثة الأمريكية[١١].

ويصف كوستا البوابة التى تقع فى الضلع الجنوبى والتى أشارت المصادر إلى أنها عرفت بباب الساحل فيذكر أنها "غالباً ما تكون جزءاً من نظام معمارى أكثر تعقيداً حيث يضم بوابة أخرى ليكونان معاً ممر ذو منحنى يمر خلال السور" [شكل رقم ٣ - أ]، وواضح من هذا الوصف أن باب هذه المدينة كان عبارة عن ممر منكسر Bent Entrance، وهوتخطيط حربى قديم عرف فى مصر منذ ٢٦٢٥-١٧٨٨ق.م فى شونة الزبيب[١٢] واستمر استخدامه فى العمارة الحربية حيث نجده فى مدينة سمهرم (القرن

الأول الميلادى) بمنطقة ظفار، وكذلك استخدم فى العمارة الإسلامية فى مدينة بغداد سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م [شكل ٣-ب] وطور استخدامه أحسن تطوير فى العمارة الحربية المغربية والأندلسية حيث كرر الانكسار أكثر من مرة وعرفت هذه المداخل المنكسرة أكثر من مرة "بالمدخل ذات المرافق"، وهذه النوعية من المداخل تضطر الداخل فيها إلى الانعطاف يساراً فتكشف يمينه فتكون هدفاً مباشراً للمدافعين، ولاشك أن وجود هذا المثال من المداخل المتكسرة فى مدينة ظفار والذى يرجع انشاؤه إلى سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٣م يسجل نموذجاً مهماً فى العمارة الإسلامية العمانية وهو نموذج تكرر فى أمثلة عديدة للقلاع العمانية التى أنشئت فيما بعد فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين [السابع عشر والثامن عشر الميلاديين] وفى ذلك ما يشير إلى استمرارية استخدام هذه الفكرة فى التخطيط الحربى وربما يكشف الربط بين الوجود المبكر للمدخل المنكسر فى مدينة سمهرم (القرن الأول الميلادى)[١٣] وبين انتقال كثير من القبائل اليمنية والعمانية كقبيلة الأزد إلى العراق أثناء الفتح الإسلامى وما بعده، ووجود تواجد مكثف للعمانيين فى مدينة البصرة فى هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامى باعتبار نشاطاتهم التجارية والملاحية يكشف عن المصدر الأقرب لوجود المدخل المتكسر فى مداخل مدينة بغداد وبخاصة وأن النموذج المصرى فى شونة الزبيب بعيد زمنيا وجغرافيا عن بغداد[١٤].

أما عن البوابة الشرقية التى كشفت عن بعض أجزائها البعثة الأمريكية فكانت تبرز عن سمت السور الحجرى للمدينة بمقدار ٥ متر فى بناء ذو مسقط مستطيل، ويذكر كوستا أن البوابة كانت تنقسم معمارياً إلى "قسمين: القسم الأول مواز لمقر اجتماعات المدينة، والقسم الآخر يتجه تسعون

درجة إلى اليمين على احتمال أنه يمر عبر بوابة أخرى داخلية تفتح عبر السور، وهناك احتياج لاجزاء المزيد من أعمال الحفر ليس فقط بغرض البحث عن ما يدل على البوابة الداخلية بل بغرض توضيح العلاقة ما بين كل من البوابة وقاعة الاجتماعات"[١٥]. ولم يحدد كوستا ما يقصده بقاعة الاجتماعات وفى الغالب فانه يقصد "الفرضة" وهى المنطقة الجمركية والتى أشار إليها ابن المجاور عندما ذكر أن هذا الباب الشرقى "باب حرقة" ينفذ إلى "عين فرض" والفرضة منشأه معمارية أشارت المصادر إلى أنها كانت المبنى الذى يتم فيه فحص البضائع والسلع الواردة أو الصادرة من الميناء لتحديد الرسوم الجمركية الخاصة بها، وغالبا ما يكون لهذا المبنى بابان أحدهما يؤدى إلى خارج الميناء مباشرة والآخر تمر منه البضائع إلى داخل المدينة[١٦]. ولاشك فى أن استكمال الكشف عن بقايا هذه البوابة والمبانى المجاورة لها فى ضوء ما أشارت إليه المصادر التاريخية عن "مبنى الفرضة" من شأنه أن يوضح لنا العلاقة المعمارية التخطيطية بين البوابة الشرقية للمدينة ومبنى الفرضة المفترض وجوده.

ووجود آثار البوابة الشرقية وبقايا مبنى الفرضة مجاوراً لها يحدد لنا موضع الحدود الشرقية لمدينة ظفار، كما يحدد لنا طبيعة ونوعية المنشآت فى هذه المنطقة بل ويؤكد أن هذه المنشآت يرجع تأريخها إلى نفس فترة إنشاء المدينة ويبعد قبول أى تفسير يقوم على الاعتقاد بأن هذه المنطقة تمثل منطقة سكنية متأخرة أقيمت على أطراف المناطق الرئيسية السكنية التى تشغل النصف الغربى من المدينة[١٧]. ويكشف هذا التصور عن أهمية الكشف الأثرى لهذه المنطقة التى تمثل النشاط الحيوى للمدينة وباعتبارها من أهم موانئ شرق الجزيرة العربية فى العصور الوسطى.

وفى ضوء ما سبق يتضح تأثير النشاط التجارى لمدينة ظفار على تخطيط بوابات أسوارها، فباب حرقة وهو الباب الشرقى هو فى الغالب الباب الذى تدخل منه الواردات وتخرج منه الصادرات وباب البحر يوصل أهل المدينة مباشرة إلى بحر العرب حيث النشاط البحرى المتصل بصيد السمك والنشاطات البحرية الأخرى، وباب الحرجاء يصل بين مدينة ظفار وبلدة الحرجاء المجاورة لها من جهة الغرب والتى أنشئت بها الأسواق التى تكفى الحاجات الغذائية لسكان مدينة ظفار وهو ما يساعد على تجنب مدينة ظفار الجوانب السلبية لتواجد الأسواق.

أما الباب الرابع والذى لم يذكر اسمه ابن المجاور، فالغالب أنه كان فى السور الشمالى باتجاه الغرب وكان فى الغالب أيضاً لخدمة أهل القصر وربط المدينة بمنطقة البساتين والزراعات إلى الشمال الغربى منها.

وقد كشفت بعثة أمريكية فى سنة ١٩٩٥-١/١٩٩٦م عن قطاع من سور المدينة فى هذه المنطقة ولم تكشف البعثة عن هدفها من اختيار هذا القطاع بالذات وربما كان الهدف هو محاولة الكشف عن المعالم المعمارية للسور فى هذه المنطقة واستمرار الكشف عن بقايا السور فى الضلع الشمالى مع امتدادات القطاع الذى كشف شرقاً وغربا من شأنه أن يحدد هذه المعالم وبالذات الافتراض الذى يرجح وجود البوابة الرابعة فى هذا السور.

ومن خلال ما تم الكشف عنه فى هذا القطاع من السور اتضح أن المعمار استخدم فى بناء أساساته أحجاراً مرجانية وهى من أمتن أنواع الأحجار وأقواها على تحمل الضغط والشد، وقد بنى السور فى مداميك من كتل حجرية مرومة ويصل سمكه إلى حوالى ١,٥ متر، كذلك لوحظ أن

الجانب الجنوبى للخور والموازى للسور الشمالى قد كسى ببلاطات الحجر ويأتى هذا فى إطار تأمين أساسات السور من مياه الخور وتصعيب مهمة المهاجمين للمدينة من هذا الاتجاه فى حالة عبور الخور. ويذكرنا هذا بالمسناه التى أنشئت فى جانب الخندق الداخلى الذى حفر بمحازاة أسوار مدينة بغداد[١٨]. كما يذكرنا بتكسية سطوح سفوح التلال التى تنشأ عليها بعض القلاع ببلاطات الحجر الأملس حتى يصعب على المهاجمين تسلقها أو تنحت السطوح الحجرية لهذه التلال بطريقة تجعلها فى وضع هندسى شديد الانحدار مع نعومة ملمسها.

وفى ضوء ما سبق يتضح أن تخطيط أسوار مدينة ظفار وبواباتها كان ليحقق الغرض الدفاعى مستفيدا من مقوماته التحصين الطبيعى ممثلا فى إحاطة الماء للمدينة من أكثر من جهة، وهذا التوجه تكرر فى كثير من مدن الموانئ العمانية قبل العصر الإسلامى كسمهرم [القرن الأول الميلادى] وصحار، كما أن إختيار مواضع البوابات يسر من جهة أخرى اتصال المدينة بمنطقة الميناء فى الشرق وببحر العرب فى الجنوب وبالحرجاء البلدة المجاورة التى توجد بها الأسواق فى الغرب، وبالظاهر الشمالى للمدينة والممتد عمرانيا حتى مقبرة الرباط، وأنشئت الجسور فوق الخور جهة الشمال وفوق الخندق من جهة الغرب لتخطى هذه الموانع ولتيسير ارتباط البوابات بالمناطق المجاورة التى تؤدى اليها.

المنشآت المدنية:

لم يتبق من المنشآت المدنية سوى أطلالها، ولم يتم الكشف عن نموذج متكامل منها سواء كانت هذه المنشآت سكنية أو تجارية أو صناعية أو

غيرها كالجسور التى تعلو الخور والخندق، وأهم هذه الأطلال الباقية هى أطلال القصر أو "الحصن" الذى لم يتم الكشف عنه "القصر".

وتشير الروايات الشفهية لأبناء الاقليم أن هذا القصر كان بقاياه واضحة المعالم حتى الأربعينيات من هذا القرن، ويقال أن الباب الخشبى للقصر نقل إلى قصر السلطان بصلالة والذى يعرف بقصر الحصن الذى استخدم فى بنائه كثير من الأحجار والأعمدة التى نقلت من أطلال مدينة ظفار[١٩]. ولاشك أن صدق هذه الرواية يساعد على دراسة بعض العناصر المعمارية للقصر. وفى ضوء ما ورد من المصادر نستطيع أيضاً أن نتعرف على بعض الملامح المعمارية الأخرى لهذا القصر.

جرت العادة فى تخطيط المدن الإسلامية الناشئة أن تبنى دار الخلافة أو الامارة أو قصر الحاكم مجاوراً للمسجد الجامع[٢٠] [شكل ٣أ،ب، ٤]، وقد كان تخطيط مدينة ظفار متبعاً هذا التوجه فى التخطيط حيث أنشئ القصر مجاوراً للمسجد الجامع. وقد أشار ابن بطوطة إشارة مهمة إلى هذا فقال "وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بإزائه"[٢١].

ويشير هذا النص إلى أن القصر كان عظيماً ويشغل مساحة كبيرة من المدينة وتؤكد أطلال القصر الباقية هذه الحقيقة، كما يتضمن نص ابن بطوطة إشارة أخرى مهمة تتعلق بمسمى القصر فذكر أنه "يسمى الحصن" وهذه التسمية هى التى يستخدمها أهل المنطقة وأهل عمان بصفة عامة، وجرت العادة باطلاقها على مركز السلطة والادارة فى المدن بالجزيرة العربية بصفة عامة فى بلاد اليمن وعمان على وجه الخصوص، وقد استخدم ابن بطوطة المصطلح الذى شاع استخدامه فى بلاده وبعض البلاد الإسلامية

الأخرى كمصر والعراق وذكر أيضاً المصطلح المستخدم محلياً ليوضح للقارئ أن مصطلح الحصن فى ظفار يعادل مصطلح القصر فى غيرها. وفى إطار هذا التفسير فإن حصن مدينة ظفار الذى يقع أطلاله فى القطاع الغربى من المدينة هو قصرها ومقر الإدارة والحكم فيها [شكل ٤]

وتقع أطلال هذا القصر إلى الشمال من المسجد الجامع وكان يفصل بينهما ميدان. وتقع هذه الأطلال على تل مرتفع عن مستوى أرض الميدان والمسجد الجامع فى الجهة المقابلة وعن ارض المدينة كلها، وفى ذلك ما يساعد على أن يكشف القصر المدينة كلها، كما أن موضعه بهذه الصورة يعتبر أكثر المواضع تحصيناً فى المدينة فإلى الشمال منه يقع الخور وإلى الغرب يقع الخندق واتصال الخور بالخندق عند الركن الشمالى الغربى من المدينة يوفر بذلك ميزة دفاعية للقصر. وهذا التوجه فى إختيار الموضع كان فى إطار رؤية مستفيدة بخبرات المدن المشابهة على ساحل ظفار كمدينة سمهرم التى يتشابه توظيف خور روري فى تحصين موضعها مع خور البليد كما أن كلا منهما كان أيضاً مصدراً للماء مما يساعد على نشأة المدينة وتطورها واستمرارها [شكل ٤، ٥]

ولم تجر أى تنقيبات حتى الآن فى موضع القصر ولكن عثر فى المنطقة التى يقع فيها على بعض القطع الفخارية التى تشير إلى قدم الاستيطان فى هذا الموقع وهى قطع يرجع تاريخها إلى الفترة المحصورة بين ٥٠٠ق.م و ٤٠٠م، وبناء على ذلك يرى زارينز أن منطقة القصر ربما كانت مركز منطقة الاستيطان فى هذه الفترة، وربما يكشف عن تكوينات معمارية فى هذا الموضع تؤكد هذا الاحتمال[٢٢].

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن زيارة ابن بطوطة لمدينة ظفار كانت سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م أى بعد إعادة بناء مدينة ظفار على يد أحمد بن محمد الحبوضى بحوالى مائة واحدى عشرة سنة من المحتمل أن يكون قد وقع فيها تعديل أو تغيير فى عمارة القصر وأيضاً فى عمارة المسجد الجامع بازائه سيما وأنهما متلازمين فى الجوار لأداء وظيفة متعلقة بالرسم المتبع فى العصر الذى زار فيه ابن بطوطة مدينة ظفار.

ومن خلال التنقيبات التى أجراها كوستا فى صحن المسجد الجامع اتضح أنه كانت توجد مبانى أقدم أسفل مستوى أرض الجامع لكنها كما يقرر كوستاكانت من فترة قريبة من فترة انشاء الجامع[٢٣]. [شكل٧]. والدلالة الأثرية لذلك تعني أن المسجد الجامع القائم حالياً بني فى موضع مبان سابقة عليه. وهذا يعنى أكثر من احتمال يرتبط تجديدها بالإطار التاريخي للمدينة.

فالاحتمال الأول أن تكون هذه المبانى القديمة أسفل صحن المسجد الجامع ترجع إلى المرحلة الأولى من تاريخ المدينة أى إلى عهد المنجويين وأنه بعد تدمير المدينة واعادة بنائها كانت اعادة تخطيطها التى فرضت انشاء المسجد الجامع فى هذا الموضع مقابلاً للقصر. ويثير ما ذكره كوستا من أن المبنى أسفل المسجد كان مسكناً ولم يكن مسجداً تساؤلاً مهماً حول موضع المسجد الجامع بمدينة ظفار فى عهد المنجويين وفي إطار التقليد الإسلامي المتبع فى معظم المدن الإسلامية فإن المسجد الجامع يكون فى العادة فى وسط المدينة فأقرب موضع لذلك هو الموضع الذى يشغله حالياً المسجد المسمى خطأ "بالمسجد الجنائزى" [شكل ٨]. ولم يكن المسجد الجامع فى

هذه الفترة مرتبطاً بقصر الحاكم حيث أن مدينة ظفار لم تكن حتى هذا الوقت عاصمة حيث كانت مرباط هى القاعدة ومركز الحاكم.

ونظراً لأنه لم يتم الكشف عن المستوى أسفل أرضية المسجد الجامع كلها فإن هناك احتمالاً ثانياً بأن يكون فى هذا المستوى مبان أخرى بينها مسجد. وفى هذه الحال يكون المسجد الحالى قد أعيد بناؤه بمساحة أكبر وأضخم فى مرحلة لاحقة مرتبطاً أيضاً بالقصر ورسومه وبخاصة فكرة خروج السلطان إلى صلاة الجمعة، وهذا يعنى أن إنشاء المسجد الجامع بمساحته التى عليها الآن يرجع إلى الفترة التى حكم فيها الرسوليين المدنية، والتى كانت تتبع فيها هذه الرسوم التى نقلوها عن سلاطين الرسوليين باليمن ونقلها الأخيرون على سلاطين المماليك فى مصر.

ويشير أسلوب تخطيط المسجد وبخاصة المداخل [شكل ٧] التى فى جدار القبلة، وكذلك الزخارف التى حفرت على الحوامل الخشبية التى عثر عليها كوستا فى الجامع [لوحة ٤] إلى أن هذه الحوامل ترجع إلى الرسوليين وفى ذلك ما يرجح أن بناء المسجد الجامع بهذه الهيئة كان فى هذه الفترة.

وفى إطار ما ذكره ابن بطوطة عن رسوم السلطان فى مدينة ظفار تتضح بعض الملامح المعمارية الخاصة بالقصر فقد ذكر أنه جرت العادة بأنه "تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر، وفى كل يوم اثنين وخميس تأتى العساكر إلى بابه، فيقفون خارج "المشور"[٢٤] ساعة وينصرفون، والسلطان لايخرج ولا يراه أحد، إلا فى يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود إلى داره، ولا يمنع أحد من دخول المشور، وأمير جندار[٢٥] قاعد على بابه وإليه ينتهى كل صاحب حاجة أو

شكاية، وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين، وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه إلى خارج المدينة وأتى بجمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب، فيركب السلطان ونديمه فى المحمل بحيث لايرى، وإلى خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس، ركبه ونزل عن المحمل، وعادته ألا يعارضه أحد فى طريقه، ولا يقف لرؤيته ولا لشاكيه وغيرها، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب، فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق، وتحاموها"[٢٦].

وهذا النص يكشف عن جانب مهم من جوانب الرسوم السلطانية فى مدينة ظفار التى تتشابه مع رسوم سلاطين المماليك، ومنها ضرب الطبول والبوقات وغيرها بعد صلاة العصر فى كل يوم وجلوس السلطان للنظر فى حاجات الناس وشكاياهم كل يوم إثنين وخميس من كل أسبوع، وخروج السلطان للصلاة الجمعة، وركوبه للنزهة فى سلاحه ومماليكه، ومن الملاحظ أنه كان هناك حرص شديد فى تأمين السلطان أثناء مواكبه، وخلال مروره بالطرقات فلم يكن يسمح لأحد بمقابلته فى الطريق وكان يعاقب من يفعل ذلك بالضرب الشديد، حتى أن الناس كانوا يخلون الطرقات أثناء مرور موكب تجنباً للأذى وهو مالم يكن يحدث على سبيل المثال فى مواكب سلاطين المماليك التى كان يقبل الناس على مشاهدتها، ويجسد ذلك الحالة التى كان يعيشها السلاطين الرسوليين فى مدينة ظفار والتى اختلفت فيها توجهات الإعلان عن رسوم السلطنة لزيادة مهابة السلطان وإبراز سيادته واستقلاله فى هذه الفترة التى بدأ فيها استقلال سلاطين مدينة ظفار عن السلاطين الرسوليين فى اليمن، بمظاهر الرغبة فى تأمين السلطان من أن يتعرض له أحد وهو فى موكبه وبخاصة وأنه كان أول حكام مدينة ظفار الذى أعلن

استقلاله عن حكام اليمن، ويقرر هذه الحقيقة ابن بطوطة نفسه الذى ذكر أن "سلطان ظفار هو السلطان المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن، وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة، ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع عن ارسال الهدية"[٢٧].

ومن الملامح المعمارية للقصر والتى وردت الاشارة إليها فى حديث ابن بطوطة عن رسوم السلطان تلك الاشارة إلى "باب القصر" الذى كانت تضرب أمامه الطبول والأبواق، ويومئ النص إلى أن للقصر باب واحد، ولكن فى ضوء الوصف الذى أورده ابن بطوطة عن موضع القصر وعلاقته بالمسجد الجامع يمكن الترجيح بأن هذا الباب الذى ذكره ابن بطوطة هو الباب الرئيسى[٢٨]، وأنه كان فى الواجهة الجنوبية للقصر مطلاً على الميدان الذى يفصل بين القصر والمسجد الجامع.

وقد أشارت الروايات لأبناء منطقة ظفار أنه نقل من موضع القصر بابه الخشبى الخارجى ومازال محفوظاً فى القصور السلطانية ولم نتحقق من ذلك لكن إذا ثبت وجود هذا الباب فإنه يساعد مستقبلاً على دراسة القصر بعد كشفه.

كذلك أشار ابن بطوطة فى حديثه إلى وحدة معمارية أخرى هى "المشور" ويتضح من سياق النص أن هذا المشوركان عبارة عن مساحة كبيرة تتقدم القاعة التى يجلس فيها السلطان للنظر فى أمور الرعية [شكل ٩]، وأن هذه الساحة كانت تطل عليها وحدة معمارية أخرى تستخدم المقتر جاندار وغيره وفى هذه الساحة كان يقف العساكر كل يوم اثنين وخميس لمدة ساعة.

وتحديد موضع القصر فى هذا الموقع من المدينة فى ضوء نص ابن بطوطة وخريطة كارتر [شكل ٥] فى ضوء الأطلال الباقية من القصر فوق التل الذى يشغل الركن الشمالى الغربى من المدينة يثير من جديد فكرة إعادة النظر فى تفسير وجود جسر أو كوبرى لعبور الخور [احداثى ٤٥٠ شرقا، ٤٢٥ شمالاً] والذى أوضحته الصور الجوية التى تم التقاطها للموقع سنة ١٩٧٠م ومقياسها ١: ٥٠٠٠ والتى بدت فيها آثار أربعة أرصفة من ارصفة رسو السفن وكلها على صف واحد عمودى على الخور، ويذكر كوستا أن هذه الصور أيدت شواهدها ما سبق أن حصل عليه من معلومات من الأهالى تفيد أنه كانت توجد فى هذه البقعة بالذات آثار كوبرى مبنى بالحجر والتى كانت فى مكانها من سنوات قليلة(٢٩). ولما كان هذا الجسر يبعد ٥٠ متراً عن الركن الشمالى الغربى لسور المدينة [شكل ٤] فإنه كان يخدم فى المقام الأول القصر ويربط بين القصر والمنطقة التى تقع فيها البساتين ومن بينها بستان السلطان الذى كان يخرج أحيانا إليه(٣٠)، والتى تناثرت فيها بعض أيضاً بعض المنشآت السكنية والدينية كالمساجد والتى بقيت بعض أطلالها إلى الآن [شكل ٢]. وهذا يفسر السبب الحقيقى فى وضع الجسر قرب نهاية سور المدينة أعلى هذا الموضع من الخور. وينفى هذا التفسير افتراض كوستا من أن الخور لابد وأنه كان يمتد غربا مسافة أخرى حتى تبدو الجسر فى منطقة وسط الخور(٣١).

ويكشف هذا التفسير احتمال وجود باب خلفى للقصر غير مدخله الرئيسى يخرج منه السلطان عند رغبته فى التوجه إلى بستانه فى المنطقة التى تقع إلى الشمال الشرقى من البليد. كما أنه يدعم فكرة أن يكون الباب

الرابع من أبواب مدينة ظفار التى أشار إليها ابن المجاور فى القطاع الغربى من السور الشمالى للمدينة قريباً من القنطرة التى تعلو الخور.

وتوضح خريطة كارتر أن كلا من الجدارين الشمالى والغربى للقصر كانا ملاصقين للقطاع الغربى من السور الشمالى والقطاع الشمالى من السور الغربى إن لم يكن سور المدينة فى هذين القطاعين هو نفسه السور الخارجى للقصر [شكل ٥]. ولا نستطيع حالياً أن نحدد مدى صحة ذلك، ولكن التنقيبات وحدها هى التى يمكن أن تحدد صحة رسم كارتر من عدمه.

وفى ضوء ما سبق يتضح الارتباط الواضح بين موضع القصر والمسجد الجامع ووجود ميدان يفصل بينهما، وهو تخطيط متكرر فى بعض المدن الإسلامية لكن حركة سير موكب السلطان من القصر إلى المسجد الجامع ودخوله من الأبواب التى بجدار القبلة كان له أثر فى تخطيطها بشكل مميز.

كما يتضح أن القصر كان يشغل مساحة كبيرة ولاشك أن استمرار مدينة ظفار كعاصمة للاقليم لمدة تزيد على ستة قرون كان له أثره على اتساع عمارة القصر، كما أن استغلال ظفار فى عهد الحكام الرسوليين عن اليمن وتقليد هؤلاء الحكام لسلاطين الرسوليين فى اليمن والمماليك فى مصر فى رسومهم كان له أثر فى اشتمال القصر على الساحات الخارجية "المشور" التى يصطف بها الجند ويشمل على وحدات للحراس وغيرهم كذلك اتضح أن إختيار هذا فوقع القصر فى أعلى ربوة بالمدينة واحاطته بالخور من الشمال والخندق من الغرب يعكس مدى الإهتمام بتأمين هذا القصر.

المنشآت التجارية:

أما فيما يتعلق بالمنشآت التجارية فقد سبقت الاشارة إلى أن كوستا قد كشف فى المنطقة "B" عن بقايا مبنى يبدو أنه فى الغالب كان منشأة تجارية [شكل ٦]، ولاشك أن مدينة كمدينة ظفار كانت بها نماذج من المنشآت التجارية تفى بحاجات هذا النشاط، وتعتبر "الفرضة" من أهم هذه المبانى باعتبارها مبنى المنطقة الجمركية.

ومن المنشآت المدنية الأخرى التى يفترض وجودها ضمن النسيج العمرانى لمدينة ظفار هو "دور الطراز" التى كانت تنتج ما اشتهرت به ظفار من أنواع المنسوجات الحريرية التى كانت تقوم باستيراد موادها الخام وتصنعها ثم تعيد تصديرها أثواباً ظفارية لها قيمتها التى تجسدها ثمنها المرتفع(٣٢) وتكشف بعض الأحجار المثقوبة التى عثر عليها فى أطلال المدينة عن أنها كانت أثقالاً للأنوال التى تنتج هذه المنسوجات.

وكان بظفار دار ضرب للنقود تضرب مسكوكات نحاسية اشتهرت ظفار بضربها [لوحة٥]، وكانت تستخدم فقط فى حدود النطاق العمرانى لهذه المدينة(٣٣).

ولاشك أن إجراء تنقيبات متكاملة في هذه المدينة من شأنه أن يكشف مستقبلاً عن أمثلة لهذه النوعيات من المبانى المدنية وغيرها.

هوامش الفصل

(١) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية، الكويت ١٩٨٨، ص٩٥.

(٢) ابن بطوطه: المصدر السابق، ص ٢٨٧، ص٢٩١.

(٣) ناصر خسرو [أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي] سفرنامه، رحلة ناصر خسروا القبادياني. ترجمة أحمد خالد البدلي، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٣، ص٩٧.

(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٦٦.

(٥) ابن المجاور: المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٦) كوستا : المرجع السابق، ص ٣٢.

(٧) راجع الوصف التفصيلي لهذا المبنى [كوستا: المرجع السابق، ص ص ٥١-٥٦].

(٨) راجع: ابن المجاور، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٩) من الجدير بالذكر أن كلمة "حرقة" قريبة من كلمة"جرقم" في اللهجة الجبالية التي ينطق بها كثير من أهل المنطقة، وتعنى "البليد" أو "البلاد" أى مدينة ظفار حاضرة الاقليم فقد جرت العادة باستخدام هذا المصطلح "البلاد" للدلالة على المدينة التى تمثل قاعدة المنطقة فى المناطق العمانية المختلفة، وما زال هذا الاستخدام حتى الآن فيطلق على المنطقة القديمة الأثرية من منح "البلاد".

(١٠) كلمة "الحراج" يطلق فى بعض مناطق الجزيرة العربية على نوعية من الأسواق تقام لبعض السلع وتعقد هذه السوق فى مناطق فضاء خارج المدن عادة والتسمية قريبة فى رسمها من إسم "الحرجاء" الذى أطلق على البلدة التجارية التى كانت تضم الأسوار التى يرتادها أهل ظفار.

(١١) كوستا: المرجع السابق، ص ٢٩.

(12) Creswell (K. A. C.) Early Muslim Architecture. Vol. II, pp. 24-25.

– فريد شافعي: العمارة العربية فى مصر الإسلامية فى عصر الولاه، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠ ص ١٩١.

(١٣) كوستا: المرجع السابق، ص ١٠.

(١٤) راجع ، فريد شافعي: المرجع السابق، ص ١٩١.

(١٥) كوستا: المرجع السابق، ص ٣٠.

(١٦) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص ٤٨.

(١٧) كوستا: المرجع السابق، ص ٣٠.

(١٨) طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، مطبعة النعمان بالنجف الأشرف، ١٩٦٧، ص١٧.

وقد ذكر ابن رسته أنه كان للخندق مسناتان واحدة فى الجانب الخارجى للخندق والأخرى فى الجانب الداخلى "بنيتا بالجص والآجر" [ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) الأعلاق النفيسة. ليدن ١٩٨٢، ص ١٠٩].

(١٩) رواية شفهية للفاضل/ أحمد سالم بيت سعيد فى يوم ٤ يناير ١٩٩٧م.

(٢٠) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، الكويت. سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٢٨، ص ١١٧.

(٢١) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٢٢) زاريتر: التنقيبات الأثرية فى محافظة ظفار، ص ص ١٠-١١.

(٢٣) كوستا: المرجع السابق، ص ص ٤٤-٤٥.

(٢٤) المشور مصطلح معمارى مغربى يطلق على الساحات الخارجية للقصور الملكية [المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى ت ١٠٤١) روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦٤، جـ١٢، ص١٣] [انظر شكل رقم ٩]

(٢٥) أمير جندار: معناها الأمير الممسك للروح، وكان من مهامه حراسة السلطان عند خروجه والطواف حوله فى سفره وكان من مهامه الاستئذان لدخول الأمراء على السلطان، ومن مهماته تقديم البريد للسلطان [حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥، جـ١، ص ص ١٩٧-١٩٨]، ويضيف هذا النص ما يفيد أنه كان يقوم بتوصيل الشكاوى من العامة للسلطان ويعود اليهم بجوابه عليها.

(٢٦) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٢٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ص ٢٩٠-٢٩١.

(٢٨) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(٢٩) كوستا: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣٠) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٣٩١.

(٣١) كوستا: المرجع السابق، ص ص ٢٧-٢٨.

(٣٢) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص

(٣٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٢٨٦.

الفصل الثانى

المنشـــآت الدينيـــة

تنوعت المنشآت الدينية فى مدينة ظفار وظواهرها ما بيـــن المســاجد الجامعة ومساجد الفروض والمدارس والزوايا.

أولا : المسجد الجامع ومساجد الفروض

أشار ابن بطوطة إلى كثرة المساجد فى مدينة ظفار(1) وقد بقى من هذه المساجد ظاهرا للعيان أطلال المسجد الجامع وثلاثة من مســاجد الفــروض داخل أسوارها كما أنشئ مسجد آخر ضمن المبانى المتأخرة التى أنشئت فى المنطقة التى تقع إلى الغرب من سورها الغربى، وتوجد بقايا العديـــد مـن المساجد فى منطقة البساتين ومقبرة الرباط تؤكد ما ذكره ابن بطوطة.

وصف المسجد الجامع بمدينة ظفار:

يقع المسجد الجامع في القطاع الغربى من المدينة قريبـا مـن بابـها الغربى بمحازاة القصر الذى يقع إلى الشرق منه، ويفصل بينهما ميدان [شكل رقم ٤، ٥ لوحة رقم ٦] ويشغل هذا المسجد مساحة مستطيلة مـــن الأرض يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٤١ متراً وعرضها مــــن الشمــال إلـي الجنوب ٥٠ متراً، والميضأة والمطاهير في الجهة الشرقيــة مـن المســجد، وتشغل مساحة طولها من الشمال إلى الجنوب ١٠ متراً ومن الشـــرق إلـي الغرب ٤٠ متراً [شكل ٧]. وبالرغم من أن المسجد حاليا عبارة عن أطلال إلا أن ما تم الكشف عنه من عناصر معمارية(2) سواء بقايا جدرانه الخارجية

أو الأعمدة التى كانت تحمل سقف اروقته فانه يمكن تصوير التخطيط العام للمسجد على النحو التالي:

يؤدى إلى المسجد ثلاثة مداخل رئيسية بالواجهة الغربية للمسجد[٣]، وهذه الواجهة تمثل جدار القبلة، ويصعد إلى كل مدخل من هذه المداخل بواسطة درج حجرى أمامى ينتهى إلى بسطة تؤدى كل منها إلى مدخل من هذه المداخل، ويتوصل من هذه المداخل إلى رواق القبلة مباشرة. وتمثل هذه المداخل ظاهرة معمارية مميزة يكاد ينفرد بها هذا المسجد الجامع، وربما ارتبط انشاء هذه المدخل على هذا النحو بالرسم الملكى المتبع في عصر انشائه حيث كان السلطان يخرج من القصر إلى صلاة الجمعة في موكب حافل ثم يعود إلى قصره بعد انتهاء هذه الصلاة[٤]. وكان دخول السلطان وحاشيته وجنده من هذه المداخل في الغالب.

ويوجد في وسط الجدار الغربى مدخل يربط بين الميضأة والمطاهر وبين الجامع عبر الرواق الغربى يبلغ اتساعه متر واحد، ويوجد بالجدار الجنوبى باب يفتح على البلاطة الثالثة من جهة القبلة، ومن المفترض أنه يوجد في كل من الجدارين الشمالى والجنوبى مداخل أخرى يحدد الكشف الأثرى مواضعها عند اتمام التنقيبات التى تتم لاعداد مشروع الترميم.

والمسجد من الداخل تخطيطه عبارة عن اربعة أروقة تحيط بصحن مكشوف في الوسط مستطيل الشكل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ١٣ متراً ومن الشرق إلى الغرب ١٤ متراً.

رواق القبلة:

ورواق القبلة أكبر الروقة حيث يبلغ اتساعه ٣٩ مترا وعمقه ٢٠,٤ مترا، ويتكون من ست بلاطات بواسطة ست صفوف من الأعمدة موازية لجدار القبلة بكل صف اثنا عشر عمودا.

ويتوسط جدار القبلة المحراب وهو عبارة عن حنية عميقة يبلغ اتساعها ١,٢٠ مترا وعمقها ١,٤٠ مترا يجاورها موضع المنبر وهو عبارة عن فتحة تؤدى إلى دخلة عميقة كان بها فيما يبدو درج لمنبر مبنى بنفس الشكل المنتشر في عمان، حيث نرى مثيلا له في المسجد الجامع بمدينتى منح والرستاق وغيرهما، ويلاحظ أن عمق هذه الحنية أكبر من عمق حنية المحراب، ولكن المعمار جعل حائطهما الخارجى في مستوى واحد يبرز عن سمت جدار القبلة من الخارج بحوالى ٢ متر، كذلك يلاحظ أن ترميما خاطئا حدث نتيجة إعادة بناء الكتل الحجرية في واجهة المنبر، وهو أمر يمكن تداركه في مشروع الترميم الشامل الذى يعد الآن للمسجد الجامع.

كذلك يلاحظ أن تعديلا معماريا حدث في الطرف الجنوبى من رواق القبلة حيث اقتطع من مساحة الرواق مساحة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١٠ متر وعرضها من أقصى الجانب الغربى ٣,٩٠ مترا وفى أقصى الجانب الشرقى ٢,٤٠ مترا، وذلك بواسطة جدار مضاف في الجانب الجنوبى من القاعة، ويجاور هذه القاعة من الجهة الشرقية مباشرة أساس مئذنة مضافة في منطقة تشغل المربع الشمالى الأخير من البلاطة من جهة جدار القبلة، ويقع باب هذه المئذنة في اقصى الطرف الشرقى من الجدار الفاصل بين بنائها وبقية الرواق، ويؤدى هذا الباب إلى درج كان يصعد منه إلى أعلى المئذنة.

ويبدو أن هذه الإضافات مرتبطة أيضاً بإضافات أخرى أحدثت تعديلاً معماريا في هذا الرواق، حيث بنى جدار على الخط المحوري الذي تنتظم عليه أعمدة الصف الثالث – من جهة القبلة– ويمتد هذا الجدار من الجدار الجنوبى للمسجد وحتى الجدار الشمالى، كما أن طرفه الشمالى يمثل الجانب الشرقى لكتلة المئذنة المضافة، وفى ذلك ما يشير إلى أن بناء القاعة المضافة والمئذنة وهذا الجدار كان متعاصراً، ويبدو أن هذه التعديلات قد حدثت في فترة متأخرة نسبياً حدث فيها تدمير للمسجد أدى إلى تهدم المنطقة التى تقع إلى الشرق من هذا الجدار المضاف، واقتصر ترميم المسجد بعد هذا التدمير على اعداد هذا الجزء من رواق القبلة للصلاة، وهو جزء صغير نسبيا إذا ما قورن ببقية مساحة المسجد، وهو ما يشير إلى أن هذه التعديلات كانت في الفترة التى آلت فيها المدينة إلى الضمور، وقد حدث هذا في نهاية القرن ١٠هـ/١٦م عندما أصبحت المدينة قرية صغيرة ثم هجرت فيما بعد لتظل صلالة كعاصمة للإقليم(٥).

الرواق الشرقى:

والرواق الشرقى يبلغ اتساعه ٣٤,٤٠ مترا وعمقه ١٣,٤٠ متر ويتكون من اربع بلاطات موازية لجدار القبلة بواسطة أربعة صفوف من الأعمدة بكل صف اثنا عشر عمودا، وقد حدث أيضا تعديل معمارى في هذا الرواق حيث بنى جدار بامتداد أربع فتحات من الفتحات التى تفصل بين الأعمدة في البلاطة الأولى من الجهة الجنوبية، وهذا الجدار يشتمل على محراب يلاحظ أنه في منتصف الفتحة الثالثة من الجنوب إلى الشمال، وهكذا لم يتوسط المحراب الجدار المذكور، وبنى جدار آخر عمودى على الطرف الشمالى للجدار السابق ويمتد مخترقا الرواق الشرقى حتى يتصل بالجدار

الشرقى للمسجد، وببناء هذين الجدارين تتكون مساحة مستقلة يرى "كوستا" أنها كانت مسجداً للنساء أو مدرسة(٦)، والرأى الثانى هو الأرجح.

وهنا تجب الإشارة إلى أن فصل هذا القطاع تماماً عن المسجد بهذين الجدارين يقتضى وجوب وجود باب يدخل منه إلى هذه المساحة المقتطعة، وحيث أن التنقيبات لم تثبت وجود باب في الجدار الشرقى، فإن الباب المفترض وجوده يمكن أن يكون بالجدار الجنوبى وهكذا يتضح أنه كان في الجدار الجنوبى للمسجد بابان على الأقل، وربما يكشف عن ثالث في منتصف هذا الجدار.

كذلك تجب الإشارة إلى أن اقتطاع هذا الجزء من المسجد كان في فترة لاحقة لانشاء المسجد، ويمثل بذلك أول تعديل معمارى بالمسجد مازالت آثاره باقية. وهكذا يتضح أن المسجد مر بثلاثة مراحل معمارية على الأقل تعكسها عمارة المسجد الأصلية وما حدث من تعديلات أولها يعكس مرحلة ازدهار في تاريخ المسجد حيث خصص لاضافة وظيفة التدريس للمسجد والثانية تعكس مرحلة انحدار وتمت لتأهيل المسجد بعد ترميمه ليؤدى وظيفته في ضوء الامكانات المتاحة ويناسب عدد السكان القليل الذى بقى قاطنا بالمدينة.

الرواقين الشمالى والجنوبى:

متشابهان جملة وتفصيلاً ويبلغ اتساع كل منهما ١٣ متراً وعمق كل منهما ١٢,٤٠ متر ويتكون كل منهما من أربع بلاطات بواسطة ثلاثة صفوف من الأعمدة بكل صف ثلاثة أعمدة.

المئذنة الأصلية :

تقع بقايا المئذنة الأصلية لهذا المسجد في الركن الشمالى الشرقي وهي عبارة من كتلة معمارية بارزة عن سمت الجدار الشرقى بحوالى ٣ متر، كذلك يبدو أن بناءها كان بارزاً من سمت الجدار الشمالى، وهكذا يتضح مدى حرص المعمارى على انشاء المئذنة خارج ساحة الصلاة بالمسجد حتى لا تشغل أى جزء منها تطبيقاً لتوجيهات الفقهاء(٧).

ويتوصل إلى هذه المئذنة باب بأقصى الطرف الشمالي للجدار الشرقي للمسجد، ويؤدى هذا الباب إلى درج كان يتوصل منه إلى الطوابق العليا للمئذنة والتى فقدت حاليا.

الميضأة والبئر والمطاهر Washing Area

كانت هذه الوحدات تشغل المساحة التى تقع إلى الشرق من المسجد مباشرة، وقد قام "كوستا" بعمل تنقيبات في هذا الموضع ولم ينشر حتى الآن أى تقرير تفصيلى عن هذه التنقيبات، ولم يقدم أى دراسة لما كشف، وقد تهدمت الأطلال الباقية في هذه المنطقة تهدماً كبيرا لايساعد على التعرف على أي عنصر منها بوضوح، ولكن في ضوء المساحة التى تشغلها، وفي ضوء معرفة التكوينات المعمارية التى تشتمل عليها هذا المنطقة عادة، فإنه يمكن القول بأنها كانت تضم بئراً ومطاهر للاغتسال وميضأة للوضوء، ولا

المطاهر تعددت وحداتها باعتبار أن هذه ظاهرة أكد على وجودها الرحالة(٨).

وتؤكد وجودها بقايا مطاهر المساجد الباقية والمساحات الكبيرة التى تشغلها، وكذلك استمرار هذا التقليد المعمارى في المساجد الحديثة بمنطقة ظفار، ويقرر كوستا في ضوء تنقيباته بهذه المنطقة أن تم تحديد نظام الامداد بالمياه علاوة على جزء من بيوت الخلاء ومواضع الوضوء، لكنه يستطرد فيقول إن الأمر يتطلب عمليات تنقيب اضافية حتى يمكن التوصل إلى فهم افضل للعديد من التفاصيل كنظام تصريف المياه وتخزينها ومعرفة وظيفة حجرات أخرى كالحجرة C, B [شكل ٧] وعلاقة هاتين الحجرتين ببيوت الخلاء والميضأة(٩).

وفى إطار الوصف السابق يمكن تحديد المشكلات التى ترتبط باعداد مشروع شبه متكامل لترميم المسجد في ضوء العناصر المعمارية الباقية، وفي ضوء الدراسات الأثرية المعمارية المقارنة أهم هذه المشكلات تتمثل فيما يلى:

١- ما هية شكل العناصر الحاملة للسقف وشكل السقف نفسه.

٢- ماهية شكل مئذنة المسجد.

٣- تصور الشكل الذى كان عليه صحن المسجد وكيفية التخلص من مياه الأمطار التى تتجمع فيه.

٤- الوحدات المعمارية المرتبطة بالصلوات الجامعة.

أولا: شكل العناصر الحاملة للسقف وشكل السقف نفسه:

لم يتبق من العناصر الحاملة للسقف سوى بعض الأعمدة وأجزائها، ويلاحظ أن هذه الأعمدة منحوته من الحجر في كتلة واحدة بطول حوالى ٣

متر ويدن العمود مثمن الشكل وله قاعدة وتاج في هيئة مكعبة اشكل [انظـر شكل ٧ ولوحة رقم ٦].

ويلاحظ أن الجزء العلوى من التاج قد نحتت بـه أخـاديد أو قنـوات لوضع الروابط الخشبية Tie - Beems التى كانت تربط بين الأعمدة في مستوى اسفل من مأخذ العقود مباشرة، أو لوضع حوامل لتعليق المصابيح بارزة عن سمت تاج العمود قليلا[١٠]، ولقد عثر على بعض الأجزاء من هذه الحوامـل بحالة جيدة ومحفورة بزخارف نباتية جميلة [لوحة رقم٤] يمكن في ضوئها تأريخ هذه الروابط في الفترة المحصورة بين القرنين ٧-٨ هـ/ ١٣-١٤م.

وفيما عدا ذلك لم يتبق سوى بعض الكتل الحجريـة مربعـة المسـقط وتزيد أطوال مسقطها المربع عن تاج العمود بحوالى ١٠ سم في كل ضلع كذلك عثر على قطع حجرية وتدية الشكل في هيئة صنج العقود، وهذه القطع لايسهل على المنقب غير المتخصص أن يحدد وظيفتها والتى يمكن تأكيدها في حالة إذا ما تأكد أن أعمدة المسجد كانت تحمل فوقها عقودا مبنيـة بـهذه الكتل.

وهناك يطرح التساؤل المهم وهو هل كان سقف الجامع يرتكز مباشرة على الأعمدة؟ أم أن هذه الأعمدة كانت تحمل فوقها عقودا يرتفع البناء فوقها قليلا تمهيدا لوضع السقف؟.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن قصر الأعمدة المسـتخدمة التـى لايزيد ارتفاعها عن ٣,٥ مترا لا يتأتى معه وضع جوائز السقف عليها مباشرة وإلا كان السقف منخفضا انخفاضا واضحا لم نر له مثيلا في المساجد المعاصرة لانشاء هذا المسجد والتى لايقل مستوى ارتفاعها عن خمسة أمتـار. وهـذا

يعنى بصورة أو بأخرى أنه كانت هناك عناصر انشائية حاملة مبنيـة فـوق هذه الأعمدة ترفع سقف المسجد إلى المستوى المطلوب، ويصعب أن نتصور أن هذه الأعمدة كان يعلوها بناء في هيئة الدعامـات للوصـول إلـى هـذا الارتفاع حيث لم يستخدم هذا الأسلوب في العمارة الإسلامية بهذه المنطقـة. كما أن هذا الشكل من الناحية المعمارية لن يكون بنفس متانة إنشاء العقـود التى شاع استخدامها في مثل هذه الحالات. وعلى هذا فإن التصور المنطقى من الناحية المعمارية والانشائية والأثرية يفترض بناء عقود تحملـها هـذه الأعمدة لتصل بالسقف إلى الارتفاع المطلوب.

ويدعم هذا التصور بعض الأدلة المعمارية الأثرية الباقية في المسـجد نفسه، وفى مسجد معاصر مازال باقيا بمقبرة الرباط بمنطقة ظفار [شكل ١٠، ١٢ لوحة رقم ٢٠] يدعى مسجد محمد بن ابى بكر (ت ٧١٤هـ/١٣١٣م)، أمـا الأدلة الأثرية الباقية في المسجد الجامع – موضع الدراسة – والتى تشير إلى امكان استخدام العقود كعناصر حاملة فوق المسجد تتمثل فيما يلى:

١- الأكتاف البارزة عن سمت كل من الجدارين الشمالى والجنوبـى مـن الداخل والتى تقع على نفس محور كل صـف مـن صفـوف أعمـدة المسجد، وهذه الأكتاف كانت لترتكز عليها ارجل العقود التى تنتهى بها كل البائكات في الأطراف الشمالية والجنوبية، كما أنها تساعد انشائيـا على تحمل رفص العقود في هذين الاتجاهين، وهذه الظاهرة موجـودة في كثير من المساجد العمانية وموجودة ايضا في مسجد مقبرة الربـاط بمنطقة ظفار نفسها.

٢- عثر على قطع حجرية مربعة المسقط كبيرة تزيد مساحتها عن مسـاحة تاج العمود، وهذه القطع يبلغ سمكها في المتوسط حوالى ٢٠سم وكانت توضع فوق تيجان الأعمدة "كطبلية" تبدأ بناء العقد من فوقه، ويوجد ما

يشابهها تماما في مسجد الرباط [لوحة ٧]، حيث تساعد هذه الكتلة على البروز قليلا عن سطح التاج وتوفر مهادا جيدا لبناء كوشة كل عقدين والمأخذيين المتجاورين لكل منهما.

٣- العثور على قطع حجرية وتدية الشكل يقارب طولها طول ضلع الطبلية التى تعلو تيجان الأعمدة يتراوح سمكها بين ٢٥-٣٠ سم وهذه الكتل منحوته نحتا جيد Smooth Stone ومرومة وليست كالكتل الحجرية غير المرومة الأخرى المستخدمة في بناء جدران المسجد، وقد عثر على كتل تشبهها بين الأحجار الساقطة في موقع المسجد المسمى "بالمسجد الجنائزى" بمدينة ظفار نفسها، وهذه الكتل في الغالب تمثل الأجزاء والنماذج الباقية من صنج العقود.

٤- تتناسب المسافات المحصورة بين الأعمدة وامكانية إنشاء عقود عليها فهي ليست كبيرة حيث تبلغ حوالى ٢,٣٠ مترا، ومن السهل انشاء عقد محكم البناء فوقها[١١].

٥- سمك الحوائط الخارجية للمسجد والذى يبلغ المتر والمبنى بالحجر يساعد على الارتفاع بها إلى مستوى الارتفاع الذى يساوى ارتفاع الأعمدة وما يعلوها من عقود حيث يمكن أن يصل الارتفاع إلى مستوى ستة أمتار من مستوى أرضية المسجد. وذلك في ضوء قياسات سمك الجدران الخارجية للمسجد والمسافات بين الأعمدة أو باعتبار أن كثافة الحجر ٢,٧ طن/م٣ [انظر شكل رقم ١١].

ويدعم هذه الأدلة البحث فى مساجد معاصرة لهذا المسجد الجامع في منطقة ظفار استخدمت فيها العقود كعناصر حاملة فوق الأعمدة، وقد كشف البحث عن وجود مسجد بمقبرة الرباط مازال محتفظا بكثير من عناصر

المعمارية الأصلية والتى تساعد – في إطار الدراسة المقارنة – على تأكيد استخدام العقود كعناصر حاملة فوق الأعمدة لحمل السقف، كما يمكن من خلاله أن نتعرف على شكل من اشكال العقود التى استخدمت في هذه المنطقة في ذلك العصر.

ومسجد الرباط يضم مساحة للصلاة كانت مغطاة بسقف محمول على ثلاثة من الأعمدة بالاضافة إلى كتفين بارزين عن سمت الجدارين الشمالى والجنوبى من الداخل يؤكدان أن هذه الأعمدة كانت تحمل أربعة من العقود، ويعلو كل عمود من هذه الأعمدة فوق تاجه مباشرة طبلية حجرية، تبرز قليلا عن تاج العمود، ثم يرتفع بناء مأخذى رجلى العقد بارتفاع قدره ٦٥سم مع ميل للتقوس إلى الداخل في الجانبين كلما ارتفع البناء [لوحة رقم ٧]، وفى ذلك ما يؤكد أن هذا البناء يمثل الجزء الأسفل الباقى من العقود التى كانت تعلو هذه الأعمدة والمشابهة في شكلها العام وارتفاعها لأعمدة المسجد الجامع موضع الدراسة.

ويلاحظ أن جدار القبلة مملط بملاط جيرى وبأعلى الجدار وقبل نهايته بحوالى ٧٥ سم ثقوب تدل على أنه كان هناك عروق خشبية مثبته في هذا الجدار، وهذه الثقوب في مستوى لا ترتفع كثير من بقايا بناء العقود سابقة الوصف، وهذا الشكل يجعل رائيه لايعتقد بوجود عقود ويتصور أن هذا البناء الذى يعلو الأعمدة ربما كانت تعلوه جوائز ترتكز عليها العروق الخشبية الممتدة بشكل عمودى من جدار القبلة إلى هذه الجوائز والتى بقيت ثقوبها دالة عليها.

ولكن وجود هذه الثقوب منخفضة عن مستوى نهاية جدار القبلة من الداخل وليست في نهايته يجعلنا نفترض حدوث تعديل في سقف المسجد لسبب من الأسباب، وبمعاينة هذا المسجد برفقة أحد الآثاريين بمنطقة ظفار ذكر أنه من الخمسينات من هذا القرن سقط السقف الأصلي للمسجد وأعيد بناؤه في مستوى اقل من المستوى السابق كما أكد رؤيته للعقود التي كانت تقلد الأعمدة بشكلها الكامل[١٢]، وهكذا يتأكد وجود هذا النموذج الأصلي الذي يدلل على استخدام الظفارين للعقود كعناصر حاملة فوق الأعمدة لزيادة ارتفاع بناء المسجد ولتعويض قصر الأعمدة وحتى يبلغ ارتفاع المسجد المستوى القياسي التقليدي.

ويوجد بالجدار الجنوبي للمسجد نافذة معقودة بعقد مدبب قليل الارتفاع [انظر لوحة رقم٨] يمكن أن يتخذ نموذجا لما كان عليه شكل من إشكال العقود التي استخدمت في ظفار في القرن ٧-٨هـ/ ١٣-١٤م، ويمكن أن يستفاد منه في إعادة تصور شكل العقود التي كانت تعلو أعمدة المسجد [انظر شكل رقم١٢]. حيث تم عمل تصور لهذه العقود في ضوء قياسات الفتحة التي يعلوها العقد الباقي في مسجد الزباط مقارنة بقياسات المسافة بين كل عمودين بين أعمدة مسجد ظفار، واتضح مع التطبيق أن هذا العقد يمكن ان يصل ارتفاعه إلى ٢,٥ متر، وبإضافة هذا الارتفاع إلى ارتفاع الأعمدة يمكن أن نتصور أن البناء فوق العقود لم يتجاوز أكثر من ٠,٦٠ متر.

والمسجد المسمى "بالمسجد الجنائزي" في البليد يحتفظ أيضا بعناصر معمارية مهمة تشير أيضا إلى استخدام العقود فيه أيضا، كالأكتاف البارزة عن سمت الجدارين الشمالي والجنوبي وسمك الجدران الخارجية، والكتل الحجرية التي تستخدم كطبالي، والكتل الحجرية الباقية من صنج العقود.

وفي ضوء ما سبق يتضح أن سقف المسجد الجامع بظفار كان محمولا على أعمدة تعلوها عقود مدببة غالبا [انظر شكل رقم ١٢]، مكونة بائكيات تعلوها العروق الخشبية التي تحمل بقية مكونات السقف من ألواح الخشب التي تعلوها طبقة من الحصى التي يعلوها طبقة من الملاط أو الصهروج، وغالبا ما كان لهذا السقف مزودا بميازيب لتصريف مياه الأمطار، وينحدر مستواه من أعلى انحدار خفيفا في اتجاه هذه الميازيب.

ولا نعتقد أن السقف كان مبنيا على هيئة قباب أو أقبية حيث لاتوجد أدلة معمارية انشائية في المسجد تشير إلى ذلك، كما لاتوجد أي أمثلة باقية لمساجد أثرية أو حديثة تم تغطيتها بالقباب أو الأقبية في منطقة ظفار ومن ثم كان استبعادنا لأن يكون السقف بهذا الشكل والغالب أنه كان مسطحا وبالتصور الذي سبق عرضه.

المئذنة:

يوجد بالمسجد أساس مئذنتين احداهما أصلية وهي التي تقع في الركن الشمالي الشرقي بارزة عن سمت جداري المسجد الشمالي والشرقي، والثانية المضافة في فترة متأخرة ترجع إلى القرن ١٠هـ/١٦م وما بعد وهي التي أنشئت في الطرف الشمالي الشرقي من البلاطة الثالثة في رواق القبلة.

وترميم المئذنة الأصلية يحتاج إلى تصور الشكل العماري الذي كانت عليه، ونظرا لأنه لاتوجد مآذن باقية للمساجد المعاصرة لبناء هذا الجامع في منطقة ظفار أو في عمان كلها، فإن تصور الشكل المعماري لهذه المئذنة يمكن أن يكون في إطار دراسة المآذن اليمنية الباقية التي ترجع إلى نهاية

العصر الأيوبى والعصر الرسولى في اليمن، وهناك أمثلة عديدة منها مئذنتى جامع صنعاء(١٣). [انظر لوحة رقم٩].

ومئذنتا المدرسة الأشرفية في تعز (٨٠٠هـ/١٣٥٧م) [انظر لوحة١٠] (١٤)، ومئذنة مدرسة بوطويرق في الشحر (٩٥٩هـ/١٥٥٢م) (١٥) [لوحة١١] وهذه الأخيرة تشبه شكل محفور على هيئة مئذنتين في شاهدى قبر يرجعان إلى القرن ٨هـ/١٤م، عثر عليها في مقبرة الرباط هما شاهد قبر الملك الواثق (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) [لوحة١٢] وشاهد قبر محمد بن أبى بكر (ت٧١٤هـ) [لوحة١٣].

وفى ضوء هذه النماذج يمكن إعداد تصور للشكل المعمارى التى كانت عليه المئذنة الأصلية والمئذنة المضافة ايضا إذا رغب في إعادة ترميمها، حيث أنه ترميم المئذنة الأصلية بكامله هيئتها باعتبارها جزءا أصيلا من الجامع أمر حتمى، أما المئذنة المضافة فإنه يمكن الاحتفاظ فقط بأساساتها الباقية لتدلل على ما حدث من تعديل في المسجد ويكمل فوقها بناء السقف. كما كان أصل الشكل المعمارى للمسجد، وهذا هو الأفضل ويمكن أن يعاد ترميمها كاملة أيضا، وفى هذه الحالة تخترق السقف لتعطى تصورا لما كان عليه حال المسجد في مرحلته الثالثة، وترميم هذه المئذنة ترميما ليس بالأمر الحتمى بل انه يتعارض مع التوجه الصحيح نحو إزالة الإضافات المعمارية اللاحقة في المرحلة التالية من مراحل عمارة المسجد حيث أنها لا تتوافق والهدف الأصلى لمشروع الترميم التى يهدف إلى إعادة التصور الأصلى لعمارة المسجد.

وهنا تجب الإشارة إلى أن بعض مدارس الترميم ذات التوجه الأثرى تحاول أن تحافظ على إضافات كل مرحلة لأنه في ذلك ما يعكس تاريخ عمارة الأثر، ويبقى الأمر متروكا لمنفذى مشروع الترميم في إطار توجهات المدرسة الترميمية التى تتبع.

الصحن وتصريف مياه الأمطار:

من الملامح الأساسية للمسجد الجامع بظفار وفى المساجد بعمان بصفة عامة ارتفاع مستوى ارضيتها عن أرضية الشوارع المحيطة وبناء شرفات حول الحوائط الخارجية للمسجد بنفس الارتفاع، وهذه السمة بالاضافة إلى أنها ترتفع ببناء المسجد، فتبدو عمارته شامخة في السماء غير متطامنة فانها توفر نوعا من الحماية لجدران المسجد من مياه الأمطار التى تسقط بغزارة على هذه المنطقة فلا تدخل المياه المساجد ولا تؤثر على جدرانها، كذلك ساعد هذا الارتفاع على التخلص من مياه الأمطار التى تسقط على صحونها المكشوفة بصرفها نحو الطرقات المحيطة في حالة عدم وجود صهريج تحت مستوى أرضية الصحن لتجميع هذه المياه واستغلالها.

وقد أوضحت التنقيبات التى تمت في صحن المسجد عن عدم وجود أى صهاريج لتجميع مياه الأمطار، ويثير هذا الوضع تساؤلا مهما مرتبطا بكيفية صرف مياه الأمطار التى تسقط في صحن المسجد المكشوف الكبير الذى تبلغ مساحته ١٨٢م^2 مترا مربعا وتصريف مياه الأمطار الساقطة في صحن المسجد والتى تسقط بكمات كبيرة تهدد المسجد بالغرق إذا لم يكن هناك سبيل لتصريفها يتطلب ما يلى:

أولا : أن يكون مستوى أرضية صحن المسجد منخفض عن أرضية أروقة المسجد وهذا يسهل تصريف المياه الساقطة على الصحن المكشوف

إلى خارج المسجد دون أن تغرق هذه المياه الأروقة المحيطة به والمخصصة للصلاة وبخاصة في حالة غزارة سقوط الأمطار.

ثانيا : أن تكون هناك قنوات أو أنابيب فخارية تبدأ مآخذها من مستوى ينخفض من مستوى ارضية الصحن وتمر أسفل أرضيات الأروقة لتصل إلى خارج ساحة المسجد، وتصب مياهها سواء في الشوارع أو الطرقات المحيطة أو تجمع المياه في خزانات أو صهاريج ملحقة بالمسجد لتستغل استغلالا حسنا، وفى إطار هذا التفسير يفترض أن توجد مثل هذه القنوات أو الأنابيب أسفل أرضيات الأروقة الشمالى والجنوبى والشرقى، وهذا الأخير يبقى احتماله قائما في إطار تصريف المياه إلى صهاريج لامكان استغلالها كما أشرنا.

وهذا افتراض نظرى يجب أن يوضع في الاعتبار عند إجراء تنقيبات في ارضيات الأروقة، أو في منطقة الوضوء والاغتسال في الجانب الشرقى لاحتمال كشف أدلة دالة عليه أو نفيه في حالة عدم وجود أدلة فعندئذ يكون التوجه إلى افتراض تصور آخر، ويتمثل هذا التصور في افتراض وجود استطراقات بكل من الأروقة الشمالى والجنوبى والشرقى تصل بين المداخل المحورية في جدران هذه الأروقة وبين الصحن. وهذه الاستطراقات تكون بمستوى أرضية الصحن لتحديدها عن بقية مساحات الأروقة التى تمر بها وهى بالاضافة إلى أنها تحدد منطقة للمرور من الداخل إلى الصحن إلى رواق القبلة وبقية الأروقة التى تخترقها[16]. فإنه يمكن أن تكون وسيلة لتصريف مياه الأمطار الساقطة على الصحن يجعل ارضيتها تنحدر انحدارا خفيفا في اتجاه المدخل ليجرى عبرها الماء إلى خارج أبواب المسجد ومنه إلى الدرج الذى يوصل إلى مستوى أضية المسجد ثم إلى الشوارع المحيطة.

والتأكد من هذا الافتراض من الممكن أن تكون سهلا في حالة احتفاظ الأروقة الجانبية للمسجد بأرضياتها الأصلية، ويمكن من خلال التنقيب وتنظيف الأرضيات من الأتربة المتراكمة عليها العثور على أجزاء من الأرضية الأصلية للأروقة الجانبية في القطاع الذى تؤدى اليه المداخل المحورية في الجدران الشمالية والجنوبية والشرقية وفى هذا ما يساعد على تأكيد الاجابة القاطعة، ولكن في حالة عدم التمكن من التأكد من وجود هذه الاستطراقات فإن احتمال وجودها في حالة عدم وجود قنوات لتصريف مياه الأمطار بالشكل الذى سبق افتراضه يكون أكثر ترجيحا حيث تقوم هذه الاستطراقات بغرض تصريف المياه من الصحن، وعندئذ تنفذ بشكل منحدر في الاتجاه إلى خارج المسجد.

الوحدات المعمارية المرتبطة بالصلوات الجامعة:

المنبر:

يلاحظ وجود دخلة عميقة على يمين المصلى في المحراب، وهذه الدخلة رممت بأسلوب خاطئ كما يتضح من الأحجار التى وضعت في العضادة اليسرى المجاورة مباشرة للمحراب وهذه الدخلة فقدت ملامحها المعمارية الأساسية، ولكنها بدون شك كانت موضعا للمنبر، ويلاحظ وجود أثر لبناء جانبى المنبر ممتد أمام عضادتى هذه الدخلة بما يشير إلى أن المنبر الذى كان في هذا الموضع كان منبرا مبنيا في الغالب بالحجر مادة البناء الأساسية في المسجد، هذا المنبر بذلك يشبه العديد من المنابر المبنية التى انتشرت في المساجد العمانية كمسجد منح، وقد جرت العادة بأن تكون هذه المنابر من ثلاث درجات تنتهى إلى جلسة للخطيب بشكل بسيط تقارب شكل المنبر الخشبى لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أن المنبر بهذا الشكل لا يمتد إمتدادا كبيرا في مساحة رواق القبلة فلا يقطع التصف الأول من صفوف المصلين وهو أمر وجهت اليه أحكام الفقه الإسلامي.

ولم تنتشر في المساجد في الجزيرة العربية بعض الوحدات المعمارية أو الأثاث الديني التي نرى لها مثيلا في المساجد الجامعة في مصر وبعض البلاد الإسلامية الأخرى والتي تتمثل في دكة المؤذنين أو دكة المبلغ، والتي انتشرت في المساجد المملوكية والعثمانية في مصر[١٧].

كذلك لايوجد "كرسي جوامعي" يجلس عليه القارئ يوم الجمعة قبل الصلاة ليقرأ ما تيسر من القرآن بصوت مرتفع ويسمعه المصلون حيث المصلين في الجزيرة العربية درجوا على السنة الصحيحة في هذا الأمر فقد اعتادوا على أن يقرأ كل منهم ما يريد قراءته من القرآن منفردا بصوت منخفض، وما زال هذا التقليد ساريا في معظم بلاد شبه الجزيرة العربية إلى الآن، ومنها منطقة ظفار، ويتطلب ذلك فقط رفوف لوضع المصاحف، وتوجد بعض المساجد التقليدية في منطقة نجد رفوف مبنية مع الأعمدة في القطاع العلوي من العمود، وكذلك في نفس المستوى بجدار القبلة لوضع المصاحف، ولعل مسجد سدوس من المساجد التي تتضح فيها هذه السمة[١٨].

ولكن أعمدة مسجد ظفار لاتشتمل على مثل هذه الرفوف ومن ثم فإن احتمال وضع المصاحف كان في دخلات بحوائط المساجد بها رفوف خشبية، أو أنه كانت بها صناديق خشبية لوضع أجزاء المصاحف.

القاعة المضافة شرق رواق القبلة:

تبقى الإشارة إلى القاعة التى اقتطعت من رواق القبلة في المرحلة الثالثة من مراحل عمارة المسجد، وهذه القاعة بهذا الشكل تذكرنا بما عرف في المساجد المصرية "بقاعة الخطابة" والتى انتشر وجودها في المساجد المملوكية على وجه الخصوص وهى قاعة يستعد فيها الخطيب للخطبة وتتضمن بعض المخطوطات كالكتب الدينية التى يستعين بها الخطيب توجد عادة خلف جدار القبلة أو في الجهة التى على يمين المصلى بالمحراب قريبا من جدران القبلة حيث يخرج الخطيب منها إلى المنبر من أقرب نقطة ولا يتخطى رقاب المصلين والقاعة المذكورة في المسجد الجامع لظفار والتى اضيفت في المرحلة الأخيرة من عمارة هذا المسجد تشغل أحد الموضعين المعتادين لبناء قاعة الخطابة فهل كانت هذه القاعة المضافة قاعة للخطابة؟ أم أنها كانت خزانة للكتب والمصاحف؟ حيث جرت العادة على الحاق خزانة مماثلة في بعض المساجد الجامعة (؟).

وسواء أكانت هذه القاعة لهذه الوظيفة أو تلك فإن الابقاء على أساسات هذه القاعة ضمن مشروع ترميم المسجد وعدم ازالتها مهم من الناحية التاريخية والأثرية، ويمكن أن توثق وتزال باعتبارها اضافة متاخرة ويؤثر ابقاؤها على الشكل الأصل لعمارة المسجد في مرحلته الأولى والتى خلت من وجود مثل هذه القاعة التى لم تجد لها أمثلة معاصرة في المساجد في منطقة ظفار أو اليمن أو غيرها من المساجد في الجزيرة العربية.

مساجد الفروض:

جرت العادة فى تخطيط المدن الإسلامية أن تشتمل المدينة بالإضافة إلى المسجد الجامع على مساجد أخرى صغيرة تخدم المناطق السكنية أو

"الأحياء السكنية"[١٩] أو الحارات، وهذه المساجد تسمى "مساجد الفروض"[٢٠] كما هو المسمى المستخدم فى منطقة ظفار أو "مساحة الخمسة" أى المساجد التى تقام فيها الصلوات الخمس أو "المساجد فقط"[٢١].

وقد اشتهرت مدينة ظفار بكثرة مساجدها ولاحظ الرحالة الذين زاروا المدينة هذه الظاهرة – كما أشرنا– وقد بقي في داخل أسوار البليد ثلاثة مساجد بالإضافة إلى المسجد الجامع الذى سبقت الإشارة إليه كما أنشئ فى المنطقة الأثرية التى تقع إلى الغرب مباشرة من السور الغربى مسجد رابع صغير استمرارا لهذه الظاهرة، كذلك توجد بقايا العديد من المساجد فى منطقة الرباط خارج أسوار المدينة وقد اشرنا إلى بعض أمثلتها فى المنطقة المجاورة للأستاد الرياضى الذى أنشئ على قطاع من هذه المنطقة.

وسنعرض للملامح المعمارية الواضحة من أطلال هذه المساجد مع دراسة تفصيلية لواحد منها وهو "المسجد المسمى بالمسجد الجنائزى" مازالت بعض عناصره باقية بصورة كافية كما أن منطقة الاغتسال الخاصة به قد أجريت بها تنقيبات أفصحت عن بعض ملامحها المعمارية. وفى ضوء ما تبقى وما كشف عنه يمكن أن نعطى تصورا واضحا لعمارة مساجد الفروض.

أولا : الملامح المعمارية لمساجد الفروض بمدينة ظفار:

١- يلاحظ أن مساحة ارض المسجد تميل إلى الشكل المربع [شكل رقم ١٤، وشكل رقم١٥]، أو أنها مستطيلة والضلع الأقصر يوازى اتجاه القبلة، [شكل رقم١٦]، والمسجد خارج السور الغربى لمدينة ظفار ومسجد الرباط. وتختلف المساحة من مسجد إلى آخر.

٢- اعتمد فى تغطية هذه المساجد على صفوف من الأعمدة غالبا كانت تعلوها عقود موازية لجدار القبلة وتلحظ ذلك فى المسجد المسمى بالمسجد الجنائزى وفى المسجد خارج السور الغربى المدينة السور وفى مسجد الرباط وهى المساجد التى تسمح بقاياها بتحديد اتجاه البائكات وبالمثل كان المسجد الجامع كما سبق أن أشرنا.

٣- استخدام مادة الحجر غير المروم فى بناء المساجد وتبنى المداميك بهذه الكتل غير المرومةويسوى سطحها العلوى بقطع صغيرة من الحجارة تساعد على تمهيد المستوى للمدماك التالى. وهكذا انتظمت عملية البناء فى مداميك منتظمة بالرغم من أن كتل الحجارة غير مرومة، كما يساعد هذا الأسلوب على توزيع الثقل على الجدار بصورة منتظمة.

٤- يلاحظ كبر مساحة منطقة الاغتسال بالنسبة لمساحة المسجد وهذا مرتبط فى الغالب بظاهرة كثرة المطاهر بالساجد الظفارية والتى أشار إليها الرحالة وأكدتها – كما ذكرنا– البقايا والتنقيبات الأثرية.

٥- يلاحظ أن منطقة الاغتسال تقع فى الجهة المقابلة للقبلة فإذا اعتبرنا أن قبله المساجد الظفار فى اتجاه الشمال الغربى فإن الميضأت تقع فى الجهة الجنوبية الشرقية. ولم يعثر على مثال واحد يخالف ذلك فيما تبقى من نماذج.

٦- تشتمل منطقة الاغتسال فى الغالب على بئر للتزود بالماء وأحواض مجاورة له بالإضافة إلى المطاهر وبيوت الخلاء ومواضع الوضوء إن كانت هذه العناصر الثلاثة الأخيرة لم يتم تحديد معالمها بعد.

المسجد المسمى خطأ بالمسجد الجنائزي:

أطلق كوستا هذه التسمية على المسجد الذي يشغل الموضع إحداثي ٧٠٠ شرقا ، ٢٢٥شمالا على الخريطة الموضحة للمدينة [شكل رقم٨][٢٢]. ونظراً لشيوع هذه التسمية فقد أطلقت البعثة الألمانية لجامعة أخن في وثائقها هذه التسمية أيضا ومن ثم أطلقت هذه التسمية أيضا على موقع هذا المسجد الذي بدأت فيه جامعة السلطان قابوس حفرياتها في الموسم الأول سنة ١٩٩٦.

ورغبة في تصحيح هذه التسمية وتوضيح علاقة المساجد بالمقابر في العمارة الإسلامية بصفة عامة وفي منطقة ظفار على وجه الخصوص لوضع التسمية الصحيحة نرى أنه من الأهمية بمكان بحث هذه العلاقة وتوضيح صحيح التسمية التي يجب أن تسمى بها هذه النوعية من المنشآت الدينية الاسلامية، وتسمية هذا المسجد موضع الدراسة في إطار تاريخ عمارته الصحيح.

علاقة المساجد بالمقابر:

صلاة الجنازة في الإسلام فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وصلاة الجنازة تخلو من الركوع والسجود ويؤديها المسلمون وهم واقفون ويعني ذلك أن صلاة الجنازة يمكن أن تقام في مساحة صغيرة نسبيا، كما يمكن أن تكون هذه المساحة أرض فضاء حيث لاتستغرق الصلاة سوى بضع دقائق، فلا يحتاج المصلون إلى سقف أو حوائط لحمايتهم من العوامل الجوية المؤثرة كالشمس والرياح والبرد والمطر وغيرها.

وتشتمل مصادر الفقه الإسلامي على كثير من الإشارات والأحكام المتصلة بالجنازة والصلاة عليها، ومن هذه الاشارات الدالة على وجود مصلى خاص بالجنائز ما ورد من "أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وإمرأة زانية، فأمر برجمهما قريبا من موضع الجنائز عند المسجد"[٢٣]. ويشير هذا النص إلى أن هناك موضعا خاصا بصلاة الجنائز قرب المسجد، وهو الموضع الذي حددته رواية أخرى أثرت إلى "أن مصلى الجنائز كان لاصقا بمسجد النبي ﷺ من ناحية جهة المشرق"[٢٤]. وفي رواية أخرى ذكر أن "المصلى الذي كان يصلى عنده العيد والجنائز هو من ناحية بقيع الفرقد"[٢٥] وهي المصلى التي صلى فيها الرسول ﷺ على النجاشي.

وفي ضوء ما سبق يتضح أنه في عهد رسول الله ﷺ كانت صلاة الجنازة تقام في "المصلى" و"المصلى" كلمة تكاد تكون خاصة بالمكان الذي تقام فيه الصلوات جماعة في مناسبات معينة مثل صلاة العيدين وصلاة الجنازة وصلاة الاستسقاء وصلاة الشكر. والمصلى عبارة عن رحبة من الأرض الفضاء التي لاحدود بنائية لها تحصرها ولا سقف يغطيها وتكون عادة في ظاهر المدن الآهلة حيث لاتوجد بيوت[٢٦]. وقد أثر عن النبي ﷺ من أدائه لصلوات الأعياد والجنائز والاستسقاء منذ مقدمه المدينة المنورة في مكان معين في العقيق وأن المصلى قد خصص لهذه الصلوات لما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى يستسقي فبدأ الخطبة ثم صلى وكبر واحدة افتتح بها الصلاة وقال: هذا مجمعنا ومستمطرنا ومدعانا لعيدنا وفطرنا وأضحانا، فلا يبنى فيه لبنة على لبنة"[٢٧].

وفي ضوء ما سبق يتضح أن صلاة الجنازة كانت تصلى في مصلى كانت تصلى فيها صلوات العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف والشكر.

وغالبا ما كانت تنشأ هذه المصليات خارج المدن وبعضها كان قريبا من المقابر أو فى الطريق إليها ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مصلى العيد فى القاهرة التى كانت خارج باب النصر قريبة جدا من مقابر النصر. وقد ذكر القريزى فى خططه أن هذا المصلى خصص بعض جوانبه لاقامة صلاة الجنازة على الأموات"[٢٨]. واذا كانت مقابر باب النصر بالقاهرة قد خصص جزء من المصلى المجاور لها لاقامة صلاة الجنازة على الأموات الذين يدفنون بها، فإن القرافة الكبرى للمقبرة الرئيسية لعواصم مصر الإسلامية [الفسطاط العسكر والقطائع والقاهرة] اشتملت على العديد من المصليات التى أنشئت لتفى بغرض صلاة الجنازة والصلوات الأخرى باعتبار عمران هذه القرافة طوال فترات التاريخ الإسلامية وحتى الآن[٢٩].

وهنا تجب الإشارة إلى أن إنشاء مصلى للعيد فى كثير من البلاد القديمة فى سلطنة عمان كان قريبا من موضع المقابر الخاصة بهذه البلاد، ومثل ذلك نراه أيضا فى مصر ولعل مصلى العيد بأسوان خير شاهد على ذلك حيث تقع مجاورة لجبانة أسوان الاسلامية.

ومن طريف ما يذكر فى اطار المصلى بالجنائز ما أشار إليه أحد الباحثين من أن "المشاكلة" بين كلمتى: "المصلى" العربية "وموزلية" Mousiee الفرنسية تكاد تكون تامة وأن الأصل هو الكلمة العربية، وقد نحتها الفرنسيون عندما رأوا فى بلاد الشام التى استولوا عليها خلال الحروب الصليبية بعض الأمكنة التى دفن فى تربتها أعيان المسلمين وأمراؤهم وعلماؤهم وكانت تلك المقابر تستعمل فى ذات الوقت مساجد صغيرة لأداء الصلاة اليومية وكان يسمعون الناس يطلقون على هذه المساجد الصغيرة

المصلى فنطقوا هذه الكلمة على لسانهم وجعلوها دالة على المقبرة فى لغتهم"[٣٠].

وإذا كانت المصليات خارج المدن الإسلامية والخاصة بصلاة العيد تبنى مجاورة للمقابر وتستخدم أيضا للصلاة على الجنازة، فإن المساجد والمساجد الجامعة فى داخل المدن كانت وما زال تستخدم فى الصلاة على الأموات[٣١]. بجانب وظيفتها الأصلية لصلاة الفروض والصلوات الجامعة.

وتشير الروايات التاريخية إلى ما يؤكد ذلك فقد ذكر أنه "لما توفى سعد بن أبى وقاص أرسل أزواج النبى ﷺ أن يمروا بجنازته فى المسجد فيصلين عليه ففعلوا، فوقف به على حجرهن يصلين عليه، أخرج به من باب الجنائز الذى كان إلى المقاعد، فبلغهن أن الناس عابوا ذلك وقالوا "هذه بدعة"، ما كانت الجنائز يدخل بها إلى المسجد! فبلغ ذلك عائشة، فقالت: ما أسرع الناس إلا أني عيبوا مالا علم لهم به، عابوا علينا أن يمر بجنازة فى المسجد [والله] ما صلى رسول الله ﷺ على سهيل بن بيضاء وأخيه إلا فى جوف المسجد"[٣٢]. وهذه الرواية بالإضافة إلى أن تشير إلى صلاة الرسول ﷺ على الجنازة فى المسجد، فإنها تشير أيضا إلى أن أحد أبواب مسجد رسول الله كان يسمى "باب الجنائز" لاستخدامه فى هذا الغرض وهو ما يعد دليلا آخر على أداء صلاة الجنازة فى المسجد.

وهنا تجب الإشارة إلى أن بعض المذاهب الدينية الإسلامية لاتحبذ الصلاة على الجنازة فى مساجد الفروض أو بالمساجد الجامعة داخل المدن وبلاد المغرب العربى تميل إلى هذا الاتجاه. ونجد صدى ذلك فى المساجد الأثرية الباقية كجامع القرويين فى فاس، حيث أنشئت خلف جدران

القبلة مصلى خاصة للصلاة على الأموات[٣٣] وتكررت هذه الظاهرة منشآت دينية أخرى. وتماثل هذه السمة ما كان عليه الحال فى عهد رسول الله ﷺ حيث أنشئت مصلى الجنازة ملاصقة لمسجده من جهة الشرق[٣٤].

ويبدو أن الفاطميين فى مصر قد اتجهوا نفس الاتجاه حيث كان يصلى على الأموات أحياناً فى الرحبة التى خارج مسجد الحاكم من الجهة الغربية. ويبدو أن السقيفة التى تتقدم المدخل الغربى لمسجد الصالح طلائع بالقاهرة (٥٥٥هـ/١١٤٠م) كانت تستخدم فى غرض الصلاة على الجنازة، ويرجح هذا التفسير وضع هذه السقيفة فى هذا الجانب وعلى محور القبلة، أمام المدخل الغربى للمسجد وعدم وضعها أمام أى من الواجهتين الشمالية والجنوبية، ويرجح ذلك أيضاً وقوع هذا المسجد على الطريق المؤدى إلى المقابر المجاورة للقاهرة من الجهة الجنوبية مباشرة.

وفى العصر الفاطمى أيضاً أنشئت مساجد الحقت ببعض الأضرحة الفاطمية التى أنشأها الفاطميون على رفاة من دفن بالقاهرة من آل البيت بالقرافة كأضرحة السية رقية والسيدة نفيسة وكلثم وغيرها[٣٥]. وقد حدث ذلك بالرغم من أن المصادر الفقهية تشير إلى أن النبى ﷺ نهى أن يصلى على الجنائز بين القبور وكان يكره أن يبنى مسجد بين القبور[٣٦] وكانت هذه الأضرحة الملحقة بالمساجد أو العكس بداية لالحاق الأضرحة بالمدارس والمساجد والخنقاوات والزوايا. وهو تقليد درج عليه رجال الحكم فى زمن الأيوبيين والمماليك حيث كانوا يحفظون قبورهم داخل هذه المنشآت كى يجعلوها فى مأمن من أن تتعرض للنبش والانتقام بأيدى من يأتون بعدهم من خصومهم السياسيين.

وتطورت هذه الظاهرة تطوراً ملحوظاً فى عهد المماليك الجراكسة الذين أنشأوا مجموعات معمارية ضخمة اهتموا بإنشاء الأحواش والقباب والأضرحة بها إهتماماً خاصاً بل أنهم أنشأوا وحدات سكنية خاصة متكاملة المرافق للزوار الذين كانوا يأتون بزيارة موتاهم المدفونين فى الأحواش والأضرحة بهذه المجموعات ويقيمون فترة من الزمن بفضل ما توفر لديهم من أساليب الاقامة المريحة فيها، ولعل مجموعة السلطان برسباى والسلطان إينال والأمير كبير قرقماس بمنطقة الدّراسة من أروع الأمثلة على ذلك[٣٧].

وقد ألحقت بهذه المجموعات أيضاً "مساجد" صغيرة كانت تسمى "معابد" يختلى فيها بعض المتعبدين للعبادة وتضم مجموعة السلطان برسباى أكثر من مثال لذلك[٣٨]. وتذكرنا هذه التسمية لهذه المساجد بتسمية بعض المساجد الصغيرة التى أنشئت بالمقابر ببعض المدن العمانية الكبيرة كنزوى وبهلا والتى أطلق عليها نفس المسمى "معابد". كذلك جرت العادة بالحاق مسجد كبير نسبياً بهذه المقابر مزود بمرافق لتغسيل الموتى وتكفينهم[٣٩]، وكان يصلى على الموتى فى هذه المساجد قبل مواراتهم التراب.

وفى إطار ما سبق يتضح ارتباط بعض المصليات والمساجد التى تنشأ بجوار المغاسل لأداء هذه الوظيفة. وقد انتشرت هذه الظاهرة فى منطقة ظفار. وتعكس بعض المساجد الحالية التى تنشأ مجاورة للمقابر هذه الظاهرة. وهذه المساجد تشتمل غالباً على حجرتين أحدهما لتغسيل الميت والأخرى لتكفينه وإعداده للدفن مباشرة بعد الصلاة عليه فى ساحة الصلاة بالمسجد. ومن المظاهر التقليدية المتبعة أيضاً فى منطقة ظفار هو الحاق مبنى فى هيئة مسجد تلجأ إليه النساء عند وصولهن للمقابر لتشييع جنازة الميت حتى يكن بمعزل عن الرجال الذين يشيعون بدورهم الميت ويتولون الصلاة عليه فى

الأرض الفضاء المجاورة للمقابر ثم يدفنونه، ومثال هذا المبنى ما نراه فى مقبرة مرباط

ويبدو أن تسمية المسجد الذى يقع تقريباً فى وسط مدينة ظفار [البليد] والذى تحيط به المقابر [احداثى ٧٠٠ شرقاً، / ٢٢٥ شمالاً تقريبا] بالمسجد الجنائزى والتى أطلقها كوستا عليه(٤٠) كانت فى إطار هاتين الوظيفتين اللتين مازالت تؤديهما المساجد الملحقة بالمقابر فى منطقة ظفار. كما أنها تأتى فى إطار القياس بما هو قائم فى الحضارات القديمة بما يعرف "بالمعابد الجنائزية". ولكن هذه التسمية لم ترد ابداً بين مصطلحات العمارة الإسلامية المتصلة بصلاة الجنازة أو الدفن. وربما كان ذلك فى إطار أحكام الفقه الإسلامى التى تشير إلى أن المكان البعيد المخصص لصلاة الجنازة وكذلك المتخذ لصلاة العيد ليس بمسجد ولا يعطى حكم المسجد(٤١).

وإذا كان بعض المساجد تتم فيها عملية تغسيل الميت وتكفينه ثم الصلاة عليه فإن هذه الوظائف تأتى مضافة إلى وظيفة المسجد الرئيسية وهى إقامة الصلوات المفروضات ولا تؤثر هذه الوظائف المضافة على تسمية المنشأة وكونها "مسجداً" عادياً.

والفحص المبدئى للمقبرة والمسجد -موضوع البحث- يكشف من أن الاحتمال الراجح هو أن المقبرة نشأت لاحقة على فترة بناء المسجد، ومن الشواهد الدالة على ذلك أن مستوى أرضية المقبرة التى تحيط بالمسجد من جهاته الشمالية والغربية والجنوبية أكثر ارتفاعاً من مستوى أرضية المسجد، كما أن عمليات الدفن فى هذه المقبرة قد زحفت دون أى ضوابط فى الجهتين الغربية والجنوبية والدليل على ذلك تلك القبور التى وجدت مبعثرة خارج المنطقة المسورة وهى قبور معاصرة فى الغالب للقبور التى داخل أسوار

المقبرة وبناء على ذلك فلا يتصور أن تكون هذه المقبرة أصيلة وترجع إلى عهد إنشاء المسجد، كما أن إنشاء مقبرة بوسط المدينة مطلة على بعض طرقها الرئيسية التى تصل بين بواباتها والقصر فى الجهة الغربية- كما هو حال هذه المقبرة- لم يكن له مثيل فى المدن الإسلامية المعاصرة لانشاء مدينة ظفار حيث جرت العادة فى هذه الفترة بإنشاء مقابر المدينة خارج منطقتها السكنية(٤٢).

ولم تشر المصادر التى تحدثت عن مدينة ظفار إلى وجود مقابر بداخلها كما أن الشواهد الأثرية فى مقبرة الرباط تشير إلى أنها كانت موضع الدفن لأهل مدينة ظفار ولفترات طويلة نسبياً. والراجح أن استخدام هذه المنطقة فى وسط مدينة ظفار [البليد] للدفن جاء فى مرحلة متأخرة نسبياً، وتدلل على ذلك شكل وكتابات شواهد القبور وأسماء المقبورين فى هذه الفترة(٤٣) والتى يمكن بصفة مبدائية ارجاعها إلى القرن الحادى عشر الهجرى[الثامن عشر الميلادى] وهى الفترة التى آلت فيها المدينة إلى التداعى والخراب.

الوصف المعمارى للمسجد

مخطط المسجد واضح المعالم [انظر شكل رقم٨، ١٧] ويشغل مساحة كلية من الأرض تبلغ حوالى ٣١١ متراً مربعاً، وهذه المساحة تشتمل على بيت الصلاة الذى تبلغ مساحته ١٦٨ متراً مربعاً بينما تشغل منطقة الاغتسال - فى ضوء الكشف عنها حوالى ١٤٣ متراً مربعاً.

مخطط المسجد رغم الحالة السيئة من التهدم التى وصل إليها، واضح المعالم وهو مبنى بالحجر وترتفع بعض أجزاء من جدرانه الخارجية إلى

مستوى ٢ متر عن مستوى الأرض الحالية، ويتوصل إلى داخل بيت الصلاة من مدخل فى وسط الواجهة الشرقية يربط بين بيت الصلاة ومنطقة الاغتسال والوضوء وتبدو معالم مدخل آخر فى الواجهة الجنوبية، كذلك توجد معالم بعض النوافذ، حيث توجد بالجدار الشرقى نافذتان تكتنفان المدخل الشرقى سدتا فى مرحلة لاحقة، أما بقية النوافذ فلا يمكن تحديدها فى إطار الوضع الحالى للمسجد بعد تهدم الأجزاء العليا من جدرانه. كذلك فإن المسجد فى الغالب كان له مداخل أخرى فى كل من الجدارين الشمالى والجنوبى ربما يكشف عنه عند إجراء الحفريات مستقبلاً فى منطقة بيت الصلاة.

وتخطيط المسجد فى الداخل عبارة عن أربع بلاطات موازية لجدار القبلة بواسطة ثلاث صفوف من الأعمدة يكمل صف عموذان بالإضافة إلى كتف مدمج بارز عن مبمت كل من الجدارين الشمالى والجنوبى على نفس محور العمودين، ولم يتبق من هذه الأعمدة إلا عموداً واحداً هو العمود الشمالى من الصف الشرقى، كما يوجد تاج عمود آخر من عمودى الصف الثانى ويصعب حالياً تمييز أرضية المسجد الأصلية بسبب طبقة الرديم التى تعلوها والنباتات التى نمت فيها.

ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف [لوحة رقم١٤] تجويفاً نصف مستدير يكتنفه من الجانبين زخرفة بنائية عبارة عن قناة Groove بشكل قائم الزاوية منفذة بنائياً مع بناء حنية المحراب عن طريق نحت البلاطات الحجرية المستخدمة فى هذا الموضع مع بناء المحراب بكل زاوية قائمة والمحراب كله مبنى ببلاطات حجرية منحوته نحتاً متقناً، ومعده لانشاء حنية المحراب بشكلها الحالى وهو ما يكشف عن مستوى متقدم فى تشكيل الحجر بهيئة معينة لبناء عناصر معمارية بشكل مميز.

ويكتنف المحراب دخلتان على نفس محور النافذتين بالجدار الشرقى بما يكشف عن تمسك مخطط المسجد بتحقيق مبدأ السمترية فى التخطيط.

وتقع منطقة الاغتسال والوضوء شرق المدخل الذى بالجدار الشرقى مباشرة، وهذه المنطقة كانت مليئة بالرديم الذى يعلوه غطاء نباتى، وقد بدأت جامعة السلطان قابوس [قسم الآثار] التنقيبات فى هذا الموقع فى موسم سنة ١٩٩٦م. وقد كشفت هذه التنقيبات عن معظم المعالم الباقية بين منطقة الوضوء والاغتسال، وأهم العناصر المعمارية التى كشف عنها بئران مطويان بالحجر مربعى المسقط [شكل ٨ ، ولوحة رقم ١٥] تم تنظيف الجزء العلوى من كل منهما ولاشك أن استكمال أعمال التنقيب فى الموقع تساعد على معرفة المزيد من ملامحهما المعمارية وكشف ما لعله يوجد بهما من معثورات ولقى أثرية تفيد فى التعرف أكثر على طبيعة الموقع ومراحله التاريخية، وكشف أيضاً بجوار البئر الجنوبى من الجهة الشرقية على أرضية حوض للماء مملطة بملاط الخافقى ناعم الملمس دقيق المسام والذى يكشف عن خبرة متقدمة فى إنشاء أحواض الماء المملطة بالخافقى، ويقع إلى الجنوب من البئر ملاصقاً للجدار الجنوبى له أرضية أخرى مملطة بملاط أحمر عبارة عن ارضية لوحدات يستخدم فيها الماء "كالطهر"، ولكن المعالم البنائية للجدران التى تخدم هذه الأرضية قد فقدت للأسف الشديد، ولكن يلاحظ أن هذه الأرضية تشكل حتى الآن أقدم المراحل فى العناصر المعمارية المكتشفة فى منطقة الوضوء والاغتسال المرتبطة بهذا البئر حيث أن مستوى الأرضية والجدران التى تنتمى إليها يعلوها العناصر المعمارية الأخرى المجاورة ممثلة فى الجدار الذى أنشئ بمحاذاة الجدارين الغربى والجنوبى من جدران البئر[٤٤].

كذلك كشف عن قطاع من ارضية حوض للماء فى الجهة الشرقية من البئر الشمالى، وتتصل هذه الأرضية بقناه للماء تنحدر فى اتجاه الجنوب أسفل أرضية الحوض الذى يقع إلى الشرق من البئر الجنوبى وفى ذلك ما يشير إلى أن هذه القناه أقدم من هذا الحوض. وهذه القناة مملطة بملاط الخافقى بلون أحمر وعلى مقربة من هذه القناة وفى مستوى أكثر انخفاضاً كشف عن قناة فى اتجاه غرب شرق تنحدر فى اتجاه الشرق.

كذلك كشف عن قناة أخرى مملطة بملاط أحمر تنحدر فى اتجاه الجنوب، وتكشف الدراسة المبدئية لاتجاهات انحدار هه القنوات عن أنها كانت ضمن شبكة من القنوات لنقل الماء، فقدت كثيراً من عناصرها، حتى أنه يصعب وضع تصور كامل لطريقة عملها، كذلك كشف عن بقايا قناة أخرى ولكنها ليست بنفس الأسلوب المعمارى المستخدم فى القنوات سابقة الوصف حيث أن ملاطها ومقاييسها تختلف وهذه القناة تمر فى اتجاه الشمال.

وبالاضافة إلى ما سبق كشف عن جدران بعضها يمتد فى اتجاه شمال جنوب وبعضها يمتد فى اتجاه شرق غرب وتكشف دراسة هذه الجدران والقنوات والأحواض والبئرين عن ثلاث مراحل يمكن تحديدها من خلال هذه العناصر، لكن كل مرحلة منها يمثلها بعض العناصر غير المكتملة وغير المتصلة مما يصعب معه حتى الآن تحديد الصورة المتكاملة لعناصر ووحدات منطقة الاغتسال والوضوء ويبقى فقط أن نتصور فى ضوء هذه العناصر أن هذه المنطقة كانت تضم أحواضاً كبيرة تملأ بالماء للاغتسال والوضوء، كما كانت تربط بين وحدات المنطقة شبكة لتوصيل المياه وأخرى لصرفها. كما يتضح أيضاً وجود وحدتين معماريتين أخريين من المساحة المحصورة بين المسجد والبئر فى هيئة حجرتين وربما كانت هاتين

الحجرتين بمثابة نزل للضيوف حيث وجد فى بعض المساجد فى المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية مثل هذه الحجرات التى كانت تستخدم كمقر لاقامة المسافرين المارين بالمنطقة تسمى المنزالة[٤٥].

كذلك يتضح أن منطقة الاغتسال والوضوء تشغل مساحة تعادل تقريباً ٤٦% من مساحة المسجد وهو ما يكشف عن الإهتمام بتزويد المسجد بمرافق الوضوء والمطاهر المتعددة والتى أشار إليها الرحالة العرب والصينيون.

وفى الجهة الشمالية الشرقية من بيت الصلاة عثر على اربعة افران للطهى، وأجزاء من أحواض ماء منحوته فى الحجر وكثير من قطع الفخار المحلى تمثل قدوراً للطهى وأوانى للشرب، ولا نستطيع حالياً الربط بين هذه المعثورات والعناصر المعمارية وبين عمارة المسجد وربما يكشف مستقبلاً بعد حفر المنطقة بين منطقة الاغتسال والوضوء وبين موقع هذه الأفران عن وجود علاقة أو العكس.

ويحيط بالمسجد من الجهات الغربية والشمالية والجنوبية مقبرة لها جدران خارجية يحيط بها وتحدد معالمها [انظر شكل رقم٨] ولكن يلاحظ أن هناك قبوراً خارج السور الجنوبى، كذلك يلاحظ أن مستوى هذه المقابر يرتفع عن مستوى الأرضية الأصلية للمسجد وتحتفظ هذه المقابر ببعض شواهد القبور التى يتضمن بعضها نقوشاً كتابية مشابهة للنقوش الكتابية على الشواهد التى فى مقابر صلالة الأثرية والتى ترجع إلى القرنين ١١/١٢هـ ١٧/١٨م، وكل هذه الشواهد تؤكد أن استخدام هذه المنطقة المحيطة بالمسجد كمقابر كان فى وقت متأخر جداً عن تاريخ انشاء المدينة وإزدهارها بل إنه

يمكن الترجيح بأن استخدام هذا الموقع للدفن كـــان بعـد خــراب المدينـــة وانحدارها وهجرانها ويدلل على ذلك أيضاً انتشار المقابر أيضاً خارج السور الجنوبى. وفى إطار هذه الأدلة وكذلك فى إطار الأسلوب العام لتخطيط المدن الإسلامية فى العصور الوسطى ووجود مقبرة ظفار فى منطقة الرباط يتضح أن هذه المقبرة نشأت بعد أن آلت ظفار إلى الخراب والتدمير.

وهكذا يتضح أن الربط بين هذه المقبرة المحيطة بالمسجد وبين عمارة المسجد نفسه أمر يجانبه الصواب فلم ينشأ المسجد ليستخدم فى تجهيز الموتى للدفن والصلاة عليهم ولكنه كان مسجداً عادياً من مســاجد الفــروض التــى انتشرت فى ظفار وربما استخدم بعد هجر المدينة فى الغرض المذكور وإن كانت الأدلة على ذلك تكاد تكون معدومة.

الدراسة المعمارية التحليلية للمسجد والمقبرة

فقد المسجد كثيراً من عناصره المعمارية، وبــالرغم مــن ذلــك فــإن التصور المعمارى لعمارة هذا المسجد بصورة متكاملة يمكن استيضاحه فــى ضوء العناصر الباقية.

يتضح من دراسة العناصر الانشائية الباقية سواء الجدران الخارجيـــة للمسجد أو الأعمدة أن المسجد كان سقفه يرتكز على هذه الجدران والأعمدة وأن الأعمدة كان يعلوها عقوداً ترتفع بمستوى سقف المسجد إلى المســـتوى التقليـدى للمساجد التى أنشئت فى العصور الوسطى والتـــى ترتفــع إلــى مستوى لايقل من خمسة أمتار وتوجد بقايا لقطع حجريـــة تشبــه "الطبـان" وأخرى استخدمت كصنج لبناء العقود. ترجح هذا الافتراض كما أن ســـمك الجدران والأكتاف المدمجة بها تدلل هى الأخرى على بناء عقود ترتكز على هذه الأكتاف وتتحمل رفسها هذه الجدران؛ كما أن الدراسة المقارنة بين هذا

المسجد ومسجد الرباط الذى استخدم فيه عقوداً فوق الأعمدة القصيرة لرفــع السقف تعتبر قرينة أخرى ترجح هذا الافتراض.

وفى ضوء ما سبق يجب عند إجراء تنقيبات فى داخل بيت الصلاة أن يتم بحرص جمع الأحجار المرومة التى كانت تمثل أجزاء من البنـــاء فــوق مستوى الأعمدة للاستفادة منها فى ترميم المسجد واعادته إلى الشكل الأصلى الذى كان عليه.

كذلك فإن أبواب المسجد لا يتضح منها سوى الباب الشرقـــى المقــابل للمحراب ويفترض أن يكون بكل من الجدارين الشمالى والجنوبـــى ابوابــاً أخرى ربما يكشف عنها عند اتمام التنقيبات فى بيت الصلاة والكشف عـــن هذه الأبواب من الأهمية بمكان حيث أنه من الممكن جداً بأن يحدد الطرقات التى يطل عليها المسجد وعلاقة المسجد بما يجاوره سواء كانت طرقات كما ذكرنا أو عناصر معمارية أخرى تتحدد وظيفتها فى ضوء ما يكشف عنه.

وفى ضوء تحديد ما كان يحد المسجد من منشآت أو طرق يمكن أيضاً وضع التصور للنوافذ التى كانت بجدرانه.

وإذا كانت المقبرة كما اشرنا نشأت فى مرحلة متأخرة ترجع إلى القرن (١١-١٢هـ/١٧-١٨م] فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو ما هـــى نوعيـــة المنشآت التى كانت فى هذا الموضع قبل استخدامه كمقبرة؟ والإجابة علـــى هذا التساؤل تبقى رهينة الكشف عن الطبقات السفلى فى هذا الموضـــع - إذا كان ذلك ممكناً- وهنا يجب أن يضع المنقبون فى إعتبارهم إجابة التســـاؤل التى سبق طرحه عند دراسة المسجد الجامع وهو هل كان هناك مسجد جامع فى وسط المدينة- أى فى موضع هذه المقبرة- قبل انشاء المســـجد الجـــامع

المذكور وأعيد بناء هذا المسجد على مساحة منه بعد انشاء المسجد الجـامع الحالى وبقيت بقية المساحة موقوفة عليه لايصلح بناء غير المسجد عليها(؟) أم أن هذه المساحة كانت تضم منشآت أخرى(؟).

إن هذه التساؤلات تساعد بلاشك على معرفة المزيد عن تاريخ عمـارة المسجد وتاريخ عمارة المدينة ككل، وإلى أن يتم الكشف عن المسـجد فـإن تاريخ إنشائه فى ضوء مقارنته بالمسجد الجامع ومسجد الربـاط يتضـح أن عمارته كانت فى حدود القرن ٧-٨هـ/ ١٣-١٤م للتشابه القائم بين أسلوب البناء فى هذا المسجد واسلوب البناء فى المسجد الجـامع ومسـجد الربـاط وكذلك التشابه فى شكل الأعمدة ومقاييسها، ويبدو أن هذا المسجد وبخاصـة منطقة الإغتسال والوضوء قد مرت بمراحل تجديد وإضافة وتعديل حدثـت فى ضوء ما تم الكشف عنه فى ثلاث مراحل متعاقبة بينما عمارة المسـجد نفسه لاتعكس تعديلات واضافات معمارية مشابهة،وربما يرجع ذلك إلـى أن منطقة الاغتسال والوضوء غالباً ما تتعرض أكثر من غيرهـا مـن أجـزاء المسجد لذلك.

كذلك فإن الطبقات السفلى الأولى عثر فيها على قطـع مـن خـزف السلادون الذى يجع إلى عهد أسرة منج وبالذات فى القرن ٨هـ/١٤م [لوحة ٣] وهى من أقدم قطع الفخار التى عثر عليها فى الموقع. ويمكن اتخاذهـا كقرينة دالة على أن المرحلة الأولى لعمارة المسجد كانت معـاصرة لـهذه الفترة وربما تسبقها بمدة قصيرة، كذلك عثر على بعض الفلـوس النحاسـية [لوحة رقم٥] فى هذا الموضع وهى العملة التى أشار ابـن بطوطـه إلـى استخدامها فى ظفار وأنها كانت من ضربها لكن هذه القطع لم يتم تنظيفـها

حتى الآن وربما بتصنيف المزيد من المعلومات وبخاصة إذا ما تـم تحديد تاريخ ضربها.

مسجد الرباط [زاوية محمد بن أبى بكر]

الموقع :

امتد عمران مدينة ظفار خارج أسوارها، وكانت المنطقة التى تقع بين السور الشمالى لمدينة ظفار ومقبرة الرباط تضم كثيراً من الدور والمسـاجد والمنشآت المعمارية الأخرى التى تتناثر بين البساتين فى هذه المنطقة[٤٦].

الوصف المعمارى: [شكل رقم١٠ واللوحات٧، ٨، ١٦]

ويشغل المسجد مساحة من الأرض تبلغ حوالى ١٨١,٥ متراً مربعـاً وينقسم التكوين المعمارى الحالى للمسجد إلى ثلاثة اقسام القسم الأول الغربى عبارة عن بيت للصلاة يشغل مساحة من الأرض تبلـغ حوالـى ٦٩ متراً مربعاً، وينقسم من الداخل إلى بلاطتين بواسطة بائكة عبارة عن ثلاثة أعمدة وكتفين مدمجين بارزين من سمت كل من الجدارين الشمـالى والجنوبـى، وكانت هذه الأعمدة والكتفين تحمل فوقها أربعة عقود كانت تحمل مع هـذه الجدران الخارجية الأربعة السقف. وقد سقط السقف الأصلى وأعيد بناؤه فى الخمسينات من هذا القرن[٤٧] بمستوى أكثر انخفاضاً عن مسـتوى السـقف الأصلى يدل على ذلك مواضع عروق الخشب فى جدار القبلة لهذا السـقف المجدد، وكسوة الجزء الذى يعلو هذه المواضع من جدار القبلة بالملاط والتى تدل على أن السقف الأصلى كان أعلى – كما ذكرنا– من مستوى السـقف المجدد.

ويتوصل إلى داخل المسجد من سلم يرتفع ثلاث درجات تنتهى ببسطة ومنها يتوصل باب يقع فى الطرف الغربى من الجدار الجنوبى ويبلغ اتسـاع

فتحته متر وارتفاعه ٢,٢٠ متر، يعلوها عتب حجرى. يقع فى مستواه من أعلى وفى الطرف الشرقى للجدار الجنوبى نافذة يبلغ اتساعها متر وارتفاعها عند قمة العقد ١,١٥ متر وهذه النافذة معقود بعقد مدبب وهذا العقد يمكن أن يعتبر نموذجا لاستكمال العقود التى أنشئت فى القرن ٧-٨هـ / ١٣-١٤م فى العمائر الدينية والمدنية بظفار والرباط.

ويلاحظ من خلال بناء هذا الجدار الجنوبى وكذلك بناء الزاوية التى تربطه بجدار القبلة مهارة البناء التى تنعكس فى الإهتمام ببناء عضادتى المدخل بكتل حجرية مرومة كبيرة الحجم نسبيا عن بقية الكتل المستخدمة فى بناء الجدار كله، ويلاحظ هذا أيضا فى بناء ركن الزاوية الجنوبية الغربية، ورجلى عقد النافذة[٤٨]. ولاشك أن هذا الأسلوب يساعد كثيرا فى متانة بناء هذه الأجزاء التى تساعد على متانة البناء كله. كذلك يلاحظ أن البناء فى بقية الجدار استخدم الكتل الحجرية غير المرومة فى بناء مداميك منتظمة إلى حد بعيد وتسوية السطح العلوى لها بقطع صغيرة من الدقشوم وهو أسلوب استخدام فى كل المبانى التى فى ظفار واستخدم أيضا فى بعض العناصر والوحدات المعمارية التى أنشئت فى القرن ٨هـ/١٤م فى عين حمران. ونظرا لأن البناء بالكتل الحجرية غير المرومة يحتاج التى تكسية جصية لاخفاء أسطح الجدران التى لاتبدو جميلة بدون تمليطها فقد كسيت هذه الجدران من الداخل والخارج بطبقة من الملاط الجصى وقد بقيت بعض أجزائه على السطح الخارجى الجنوبى [لوحة رقم٨، ١٦] وجدار القبلة كما أن كسوة جدار القبلة من الداخل مازالت باقية ويشتمل على بعض العناصر الزخرفية النباتية البسيطة.

ويتوسط جدار القبلة المحراب ويبلغ اتساعه حوالى متر أما عمقه فيبلغ ١,٣٥ متر وقد انعكس هذا العمق على بروز بناء المحراب من الخارج عن سمت جدار القبلة ويلاحظ أن ارتفاع حنية المحراب يبلغ ١,٨٠متر فقط وهكذا يبدو المحراب منخفضا بالقياس إلى ارتفاع جدران المسجد التى ترتفع إلى مستوى ٤,٩٠ متر منخفضا. وهذه السمة نلحظها أيضا فى محراب المسجد الكبير والمسجد السمى بالمسمى الجنائزى وهى سمة عامة فى كثير من محاريب المساجد العمانية.

أما الجدار الشرقى لبيت الصلاة فيتوسطه فتحة باب يبلغ اتساعها متر تقريبا ويلاحظ أنها ليست على محور المحراب بالضبط وأنها على محور العمود الأوسط فى البائكة ويوجد بهذا الجدار دخلتان تكتنفان فتحة الباب المذكور ويتقدم بيت الصلاة من جهة الشرق ساحة مكشوفة تبلغ مساحتها حوالى ٥٠ مترا يحدها جدران أربعة ويوجد بالجدار الشرقى فتحة باب يبلغ اتساعها ١,٢٠ متر ويلاحظ أنها أيضا ليست على نفس محور فتحة الباب فى الجدار الغربى المقابل. ويتوصل من هذه الفتحة إلى منطقة الاغتسال والتى تبلغ مساحتها حوالى ٦٢ مترا مربعا. ولم يتبق من عناصرها سوى بئر مطوى (مربع المسقط) بالحجر بنفس شكل أبار مساجد ظفار، ويلاحظ من خلال المسقط الأفقى الذى رفعه كوستا لهذا المسجد وجود اساسات جدران مقسمة للقطاع الشمالى من هذه المنطقة إلى وحدات معمارية كالمطاهر وغيرها لكنها تهدمت الآن[٤٩].

ومن خلال هذا الوصف وبفحص الجدران الباقية يتضح أن تعديلا معماريا حدث بعمارة هذا المسجد وبخاصة فى قطاعيه الأوسط والشرقى،

كذلك يلاحظ أن سقف بيت الصلاة الأصلى قد تهدم وأعيد بنــاؤه بمســتوى أكثر انخفاضاً ثم تهدم هذا السقف.

وتشير الرواية إلى أنه حتى الخمسينات من هذا القرن كان يوجد منــبر خشبى بهذا المسجد نقل من المسجد إلى دار أحد أحفاد الشيخ محمد بن أبــى بكر الذى ينسب هذا المسجد له لكن أخشابه استخدمت فى التدفئة[٥٠].

واذا صحت نسبة هذا المسجد للشيخ محمد بن أبى بكــر كمــا تشــير الرواية وكما تثبت تسمية هذا المسجد الذى يطلق عليه "مسجد محمد بن أبى بكر". فإن هذا المسجد يمكن تحديد تاريخ انشائه قبل سنة ٧١٤هـــ/١٣١٥م وهذه السنة التى مات فيها هذا الشيخ حيث عثر على شاهد قبره فى مقــبرة الرباط فى المنطقة التى تقع إلى الغرب من المسجد على بعد حوالى ٢٠ متراً ونقل هذا الشاهد إلى متحف Sout Kensigton[٥١].

ويلاحظ أن ابن بطوطة اشار فى حديثه عن مدينة ظفــار إلــى أنه "بالقرب من هذه المدينة، بين بساتينها، زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن أبى بكر بن عيسى من أهل ظفار، وهذه الزاوية معظمة عندهم، يــأتون إليها عدواً وعشياً ويستجيرون بها فاذا دخل المستجير لم يُقدر السلطان عليه، رأيت بها شخصاً ذكر لى أن له بها مدة سنين مستجيراً لــم يتعــرض له السلطان، وفى الأيام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح، أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وابى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور وشاهدت لهما فضــلاً عظيماً، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الــذى

غسلنا به فشرب منه، وبعث الخادم بباقية إلى أولاده وأهله فشربوه، وكذلــك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم"[٥٢].

وفى ضوء هذه الرواية يتضح أن محمد بن أبى بكر أنشأ زاويـــة فـــى منطقة الرباط التى انتشرت بين بساتينها كمـــا اشرنـــا المســـاجد والـــدور والطواحين وغيرها من المنشآت والتى مازالت بقايا باقية إلى الآن وتحتـــاج إلى إجراء تنقيبات بها لكشف عناصرها بوضوح، ولما كان هـــذا المســـجد منسوبا إلى الشيخ محمد بن أبى بكر، فإن هذا المسجد فـــى الأرجـــح هـــو الزاوية التى اشار إليها ابن بطوطة والذى ورد فى حديثه عنها يومـــئ إلـــى اشتمالها على مواضع للسكنى لاستقبال الضيوف واللاجئين للاحتماء بـــها- كما تشير الرواية- ومرافق أخرى لخدمتهم. وتذكر الرواية الشفهية[٥٣] أنـــه كان مجاوراً للمسجد المذكور بقايا لوحدات معمارية فى الغالب كـــانت لـــها الغرض.

المدارس فى ظفار:

توجد بداخل أسوار مدينة ظفار "البليد" عدة مبانى دينية صنفـــت فـــى ضوء عناصرها البارزة كالمحاريب والأعمدة على أنها مســـاجد[٥٤] كذلـــك توجد خارج أسوارها أطلال العديد من المبانى المشابهة وبخاصة فى المنطقة المحصورة بين "البليد" ومقبرة الرباط، ويبقى تحديد نوعيـــة هـــذه المبـــانى وغيرها بالضبط مرهونا بالكشف عن جميع عناصرها ودراســـتها دراســـة مقارنة مع نوعيات المنشآت الدينية الأخرى كـــالمدارس والربـــط والزوايـــا باعتبار انتشارها فى هذه الفترة سواء فى ظفار أو المناطق المجـــاورة ذات الصلة المباشرة بها كاليمن.

وإذا كانت المصادر التاريخية قد اشارت إلى كثرة مساجد ظفار فإنها أشارت أيضاً إلى انشاء بعض المنشآت الدينية الأخرى كالمدرسة والرباط والزاوية، حيث يذكر الخزرجي أن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول [٦١٩-٦٩٤هـ/ ١٢٥م "أنشأ مدرسة في ظفار الحبوضي وأوقف عليها ما يقوم بكفاية المرتبين فيها"(٥٥).

كذلك أنشأت ابنته "الجهة الكريمة جهة دار الدملوة(٥٦)... نبيلة [ت ٧١٨هـ/١٣١٨م] مدرسة في ظفار الحبوضي"(٥٧). وكان ذلك في إطار التنافس في إنشاء المنشآت الدينية العظيمة التي اهتم بإنشائها أخوها الملك المؤيد وكبار رجال دولته(٥٨).

وهكذا يتضح أن النشاط العمراني المزدهر في عهد دولة بني رسول باليمن- والتي سيطرت لفترة محدودة على ظفار- امتد إلى ظفار فأنشئت بها المنشآت الدينية التي تناظر مثيلاتها في الحواضر اليمنية كتعز وزبيد وصنعاء وغيرها.

ويلاحظ أنه بالمسجد الجامع داخل أسوار مدينة ظفار وبالتحديد في القطاع الجنوبي الغربي من الرواق الخلفي قد بني حائط مواز لجدار القبلة به محراب يتصل به عند الطرف الشرقي حائط آخر عمودي عليه، ويفصل هذين الحائطين هذا الجزء عن بقية ساحة المسجد [شكل٧] وقد رجح كوستا أن يكون هذا القطاع مسجداً مخصصا للنساء أو أن يكون مدرسة(٥٩). والرأي الأخير أرجح حيث أن هذه الظاهرة نفذت في مساجد أخرى كالمسجد الجامع بصنعاء [شكل١٩]، وجامع الماردينى بالقاهرة الذى حجز فيه رواق القبلةكله

عن بقية المسجد وربما كان ذلك ليتوفر للدارسين الذين يعقدون حلقة الدرس بالمسجد في هذه المواضع نوعا من الاستقلال.

أما من الناحية الوظيفية فإن مدارس ملوك بني رسول قد خصصت للمذهب الشافعي فيما عدا مدرسة واحدة في زبيد حيث خصصوها لتدريس المذهب الحنفي وجعلوا فيها قسمامستقلا لتدريس الحديث كما جعلوا في منصورية عدن قسما لتدريس المذهب الحنفي" (٦٠). وفي ذلك ما يشير إلى أن هذه المدارس قد خصصت لتدريس مذهب واحد فقط إلى جانب علم الحديث أحيانا، وكذلك علوم اللغة وإن وجدت مدارس لتدريس مذهبين، وهي بذلك تختلف عن المدارس في مصر والشام والعراق التي درس بالعديد منها.

الفقه على المذاهب الأربعة، وفي إطار هذا التخصص والتوجه المذهبي فإن مدرستي ظفار ربما كانتا لتدريس المذهب الشافعي وقد اتبعت هذه المدارس أيضا نظام اعتماد كتب بعينها لتدريس المذهب، وكانت مدة الدراسة في كل عام تسعة أشهر سبعة منها للفترة الرئيسية التي تبدأ من عشرة المحرم الحرام وتنتهي بنهاية شهر رجب وشهران للفترة الأخيرة التي تبدأ بعد انقضاء أيام عيد الفطر المبارك وتنتهي آخر ذي القعدة(٦١).

وفي إطار الدراسة المقارنة يمكن أن نتصور الشكل المعماري لمدرستي ظفار المذكورتين بمقارنتهما بما بقي من مدارس في اليمن وبخاصة في عهد الدولة الرسولية، فقد اشتملت المدرسة غالبا على مسجد صغير لاقامة الصلوات، وعلى قاعات استخدمت كمواضع مستقلة لعقد الدروس وكانت تستغل أيضا لمبيت الطلاب وهي بذلك تختلف عن المدارس في مصر والشام والعراق وإيران التي استقلت فيها أواوين الدرس عن

مساكن الطلاب التى أنشئت على هيئة حجزات مستقلة لكل طالب حجـرة أو غرفة، كذلك ألحق ببعض هذه المدارس مكاتب لتعليم الصبيـان "معلامـات" وألحق ببعض منها مواضع للدفن[٦٢]. وفى إطار هذا التكويـن المعمـارى يلاحظ اختلاف تخطيطات هذه المدارس عن المدارس فى مصر والشـام والعراق التى سار تخطيطها غالبا على نمط الأواوين المتعامدة حيث كـانت تعقد بهذه الأواوين الدروس وتتوزع فى المربعات التى تكتنف هذه الأواوين الوحدات المعمارية الأخرى التى اشتملت عليها المدرسة.

واختلفت مواعيد التدريس وترك الأمر لاختيار المدرسـين والطـلاب فأحيانا كانت تعقد الدروس إما قبل الشروق، أو فى وقت الضحـى أو بيـن العصيرين أو العشائين[٦٣]. وكان الشيخ يجلس فى صدر المكان المخصـص للدرس ويلتف حوله الطلبة كما هو الحال فى ل المدارس الإسلامية فى ذلك العصر.

وفى إطار ما سبق فإن المنقب عن آثار ظفار (البليد) يجب أن يضـع فى اعتباره هذه السمات المعمارية والوظيفية الخاصة بالمدارس فـى هـذه الفترة حتى يستطيع أن يميز بين نوعيات ما يكشف من منشآت دينية سـواء كانت مساجد أو مدارس أو غيرها.

الرباط والزاوية:

فى إطار الحياة الدينية المزدهرة فى ظفار فى هذه الفترة كانت ظفـار محط أنظار رجال التصوف وأعلامه، ففى عهد الملك الواثق إبراهيـم بـن السلطان شمس الدين يوسف بن عمر بن على بـن رسـول [ت ٧١١هـ/ ١٣١١م] يروى أن ولد أحمد الرفاعى وصل إلى ظفار يريد الحـج، فتلقـاه

السلطان بالاجلال والاكرام، وأقام عنده ثلاثة أيام فى الضيافات النفيسة وكان يرسل له كل يوم فى مدة الضيافة بألف دينار ملكية وتشريف، فتلك شنشنـة مظفرية وأخرى هربزية، فلما وصل العلم بوفاته أمر السلطان بالقراءة عليه سبعة أيام، وحضر القراءة ملك بنى رسول وأعيان الدولة ووجوه الناس فـى كل يوم ينصرفون بعد القراءة إلى سماط نفيـس حتـى انقضـت السـبعة الأيام"[٦٤].

ويذكر الخزرجي أن الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن على بن عبـد الله ولد صاحب المقداحة[٦٥] كان قد خرج فى حياة أبيـه قـاصداً السـياحة والتعبد فبلغ مدينة ظفار الحبوضى وأقام هناك مدة فلما توفى والـده وخـلا الموضع من قائم يقوم فيه أرسلوا له رسولاً قاصداً، وسألوه الوصول إليـهم فوصل وابتنى رباطاً على صفة رباط ظفار وقام بالموضع قياماً مرضيا إلى أن توفى فى سلخ جماذى من سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م[٦٦]. وهذه الرواية تشير إلى وجود رباط فى ظفار كان مقصداً لرجال التصوف فى هذا العصر. ولا نعرف بالتحديد موضع هذا الرباط، ولكن المقبرة الكبيرة إلى الشمال الغربى من مدينة ظفار تعرف بمقبرة الرباط فهل هى منسوبة إلى هـذا الربـاط(؟) ربما كان ذلك صحيحاً وربما يفسر ذلك سبب تسمية هذه المقبرة بهذا الاسم.

ويذكر ابن بطوطة أن بالقرب من ظفار أيضاً وبين بسـاتينها توجـد "زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن أبى بكر بن عيسى من أهل ظفار، وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون إليها غدواً وعشياً، ويستجيرون بها فـإذا دخل المستجير لم يقدر السلطان عليه" ويستطرد ابن بطوطة فيقول "رأيت بها شخصاً ذكر لى أن له بها مدة مستجيراً، لم يتعرض له السلطان، وفى الأيام التى كنت بها إستجار بها كاتب السلطان، وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح،

ثم يستطرد ويقول "أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبو بكر المذكور، وشاهدت لهما فضلا عظيما، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلنا به فشربا منه، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربوه، وكذلك يفعلون بما يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم"(٦٧).

وتشير هذه الرواية إلى أن هذه الزاوية كانت مركزا كبيرا للمتصوفة الواردين، كما كان لها مكانتها لدى السلاطين، ويوجد مسجد بمقبرة الرباط يعرف (حاليا) بمسجد الرباط(٦٨) بجوار أطلاله وإلى الشمال الغربى منه وعلى بعد حوالى ٣٥ مترا يوجد موضع قبر الشيخ أبى بكر بن سعد بن على الدارعينى الذى نقل شاهد قبره إلى متحف فكتوريا والبرت والذى يعتقد جيست أنه هو نفسه(٦٩) الشخص الذى ورد اسمه فى رواية ابن بطوطة وأن خطأ ربما وقع فى مخطوطة ابن بطوطة(٧٠). ويوجد حول القبر أساسا بناء ربما كان ضريحا تعلوه قبة، وإن صح ما يذكر جيست – وهو أمر وارد – فإن المسجد الباقى إلى الآن ويعرف بمسجد الرباط والأطلال التى حوله وقبر الشيخ أبو بكر ربما كانت تشكل جميعا مجموعة معمارية تمثل عمارة هذه الزاوية.

وفى إطار ما سبق عرضه يمكن أن يطرح التساؤل الآتى: هل الرباط الذى سبقت الاشارة إليه هونفس الزاوية المذكورة أم أن الرباط كان مبنى مستقلا بذاته يختلف عن الزاوية (؟). ولا نستطيع أن نعطى إجابة حاسمة على هذا السؤال سيما وأنه لم ترد أى إشارة إلى تحديد موضع الرباط وتاريخ إنشائه. وإن صح ترجيحنا إلى أن مقبرة الرباط ربما نسبت إليه فإن هذا الترجيح يعنى أنه كان فى منطقة هذه المقبرة وهو الموضع الذى يوجد

به مسجد أبى بكر الذى يغلب الترجيح إلى أنه كان مسجد زاويته وفى ذلك ما يشير إلى أن الراجح أن الرباط والزاوية كانا فى منطقة واحدة هى مقبرة الرباط.

وهنا يجب الإشارة إلى أن ابن بطوطة هو الذى أطلق مصطلح "زاوية" على منشأة أبى بكر، وأن الخزرجى هو الذى أطلق مصطلح رباط على المبنى الذى ذكرنا أن مقبرة الرباط ربما نسبت اليه، وإذا وضعنا فى الاعتبار أن ابن بطوطة يستخدم المصطلح المغربى بدلالته التى تعنى أن الزاوية مبنى للمتصوفة العلماء المتفقهين فى الدين والدارسين لأصوله والتى تختلف عن الرباط الذى نشأ فى الأصل كمبنى ذو وظيفة دفاعية ثم اصبح فيما بعد مبنى دينيا للمتعبدين من الجند البطالين الذين يقضون بقية حياتهم متفرغين للعبادة، وإذا وضعنا فى الاعتبار أيضا أن الخزرجى يستخدم مصطلح الرباط فى إطار الاستخدام الشائع فى اليمن والذى يطلق غالبا على المبانى التى تناظر الزوايا فى مصر وغيرها وبالدلالة التى قصدها ابن بطوطة ويؤكد ذلك صفة رواده الذين كانوا علماء وفقهاء،وإذا اعتبرنا ذلك كله مع ما سبقت الاشارة إليه من الشهرة الواسعة لزاوية أبى بكر والرباط المذكور وأن كلا منهما من المرجح أنه كان فى منطقة مقبرة الرباط فإن الاحتمال وارد بأن الزاوية والرباط مصطلحان أطلقا على المنشأة الأساسية فى منطقة مقبرة الرباط (؟) والتى بقى منها المسجد الذى يعرف حاليا بمسجد الرباط.

مواد الانشاء فى ظفار

استخدمت فى انشاء مدينة ظفار مواد انشاء أساسية أهمها الحجر والنورة أو "الصهروج" بالمصطلح العمانى، والخافقى وهو نوع من الملاط

يشبه الصهروج لكنه ينفذ بطريقة معينة تجعله أملساً ويتحمل الماء حيث يستخدم غالباً في تمليط القنوات والصهاريج وغيرها من المنشآت المائية، هذا بالإضافة إلى الأخشاب سواء المحلية أو المستردة غالباً من الهند كخشب الساج.

الأحجار:

يتميز البناء بالحجر بمتانته وجماله، كما أنه يعكس في ذات الوقت المستوى الاقتصادي المرتفع لمستخدميه في البناء هذا بالإضافة إلى أن البناء به يتطلب إتقان حرف متعددة متصلة ابتداء من قلعه من محاجره ثم اعداده للبناء ثم بنائه ودق الزخارف عليه سواء قبل البناء أو بعده.

وقد برع العمانيون في استخدام الحجر في البناء منذ الألف الثالث قبل الميلاد ولا أدل على ذلك من بقايا مدينة بات القديمة وسمهرم وعين جمران. وإذا كانت هذه المواقع تعكس ابداع العماني القديم في استخدام الحجر في البناء فإن بناء مدينة ظفار كلها بالحجر لايمثل استمراراً لحضارة سابقة فقط ولكن يعكس أيضاً مستوى اقتصادياً متقدماً ساعد على انشاء كل مباني المدينة بالحجر حتى يمكن رصد المدينة كمثال مهم من أمثلة المدن الأثرية التي أنشئت كل منشآتها بالحجر دون غيره من مواد البناء.

وشاع استخدام الحجر الجيري في انشاء مدينة ظفار حيث تتوافر مقالعه في المناطق الجبلية القريبة والتي مازالت يستخدم بعضها حتى الآن في الجهة الشمالية من المدينة على بعد عدة كيلو مترات.

وللحجر الجيري مميزات عديدة، فبالإضافة إلى سهولة قلعه ونحته ومتانته في البناء فإن له مميزات أخرى كشفت عنها البحوث، فهناك من

التجارب المعملية ما أجري لحساب الفترة الزمنية التي تستغرقها الحرارة للتسرب من خلاله، فقد قام بعض الباحثين في هذا المجال بإجراء العديد من التجارب لتحديد الفترة الزمنية التي تستغرقها الحرارة للانتقال خلال بعض المواد الشائعة الاستخدام – حالياً– في الانشاء مستخدمين جهاز Glube Thermometer الذي يتم بواسطته قياس درجة حرارة الأسطح الخارجية والداخلية للحوائط وكانت النتائج كالآتي:

١- الطوب اللبن سمك ٠,٥٠م حوالي ٢٠ ساعة.

٢- الحجر الجيري بسمك ٠,٦٠م حوالي ١٢-١٦ ساعة.

٣- الخرسانة المسلحة ٠,١٥م من ٤-٥ ساعات[٧١].

وتكشف هذه الأرقام عن طول الفترة الزمنية التي تستغرقها الحرارة للمرور خلال كتل الحجر الجيري الأمر الذي يساعد على الاحتفاظ بدرجات الحرارة منخفضة داخل الأبنية المشيدة.

كذلك اختبر الحجر الجيري من حيث العزل الصوتي وأثبتت التجارب التي نفذت بهذا الخصوص أن الحجر الجيري يتمتع بقدر كبير من خاصية العزل الصوتي حيث يتوقف ذلك على معامل مهم وهو كثافة مادة الانشاء، وتتناسب هذه القيمة تناسباً طردياً مع الكثافة[٧٢].

وفي إطار هذه المميزات التي يوفر استخدام الحجر الجيري في الانشاء كان الاتجاه الأساسي منصباً على استخدام هذه المادة كمادة بنائية في الأساس، وساعد على ذلك– بلاشك– توفرها في المنطقة وتوفر الخبرة المتوارثة في قلعها من المحاجر وإعدادها للبناء.

ومن طريف ما يذكر أنه مع شيوع استخدام الحجر فى البناء أصبحت المحاجر فى جنوب شرق الجزيرة العربية من مشروعات الاستثمار التى تملكها القادرون على ذلك من أهل اليسار واستخدموا زنوجاً من العبيد للعمل فى قلع الأحجار وكانت الاماء يحملنها على ظهورهن إلى مواقع البناء. وزاد نشاط هذه المقالع بازدياد ثراء أهل المدن حيث كان لايبنى بالحجر إلا أهل اليسار[٧٣].

وهكذا ارتبط استخدام الحجر فى البناء بالعديد من الحرف التى تتصل بالحجر كقلعة من محاجره، ونحته أو ترويمه واعداده للبناء، ونقله من المقالع إلى مواقع البناء، ثم البناء به سواء كان مروماً أو غير مروم.

وإذا كانت المصادر –التى بين أيدينا– لم تشر إلى تفاصيل هذه الحرف المتصلة باستخدام الحجر فى الانشاء، فإن الآثار الباقية لمدينة ظفار تمدنا بالكثير من المعلومات المتصلة باستخدام الحجر فى الانشاء وتمدنا كذلك بمعلومات كثيرة عن المواد الأخرى التى استخدمت فى البناء كالنورة أو الصهروج والخافقى والأخشاب وغيرها وكلها مواد تعكس نوعيات متعددة من الحرف المتصلة بالعمارة والانشاء أتقنها أهل ظفار فى العصور الوسطى. واستمرت متوارثة عبر الأجيال حتى العصر الحديث ولا أدل على ذلك ما نراه فيما بقى من العمائر التقليدية فى مدن منطقة ظفار[٧٤].

حرفة قلع الأحجار

تعتبر حرفة قلع الأحجار من أول هذه الحرف حيث تقلع الأحجار من المحاجر ويتم إعدادها للبناء سواء فى هيئة كتل حجرية مرومة أو فى هيئة قطع حجرية منحوتة بشكل معين يعين على بناء عناصر البناء بهيئة زخرفية معدنية أو بنحت عناصر كاملة للبناء كالأعمدة التى يلاخظ البراعة فى نحتها بأشكال وأحجام مختلفة وان كانت مقاييس ارتفاعها محددة.

وهذه الحرفة قديمة فى منطقة ظفار تدل على ذلك آثار المدن القديمة فى المنطقة كسمهرم وريسوت وشصر وعين حمران وغيرها. لكن استخدام الحجر فى انشاء مدينة ظفار بأكملها له دلالته التى تعكس مستوى رفيعاً فى استخدام الحجر فقد استخدم فى بناء الآثار الباقية بالمدينة كالسور والبوابات والمساجد والمسجد الجامع والآبار كتلاً حجرية بأحجام وأشكال متنوعة تدلل بالإضافة إلى مهارة الظفارين فى قلع الأحجار من مقالعها[٧٥] على استخدام كل ناتج هذه المقالع سواء كان كتلاً حجرية منحوته نحتاً جيداً ومرومة أو قطعاً حجرية متوسطة الحجم غير مرومة تستخدم فى بناء الحوائط الحاملة مع استخدام القطع الصغيرة غير المرومة أيضاً لتسوية مستوى المداميك المبنية بالقطع متوسطة الحجم من الأحجار غير المرومة.

وإذا كان النحات لم يبذل جهدا كثيرا فى نحت هذه الكتل الحجرية المستخدمة فى بناء الحوائط وترويمها معتمدا على استغلال القطع الصغيرة وتسوية مستوى المداميك وتعويض ذلك بطبقة المونة المستخدم فى البناء، فإن جهده الفنى ظهر فيما أعده من كتل منحوته نحتا جيدا ومرومة بأحجام مختلفة تصلح لأغراض مختلفة مثل تلك الكتل التى تمثل طبليات مربعة الشكل توضع فوق تيجان الأعمدة بارزة عنها وبسمك حوالي ٢٠ سم ليرتكز

عليها بناء مآخذ العقود التى تعلو الأعمدة، كما أن نحات الأحجار قد أعده أيضاً الصنج الحجرية التى تبنى بها هذه العقود بأحجام تختلف باختلاف مقاييس سمك بناء هذه العقود وبأشكال وتدبيه تساعد على متانة بناء العقد وجمال شكله كذلك فإن النحات أنتج أعمدة مثمنة ومربعة واسطوانية بقواعد وتيجان وأبدان تشكل كتلة واحدة فى الغالب، وتضمنت تيجان هذه الأعمدة مواضع للروابط الخشبية التى تربط بين ارجل العقود التى تعلوها كما جرت العادة فى إنشاء البائكات بالمساجد.

وتكشف حنية محراب المسجد المسمى "بالمسجد الجنائزى" عن إبداع النحات فى نحت أحجار الطرفين الخارجيين لهذه الحنية فى هيئة بلاطات أعدت خصيصاً لهذا المحراب ونحتت كل مجموعة منها لتتناسب طرفاً بذاته، وقد أعدت هذه البلاطات بطريقة معينة تشكل عند بنائها شكل قناة Groove تبدو كما لو كانت محفورة فى كل طرف ولكنها فى الحقيقة ناتجة عن البناء بهذه البلاطات التى أعدت خصيصاً لهذا الغرض، ويكشف هذا عن أن النحات كان يعمل فى موقع بناء المسجد حتى يُعد هذه البلاطات للبناء التى يضع كل منها فى موضعه.

وتكشف بقايا القنوات الحجرية والأحواض التىكشف عنها فى موقع حفائر جامعة السلطان قابوس عن البراعة فى التعامل مع الكتل الحجرة الكبيرة لنحت أحواض حجرية مكونة من قطعة واحدة وبالشكل المطلوب لوحدات معمارية تتطلب أن تكون هذه الأحواض أو القنوات بهذه الهيئة أو تلك.

ومن طريف ما يذكر أن العبيد فى عدن كانوا يعملون فى قلع الأحجار من مقالعها ونحتها وساعدتهم نساؤهم فى بعض هذه الأعمال كنقل الأحجار من المقالع إلى مواضع البناء، وربما حدث ذلك أيضاً فى مدينة ظفار.

وحرفة البناء ذاتها من الحرف التى تدل آثار مدينة ظفار على تقدمها تقدماً واضحاً. وقد اشتملت المدينة على العديد من المنشآت والمرافق العامة بالإضافة إلى الدور السكنية والقصر وقد أنشئت المبانى كلها بالحجر والبناء بالحجر غير المروم يحتاج إلى خبرة واتقان، كذلك فإن استخدام البناء للقطع الصغيرة من الحجر لتسوية مستوى كل مدماك يدلل على رؤيته الاقتصادية وعلى الطريقة التى عالج بها عدم ترويم الحجر وتوفير أكبر قدر ممكن من المونة، مع تسوية سطح الجدار لتوزيع الضغط بصورة صحيحة.

واستطاع المعمار أن ينفذ مبانى ضخمة بمقاييس تتناسب ارتفاعاتها كالمسجد الجامع وأسوار المدينة وأبوابها والقصر بما يشتمل عليه من وحدات معمارية والقناطر التى تعلو الخور فى الشمال والخندق فى الغرب، كما أنه كان بارعاً فى انشاء العقود المدببة بمقاييس وبارتفاعات تحقق المطلوب وبكفاءة عالية ويمكن أن نلاحظ ذلك فى مسجد الرباط وفى بقايا المسجد الجامع فى مدينة ظفار.

كذلك فإن الجدران الجانبية لكل من المسجد الجامع وما يسمى بالمسجد الجنائزى وما يتصل بها من أكتاف بارزة فى الوجه الداخلى لهذه الجدران على نفس محور الأعمدة تكشف عن أن المعمار وضع حساباته قوة رفص العقود التى تعلو هذه الأعمدة عند طرف كل بائكة واتصالها بالجدران الجانبية، فبناء هذه الأكتاف يساعد الجدران على تحمل قوة الرفس وتوفر

قاعدة مناسبة لارتكاز رجل العقد الأخير فى كل طرف عليها. ويتضح من ذلك أن البناء الظفارى كان على علم واسع بفن البناء والعمارة مثله مثل البنائين فى المدن الكبرى كالقاهرة وبغداد وصنعاء وغيرها.

وتكشف المستويات المختلفة للقنوات التى كشف عنها فى منطقة الاغتسال فيما يسمى بالمسجد الجنائزى عن إبداع المعمار الظفارى فى تنفيذ شبكات تزويد الأحواض بالماء وشبكات تصريف الماء المستخدم فى الوضوء والاغتسال كما يكشف مستوى إنحدار هذه القنوات عن إدراك المخطط المنفذ لحسابات الانحدار المطلوب لجريان الماء بالسرعة المطلوبة، كذلك فإن اختلاف مقاييس هذه القنوات وطريقة تنفيذها ارتبط باستخدامها سواء فى التغذية أو التصريف.

ويكشف مجال تكسية الجدران والأرضيات هو الآخر عن خبرة متقدمة فى هذا المجال لدى المعمار الظفارى فقد كسيت الجدران بطبقة من الملاط "الصهروج" لتغطى الأشكال غير المنظمة وغير المتساوية لقطع الأحجار التى استخدمت فى البناء وكانت التكسية من الداخل والخارج ضرورية لتحقيق هذا الغرض. ونلحظ بقايا ذلك فى الجدران الخارجية والداخلية كمسجد الرباط كما نلحظه فى بقايا الملاط الملتصقة ببعض الأحجار بالمسجد الجامع والمسجد المسمى بالمسجد الجنائزى.

ومن المهم أيضاً أن نشير إلى تمليط بعض الأرضيات والقنوات بمنطقة الاغتسال بالمسجد المسمى بالمسجد الجنائزى بطبقة من الخافقى الناعم ذو اللون الأحمر وهى نوعية من الملاط اشتهرت بها بلاد اليمن[٧٦] وأجادتها وهو ما يشير إلى أن الظفاريين لايقلون خبرة ومهارة عن اخوانهم اليمنيين

فى التمليط بالخافقى الذى يناسب المواضع التى تتعرض للماء فيقوى عليه كما يسهل تنظيفها، وهو ما يكشف عن مستوى حضارى متقدم فى فن العمارة يناظر مثيله فى اليمن وفى مصر حيث استخدمت هذه النوعية من الملاط أيضاً فى تمليط صهاريج الأسبلة المملوكية.

ويبقى الكشف عن مصدر ونوعية المادة الملونة الحمراء من الأهمية بمكان والتحليل الكيميائى لقطعة من هذا الملاط تساعد فى الكشف عن نوعية هذه المادة، ومن ثم يسهّل تحديد مصدرها سواء فى منطقة ظفار أو غيرها.

وهنا تجب الإشارة إلى أن مدينة ظفار بها مواد بنائية وفلزية يمكن أن نحصل منها على اللون الأحمر كما أن النقوش الصخرية فى كهوف المنطقة والتى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ تكشف عن معرفة العمانى القديم فى منطقة ظفار بتحضير صبغات باللون الأحمر وغيره واستخدامه فى الرسوم التى زين بها الكهوف، وقد استطاع أحد الباحثين العمانيين التوصل إلى العديد من المواد التى تمكن أن تكون مصدر هذه الألوان من مواد متوفرة فى منطقة ظفار[٧٧].

وإذا كان صبغة الملاط تحدد لنا هذا البعد المتقدم فى مجال تحضير الألوان فإن مادة الملاط نفسه سواء كانت من النورة أو الصهروج أو الجص فإن إعدادها لتمليط الجدران بها يكشف عنه وجودة الحرفيين المتخصصين فى صناعة هذه المادة وتجهيزها من الحجر الجيرى الذى يحرق بطرق معينة فى أفران خاصة ثم ينخل ويجهز للاستخدام لينتقل إلى يد حرفى آخر متخصص فى تمليط الجدران والأرضيات والجدران وله خبراته فى اعداد الملاط من هذه المادة لتمليط الجدران وكذلك له خبراته فى تسوية

ملاط الجدران والأرضيات والقنوات والمحافظة في هـــذه الأخـيرة علــى مستوى الانحدار المطلوب وكل ذلك يحتاج إلى مهارة خاصة وخبرات طويلة كشفت عن توفرها الأجزاء المملطة من الجـدران والأرضيــات والقنــوات وبخاصة في منطقة الاغتسال في ما يسمى بالمسجد الجنائزي.

الصـــــاروج[٧٨]:

احتاجت المباني الحجرية في ظفار إلى تكسية جدرانها المبنية بحجارة غير مرومة إلى الملاط. كما استخدم في البناء نوع من "المونة" مــن نفـس مادة الملاط المستخدم. وقد برع العمانيون في استخدام مادة الصاروج فـــي البنـاء. ونلحظ استخدام الصاروج في بناء المبــاني كمونـة كمــا نلحـظ استخدامه في بقايا التكسيات الجدارية كما هو الحال فـي المسـجد الجـامع ومسجد الرباط. كما استخدم في تكسية بعض القنوات المائية.

وبالاضافة إلى ذلك فقد استخدم الصاروج في تمليط القنــوات المائيـة وأرضيات وجوانب أحواض الماء في منطقة الاغتسال بالمســجد المسـمى "الجنائزي" وبنوعية من الملاط أدق في مسامها ولمساء في سطحها، كما أنها ملونة باللون الأحمر تتكون من الجير و"الرماد" و "الحمرة" وقــد اسـتطاع العمانيون إعداد هذه النوعية من الملاط واســتخدامها فــي تمليــط بعـض الوحدات والعناصر التي تستوجب هذا الاســتخدام كــالأحواض والقنــوات وأرضيات المطاهر وغيرها بمستوى لايقل عن المستوى الذي وصــل اليـه اليمنيون الذين اشتهروا أيضا باستخدام هذه النوعية من المـــلاط[٧٩]. وهـذه النوعية من الملاط نفذت على مرحلتين المرحلة الأولى تمثلها الطبقة السفلية وهي طبقة سميكة تغطي سطح المبنى وتسويه، والطبقة الثانية طبقة لونيــة رقيقة من زبد الجير واللون الأحمر تغطي سطح الطبقة الأولى فتسد مســامه

وتغطية اللون الأحمر، ويبدو أنها توضع على الطبقة الأولى قبل أن تجـف ويلاحظ تشربها في الطبقة السفلية.

ويعتبر الحجر الجيري المادة الأساسية التي يصنع منها الصاروج حيث يتم حرقه في درجة حرارة معينة فيتحول الحجر الجيري إلى جير ثم يخلــط الجير ببعض المواد الأخرى من التربة أو الرماد الناتج عن الحريـــق، ثــم يعجن بالماء ثم يجف فيتخذ من جديد نفس المواصفات التي كان عليها الحجر من حيث المتانة والصلابة. وتتم هذه العملية في إطار المعادلات الكيميائيـــة حيث أن كربونات الكالسيوم المكون الأساسي للحجــر الجــيري بالتســخين تتحول إلى أكسيد كالسيوم (الجير الحي) بالإضافة إلى ثاني أكسيد الكربـــون وبإضافة الماء إلى أكسيد الكالسيوم يتحول إلى هيدروكسيد الكالسيوم (الجير المطفي) ثم يخلط بالمكونات الأخرى للمــلاط أو يعجـن بالمـاء ويختلــط بالاكسجين فيتحول هيدروكسيد الكالسيوم إلى كربونات كالسيوم مرة أخرى، ومع تمام الجفاف تتصلب وتأخذ نفس مواصفات الحجر الجيري من حيــث المتانة.

ويتم تجهيز الصاروج من خلال عدة عمليات أولها هي عملية استخراج أحجار الكلس من الجبال من مقالع الأحجار ثم تنقل هذه الأحجار الى موضع احراق وتكون في هيئة قطع يسهل حملها، ثم ترص بتدرج حتى يبنى علـــى هيئة قبة أو في شكل هرمي ثم تغطى من أعلى بالأحجار الصغيرة ثم بالرماد أو الملاط لمنع تسرب الحرارة إلى الخارج ثم تشعل النار تحت هذه القبة أو الشكل الهرمي ويستمر اشعال النار لمدة طويلة قد تصل إلى ثلاثة أيام تساعد على تحول الحجر الجيري إلى أكسيد الكالسيوم. ثم تترك لتبرد ثــم تــرش بالماء فتتفتت ويتم سحقها وغربلتها حتى تصبح كالرمل[٨٠]، ويكون النـــاتج

بعد ذلك معد لخلطه ببعض المواد الأخرى كالتربة أو الرماد الناتج عن الحريق، وبنسب معينة ثم تعجن مع بعضها ويستخدم فى البناء أو التمليط.

الأخشاب :

استخدمت الأخشاب فى مدينة ظفار كمادة بناء فى الأسقف الخشبية التى كانت تغطى وحدات مبانيها وتتوفر الأخشاب فى منطقة ظفار، لكن هذا لم يمنع من استيراد بعض الأنواع الجيدة من الخشب من الهند لاستخدامها فى صنع الأبواب والأثاث والروابط الخشبية Tie Beems والحوامل فى المساجد.

وقد عثر فى حفريات المسجد الجامع بمدينة ظفار على بعض القطع الخشبية التى استخدمت فى السقف، كما عثر على بعض أجزاء من الحوامل الخشبية التى نقشت عليها وحدات زخرفية نباتية وهندسية تشبه الزخارف المعاصرة على التحف الرسولية فى اليمن[لوحة رقم ٤]. وهو ما يكشف عن أن مدينة ظفار توفر لها من الصناع المهرة فى الحفر على الخشب، وقام هؤلاء الصناع بالمشاركة فى عمارة مبانيها مشاركة تكشف عن مستوى فنى متقدم فى تنفيذ الأعمال الخشبية لايقل بأية حال عن مستوى معاصريهم فى اليمن وغيرها من البلاد الاسلامية.

هوامش الفصل:

(١) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص٢٣٨.

(٢) تمت أعمل الكشف على يد باو لوكو شتا الذى قام باجراء تنقيبات فى الموقع سنة ١٩٧٦م وتجرى حاليا أعمال اخرى بكشف المزيد من عناصر المسجد على يد بعثة جامعة أخن الألمانية، تحت اشراف يانسن Macharel Jansen

(٣) يذكر كوستا أن عدد المداخل بجدار القبلة سبعة بناء على الفتحات النافذة بجدار القبلة والتى سعد بعضها، وهذه الفتحات عبر المداخل المذكورة غالباً ما كانت نوافذ فى مستوى قريب من ارض المسجد

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٩١.

(٥) فلييس: المرجع السابق، ص٩١.

(٦) كوستا: المرجع السابق، ص٤٣.

(٧) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أسيوط، ١٩٨٠م، جـ١ ص١٧.

(٨) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٩) كوستا: المرجع السابق، ص ٥٨.

(١٠) وصف كوستا هذه الحوامل بأنها كمرات ولم يحدد وظيفتها.

(١١) لاننكر أن هذه المسافات تناسب أيضاً وضع جوائز خشبية للسقف المباشر عليها بل انها تكاد تتطابق ومتوسط بحور القاعات بالعمارة التقليدية فى المنطقة والتى تغطى بعروق خشبية حيث بلغ متوسط بحور هذه القاعات ٢,٥ -٣ متراً لكن الشواهد الأخرى تجعلنا نرجح وجود العقود ثم السقف.

(١٢) رواية شفهية للأستاذ عوض عيسى، مدير الآثار السابق بمنطقة ظفار.

(13) R. B. Serjeant and Ronald Lewcock: Sana An Arbian Islamic City England, 1983,p. 325.

(١٤) القاضى اسماعيل على الأكوع: المدارس الاسلامية فى اليمن، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م، الطبعة الثانية، ص٢٦٨.

(١٥) الأكوع: المرجع نفسه، ص٣٥٩.

(١٦) يوجد أمثلة لهذه الاستطرافات في المساجد المملوكية بمصر والمعاصرة لعمارة هذا المسجد مثل مسجد الماردانى بالقاهرة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) [شكل ١٣] واستمر بعد ذلك كما نرى فى مسجد برسباى بالخانكة (٨٤١هـ/١٤٣٧م).

(١٧) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص ص ٢٦٠، ٢٦٤.

(١٨) محمد عبد الستار عثمان: مسجد سدوس دراسة أثرية معمارية، مجلة كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، العدد ١٦، ١٩٩٤م، ص٤٠٢ [لوحة ٤]

(١٩) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية ،ص٥٦.

(٢٠) تستخدم هذه التسمية فى منطقة ظفار وقد أكد لنا الأستاذ عوض عيسى استخدام هذه التسمية دون غيرها.

(٢١) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية ،ص٥٦، وهناك من يطلق عليها مساجد الحارات أو المساجد المحلية وهى تسمية مرتبطة بالمكان لكنها لاتحدد الوظيفة كما هو فى التسميات السابقة.

(٢٢) كوستا: دراسة لمدينة ظفار ،ص٢٥ شكل ٢٠ ، لوحة ٥٠ب.

(٢٣) محمد ناصر الألبانى: تلخيص أحكام الجائز. الأردن، المكتبة الأسلامية، الطبعة الثانية، د.ت ص٥٢.

(٢٤) محمد ناصر الألبانى: المرجع السابق، ص٥٣.

(٢٥) الألبانى: المرجع السابق، ص٥٣.

(٢٦) طه الولى. المساجد فى الاسلام. دار العلم للملايين، بيروت: الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص٧٩.

(٢٧) السمهودى [نور الدين ابو الحسن على بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن على الشافعى (٨٤٤-٩١١هـ/١٤٤٠-١٥٠٥م)]. وفاق الوفا. طبع دار الأداب والمؤيد بمصر سنة ١٢٢٦. جـ٢ ص١١.

(٢٨) تقى الدين أحمد بن على [ت٨٤٥هـ/١٤٤١م]، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر بيروت، د.ت جـ٢ ص٤٥١.

(٢٩) للاستزادة: راجع المقريزى: المصدر السابق، جـ٢ ص٤٥١ وما بعدها.

(٣٠) طه الولى: المرجع السابق، ص٨٣.

(٣١) الألبانى: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣٢) الألبانى: المرجع السابق، ص٥٢.

(٣٣) انظر شكل رقم ١٧.

(٣٤) الألبانى: المرجع السابق، ص٥٢.

(٣٥) المكرى [على بن جوهر]. الكوكب السيار إلى قبور الأبرار. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية ١٩٩٢م، ص.ص ٤٧-٤٩، أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارس "العصر الفاطمى" الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م، ص.ص ١٠٣-١٠٩.

(٣٦) الألبانى: المرجع السابق، ص٥٢.

(٣٧) للاستزادة: راجع محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بالقاهرة، جـ٢ ص.

(٣٨) وثيقة وقف السلطان برسباى ٨٨١ أوقاف.

(٣٩) مغاسل الموتى كوحدات معمارية عرفت أيضاً فى العصر المملوكى وأنشئت كأعمال خيرية لتساعد على تجهيز الموتى للدفن، وبخاصة فى أوقيات انتشار الجواحين وكأن يجهز بها الفقراء بل أن هناك بعض الأوقيات خصصت لهذا الغرض عرفت "بوقف الطرحاء".

(٤٠) كوستا: المرجع السابق، ص٥٢

(٤١) طه الولى: ص٣٦٢.

(٤٢) كانت القبائل فى المدن الإسلامية الأولى تتخذ لها مقابر فى أطراف خططها، ولكن بعد ذلك اصبحت هناك المقابر العامة التى سنها الرسول بانشاء مقبرة البقيع فى المدينة المنورة، ومع تطور عمران المدن الإسلامية ومراعاة للنواحى الصحية جرت العادة بإنشاء المقابر خارج المناطق السكنية قريبة من المدن لغرض الدفن واختيرت لها مواضع تساعد فى الوصول إليها بسهولة وعدم تأثيرها على النواحى الصحية، وعدم تأثرها أيضاً لأخطار الطبيعة وبخاصة السيول.

(٤٣) عثر فى المقبرة على شاهد قبر باسم على المهرى حفر نص الكتابه فيه حفراً بارز والخط المنفذ ليس بمستوى شكل الخط الثلث الرائع الذى عاصر ازدهار المدينة فى الفترة من القرن ٨هـ/١٤م ولكنه يشبه شواهد القبور التى ترجع إلى القرن

١١هـ/١٧م والموجود أمثلة مؤرخة منها فى مقبرة باعلوى ومقابر صلالة الأخرى.

(٤٤) د. معاوية إبراهيم، د. محمد عبد الستار عثمان، د. عاطف عبد السلام، حفريات جامعة السلطان قابوس. البليد –صلالة [تقرير أولى] تحت النشر ص٥.

(٤٥) محمد بن عبد الله الدفاع: عمارة المساجد فى مرتفعات جنوب غرب المملكة العربية السعودية أنماطها المعمارية وتأثيرها بمسجد الرسول ﷺ بحث بالمجلد الثانى من سجل ابحاث ندوة عمارة المساجد، نشر كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، ١٩٩٩، المجلد الثانى، ص٨٠.

(٤٦) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٧.

(٤٧) رواية شفهية عن الأستاذ عوض عيسى أحمد- المدير السابق للآثار بمنطقة ظفار.

(٤٨) هذا الأسلوب يسمى بالترويس والترويس هو بناء الزوايا أو عضادات المدخل والنوافذ بأسلوب معين يساعد على متانتها سواء بمادة البناء المستخدمة فى المبنى أو بمادة أخرى أكثر متانة.

(٤٩) كوستا: المرجع السابق، لوحة (٤).

(٥٠) رواية شفهية للاستاذ عوض عيسى أحمد الذى يرتبع نعتبه كما ذكر إلى الشيخ محمد بن أبى بكر.

(51) Guest, Op. Cit., p. 408.

(٥٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٧.

(٥٣) رواية شفهية عن الاستاذ عوض عيسى، مدير الآثار السابق بمنطقة ظفار.

(٥٤) كوستا: دراسة لمدينة ظفار البليد، ص ص ١٦-٢٣.

(٥٥) ولد المظفر عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م وتوفى فى رمضان عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م عن عمر يبلغ حوالى أربعة وسبعين سنة وعشرة أشهر، وتجمعت فيه كل الخصال الحميدة، وكان محبا للعمارة فقد أنشأ فى تعز مدرسة ومسجدا ودار الضيف بذى عينيه وخانقاه فى مدينة حيس وجامع فى مدينة المهجم وجامع فى واسط المجالبة بالاضافة إلى مدرسته فى ظفار الحبوضى [الخزرجى: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٥-٢٧٩).

(٥٦) كانت امرأة صالحة تقية بارة بأهلها محببه إلى من لاذ بها حصل وبين أخيها المؤيد وبين أخيها الناصر من الأشرف ما حصل من الخلاف، مستوحش منها المؤيد وأمر بأن تسكن مغربية تعز بعد أن كانت قبل ذلك فى حصن تعز وله آثار معمارية عديدة منها مدرسة بناحية المغربية فى تعز، ومسجد فى صبر بالاضافة إلى مدرستها فى ظفار الحبوضى [القاضى اسماعيل الأكوع: المدارس اليمنية، بيروت، دار الرسالة، ١٩٨٦، جـ١، ص ١٩٦].

(٥٧) الخزرجى [على بن الحسن] العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، نشر وتصحيح وتنقيح محمد بسيونى عسل، بيروت. دار صادر ١٩١١، جـ١، ص ٢٧٦،

اسماعيل على الأكوع: المرجع السابق، جـ١ ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٥٨) الخزرجى: المصدر السابق، جـ١ ص٢٧٥.

(٥٩) كوستا: المرجع السابق، ص ٤٣.

(٦٠) محمد سيف النصر: المرجع السابق، ص ١١٧.

(٦١) الأكوع : المرجع السابق، ص ١٤-١٧.

(٦٢) محمد سيف النصر، المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية، مجلة الاكليل، ص ١١٧-١١٨

وللاستزادة راجع: القاضى اسماعيل الأكوع: المرجع السابق، ص

(٦٣) الأكوع : المرجع السابق، ص ١٨.

(٦٤) الخزرجى: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٦٥) احدى البلاد باليمن.

(٦٦) الخزرجى: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٩٦.

(٦٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨٧.

(٦٨) كوستا: المرجع السابق، ص ٦١.

(٦٩) كوستا: المرجع السابق، ص ٦٤.

(70) Guest. Op. Cit., p.

(٧١) قام بالبحث المهندس عمر الفاروق وجون نورتون بأرض التجارب معهد البناء بالقاهرة، وكان التوجيه بالنسبة للشمس ثابتاً فى الثلاث حالات.

(٧٢) مجدى عبد العزيز: دراسة تحليلية لبعض القصور والدور بالقاهرة، ماجستير مقدم لكلية الفنون الجميلة، ١٩٧٤، ص٢١٦.

(٧٣) أبى مخرمة: المصدر السابق، ص‌ص ٩-١٠، ص٤٥، ص١٥١.

(٧٤) للاستزادة راجع خالد بن أحمد العليان: البيوت القديمة فى محافظة ظفار، المطـابع العالمية، روى، مسقط، ١٩٩٤م

(٧٥) توجد مقالع للأحجار شمال مدينة ظفار بحوالى ٢٥ سم مازالت مسـتخدمة حتـى الآن.

(٧٦) العمرى [شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ت ٧٤٩] مسالك الأبصار فـى ممالك الأمصار "ممالك مصر والشام والحجاز واليمن" تحقيق ايمن فؤاد السيد، نشر المعهد العلمى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٥م ص١٥٧، القلقشندى [أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م] صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، القاهرة ١٩١٩م، جـ ص٧.

(٧٧) قام الباحث على أحمد الشحرى بتحضير العديد من هذه المواد فى معمـل خـاص بسيادته فى مدينة صلالة وقد قمنا بزيارة هذا المعمل بدعوة كريمة من سيادته.

(٧٨) الصاروج أو الصهروج هو النورة وأخلاطها تطلى بها الحياض والحمامات وهـو بالفارسية جاروف عرب فقيل صاروج وربما قيل شاروق وصرجها به أى طلاهـا [الجوهرى] اسماعيل بن حماد. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، جـ٢ ص٦١٩.

(٧٩) عادل غباشى: مصانع النورة بمكة المكرمة حتى نهاية العصـر العثمـانى، مجلـة الداره، العدد الأول، ١٤١٨هـ السنة الثالثة والعشرون، ص٧٢.

(٨٠) عادل غباشى: المرجع السابق، ص٧٠.

الفصل الثالث

المعثورات الأثرية فى مدينة ظفار

لقى أثرية من مدينة ظفار

كشفت التنقيبات الأثرية[١] التى أجرتها البعثات الأثرية المختلفة التـى قامت بالتنقيب فى ظفار عن كثير من المعثورات واللقى الأثرية وتكشف هذه المعثورات من جوانب حضارية مهمة تتصل بتـاريخ المدينـة ونشاطاتـها الاقتصادية وتتنوع هذه المعثورات ومن أهمها الفخار والمسكوكات والزجاج والعظم والأصداف [شكل ٢٣ (١-٣)] وغيرها، وتتشابه نوعيات هذه المواد التى كشفت عنها البعثات الآثارية التى عملت فى مدينة ظفـار. وسـنعرض بإيجاز لبعض هذه المعثورات التى كشف عنها اثناء تنقيبات جامعة السلطان قابوس قسم الآثار لكشف الدلالات الحضارية لها فى إطار هذه الدراسة عـن مدينة ظفار.

الفخـــار:

كشفت الحفريات التى أجريت بمدينة ظفار القديمة عن كميات كبيرة من الكسر الفخارية التى ترجع إلى العصر الإسلامى، ويمكن تصنيف هذه الكسر إلى نوعين رئيسيين أحدهما يتمثل فى الفخار المحلى والنوع الثانى عبـارة عن نوعيات متنوعة من الفخار المستورد.

والفخار المحلى عبارة عن شقافات من قدور للطهى وجرار وأوانى المائدة وأوانى الشرب، ويمكن تصنيفه إلى نوعيتين. النوعية الأولى مصنوعة من عجينة تميل إلى اللون الأحمر وخشنة كبيرة المسام، وقد زخرفت بعض القطع بطريقة الحز وهذا النوع من الفخار نسبته كبيرة إذا ما قورن بالقطع الفخارية المحلية التى تنتمى إلى النوع الثانى من الفخار المحلى [شكل ٢٠، لوحة ١٧] وكذلك نوعيات الفخار المستورد [لوحة رقم٣].

والنوع الثانى من الفخار المحلى أيضاً غير مطلية لكن عجينة ناعمة دقيقة المسام وبلون يميل إلى الحمرة أيضاً وتزخرف بعض القطع زخارف مرسومة بلون أحمر فى هيئة خطوط زجزاجية [شكل ٢١، لوحة ١٨] ومعينا وهذا النوع من الفخار وجده ما يشبهه فى كلوة فى شرق إفريقية وتم تأريخه بالفترة المحصورة بين القرنين ١٥م–١٦م، كما عثر على نماذج مشابهة له فى السنوية ترجع إلى بداية العصر العثمانى.

أما الفخار المستورد فيمكن تصنيف ما عثر عليه من كسر إلى النوعيات التالية:

فخار مطلى بلون واحد أزرقBlue Under glaze Pottery أو بلون اصفر أو أبيض وعجينة بيضاء وهذه النوعية من الفخار تشبه الفخار الذى صنع فى ايران فى الفترة المحصورة بين القرنين ٦-٨هـ/ ١٢-١٤م [لوحة رقم ١٩].

كذلك عثر على نوعية مشابهة من الفخار بلون بنى غامق أو اللون الأخضر المائل للبنية أو المائل للون الرمادى لكن عجينتها تميل إلى اللون

الرمادى. وهذا النوع له نفس مواصفات الفخار الذى كان يعتقد أنه كان يستورد من إقليم Klin وهو نوعية رديئة من السلادون.

وعثر أيضا على نوعية جيدة من خزف السلادون الصينى الجيد ذات لون أخضر أو رمادى تحضر بطلاء زجاجى شفاف وهذه النوعية من الخزف أنتجت فى عهد أسرة منج وانتشرت فى القرن ١٤م.

كذلك عثر على قطع من البورسلين الصينى المرسوم بزخارف نباتية بلون أزرق تحت الطلاء وفى ضوء القطع المؤرخة المشابهة يمكن ارجاع هذه القطع إلى القرنين ١٤-١٥م [شكل ٢٢، لوحة رقم ٣].

وتكشف أنواع الفخار المستورد التى سبقت الإشارة إليها عن أن هذه النوعيات كان بعضها يرد من إيران أو العراق فى شرق وشمال الخليج وهما من البلاد الإسلامية التى اشتهرت بانتاج أنواع جيدة من الفخار المطلى التى كانت تصدر إلى الخارج ووجود هذه النوعية من الفخار المطلى ذو العجينة البيضاء تدلل على أن ظفار كانت تصل إليها هه النوعية من الفخار الايرانى أو العراقى، وقد سبق أن أشرنا إلى أن ظفار كانت ترتبط ببغداد بطريق برى يبدأ من ريسوت جنوب مارا بظفار فمرباط فالاحساء فبغداد. وأن الفخار كان من بين السلع التى كانت ترد من العراق فى إطار التبادل التجارى الذى كان يربط منطقة ظفار ببغداد حيث كان ظفار تصدر لها البر[٢] بالإضافة إلى عديد من السلع الأخرى التى ترد اليها.

ويلاحظ أن هناك بعض القطع المطلية بلون بنى تحت الطلاء لكن عجينتها خشنة والمستوى التقنى لها اقل من مستوى الإنتاج الصينى المشابه وهى فى الغالب تقليد لخزف Klin الصينى وربما كانت هذه القطع من إنتاج

اليمن التى اشتهرت بتقليد الأوانى الخزفية الواردة من الصين فى عهد أسرة منج، وقد قامت اليمن بانتاج هذه النوعية من الخزف وتصديرها إلى مصر وغيرها، وربما وردت هذه النوعية من الفخار إلى ظفار فى إطار العلاقات التجارية التى كانت تربط بين اليمن وظفار وبخاصة فى عهد الرسوليين.

وتعكس الأنواع المتعددة من فخار أسرة منج والتى عثر عليها فى ظفار العلاقات التجارية الوطيدة بين ظفار وبلاد الصين حيث كان الفخار الصينى بأنواعه الشهير كالسلادون والبورسلين من أهم السلع التى يجلبها التجار العمانيون[٣]، حيث كانت هذه النوعيات من الفخار تلقى رواجاً كبيراً فى الشرق والغرب على السواء وقد عثر على كميات كبيرة منه، كذلك فى موانى شرق أفريقيا وفى مصر وغيرها بما تؤكد هذه الشهرة وذلك الانتشار. ويبقى التشابه بين الفخار المحلى المزخرف باللون الأحمر فى رسومات زجاجية وأشكال المعينات والتى عثر على ما يشابهه فى قلوة نوعاً منهما من الأدلة المادية الدالة على وجود علاقة وثيقة بين كلوة وظفار فى القرنين ١٥-١٦م، ولكن هذه النوعية من الفخار مازالت تحتاج إلى دراسة متأنية لتحديد موضع بداية ظهورها ومواطن انتاجها الأصلية.

المسكوكـــــــات:

تعتبر المسكوكات من أهم الوثائق المادية التى تعكس كثيرا من الملامح السياسية والاقتصادية للدول، كما أنها يمكن أن تساعد فى تحديد عمران المدن ونشأتها، ومن هنا تبرز أهمية العثور على قطع من المسكوكات فى مدينة ظفار. وقد أشار كوستا إلى عثوره فى مدينة ظفار عن قطع من المسكوكات اوضحت دراستها المبدئية أن مدينة ظفار قد ظهرت إلى حيز الوجود فى أوائل القرن الثانى عشر بعد الميلاد[٤]. كذلك أشار إلى انه عثر

على قطع كثيرة من المسكوكات البرونزية تعود إلى سلالة اسرة منج [من ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م إلى ١٠٥٤/ ١٦٤٤م]، وذلك فى المنطقة التجارية لمدينة ظفار والتى تقع فى الشرق منها[٥].

وقد أشار ابن بطوطة إلى العملة المحلية التى كان يتعامل بها أهل مدينة ظفار فقال "إن دراهم[٦] هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها"[٧]. ويشير هذا النص إلى معانى عدة منها وجود مسكوكات محلية نحاسية "فلوس" كان التعامل بها مقصوراً على ظفار[٨]، ويعنى ذلك أيضاً أن هذه الفلوس كانت تضرب فى مدينة ظفار فى دار ضرب خاصة بها، كذلك يوحى هذا النص بأن حكام وتجار مدينة ظفار كانوا يتعاملون بمسكوكات الدول الأخرى التى تربطهم بهم علاقات تجارية كالمسكوكات الصينية التى عثر بالفعل على نماذج منها [لوحة رقم ١].

وقد عثر على بعض القطع من المسكوكات النحاسية [لوحة رقم ٥] يبلغ عددها ست قطع مازالت تحتاج إلى عمليات التنظيف الكيميائى الدقيق حتى يمكن قراءة ما عليها من كتابات تساعد على التعرف على مصدرها وأماكن ضربها واسماء الحكام المسجلة عليها. وبصورة مبدئية فإن قطعة واحدة من هذه القطع الست يمكن قراءة بعض الحروف العربية عليها كحرفى الميم والدال بما يشير إلى أنها مسكوكات عربية إسلامية.

وإذا كانت هذه القطع النحاسية من المسكوكات الظفارية تؤكد ما ذكره ابن بطوطة من أنها كانت عملة محلية قصر التعامل بها على مدينة ظفار، فإن هذا لايمنع من وجود مسكوكات أخرى جرى التعامل بها باعتبارها عملة رسمية مثل الدينار، وقد ذكر الخزرجى ما يؤكد لك حيث أشار إلى أنه عندما زار مدينة ظفار ولد أحمد الرفاعى تلقاه "السلطان بالاجلال والاكرام فأقام

عنده ثلاثة أيام في الضيافات النفيسة وكان يرسل له في كل مدة الضيافة بألف دينار ملكية"[٩]. ولا نعرف بالضبط الصفة الرسمية لهذه الدنانير فهل هي من ضرب الرسوليين في اليمن أم أنها كانت من ضرب سلاطين ظفار في إطار محاولتهم للاستقلال عن الدولة الرسولية في إطار التبعية الاسمية لهم وفي صورة تماثل ما فعله حكام الدول المستقلة استقلالاً إسمياً عن الدولة العباسية كالدولة الطولونية أو الاخشيدية بمصر وغيرها(؟) وتبقى الإجابة على هذا السؤال مرهونة بما لعله يكشف في المستقبل من دنانير في ظفار أو غيرها لتؤكد هذا التصور أو تنفيه.

وهنا تجب الإشارة إلى توفر الذهب اللازم لضرب الدنانير عن طريق التجارة حيث كان الذهب أهم بضاعة وأثمنها في قائمة التبادل التجاري العماني، وكان التجار العمانيون يجلبون الذهب من شرق إفريقية ومن بلاد الهند والشرق الأقصى عامة[١٠]. ولكن مع توطد العلاقة بين عمان وشرق إفريقيا زاد الإهتمام باستخراج الذهب من منطقة سفالة وبدأ هذا الإهتمام في عهد الأسرة النبهانية التي استطاعت أن تخضع معظم ساحل الزنج تحت لوائها[١١] ابتداء من القرن ١٣م مما ساعد بلاشك على توفر كميات كبيرة من الذهب تناولها التجار العمانيون في اطار نشاطهم التجاري المزدهر في هذه الفترة وجعلها مصدراً متاحاً يغذي دور الضرب التي سكت المسكوكات الذهبية ودعمت من جهة أخرى حركة التبادل التجاري بين المغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط من جهة والشرق الإسلامي من جهة أخرى[١٢].

الزجاج

عثر في البليد "ظفار القديمة" على قطع من الزجاج عبارة عن أجزاء من قنينات وأواني زجاجية[١٣] وهي من الزجاج الأبيض، وبعضها يميل لونه

إلى الزرقة، وهذه القطع في الغالب قنينات للعطور أو أجزاء من كؤوس زجاجية استخدمت كأدوات للشرب.

كذلك عثر على العديد من القطع الزجاجية التي تمثل أجزاء من أساور وهذه القطع يمكن تصنيفها إلى نوعين، النوع الأول عبارة عن قطع من أساور زجاجية لدنة بعضها يميل إلى اللون الأزرق وبعضها أبيض ومزخرفة بخطوط دقيقة ملونة باللون الأخضر والأحمر والأصفر وبهيئة مائلة على السطح ذو القطاع نصف المستدير للأسورة من الخارج. والزجاج المصنوعة منه هذه النوعية من الأساور يميل إلى الشفافية [شكل ٢٣ (٤-٥)، لوحة رقم ٢].

أما النوع الثاني فعبارة عن قطع من أساور زجاجية صلبة خالية من الزخارف من زجاج أزرق معتم صناعته لاتصل إلى مستوى جودة النوع السابق.

ولعدم وجود أدلة على وجود صناعة محلية للزجاج في منطقة ظفار أو في المدينة ذاتها فإن الاحتمال الأرجح أن هذه القطع استوردت من خارج ظفار. ويتجه البحث عن مصدر هذه القطع اتجاهين في ضوء ما ورد في المصادر وما عثر عليه من منتجات زجاجية مشابهة، فهناك احتمال قائم لأن يكون الزجاج من بين السلع المستوردة من الصين وبخاصة وأن المصادر العربية تشير إلى أن الزجاج كان من بين السلع التي جلبها النواخذة العرب من الصين[١٤]، والاحتمال الثاني هو أن هذه المنتجات الزجاجية وردت من اليمن حيث اشتهرت بلدة اللخبة[١٥] قرب عدن بانتاج الزجاج[١٦]. كما كان الزجاج بصفة عامة كان من بين منتوجات الساحل الحضرمي[١٧]. وكانت صناعته وصناعة الفخار من بين الصناعات الرائدة والمزدهرة في هذه

الفترة المعاصرة لفترة إنشاء مدينة ظفار وازدهارهـا. ويبدو أن مصانع الزجاج في اليمن كانت تحاول تقليد الزجاج الصيني الذي كان يستورد بواسطة التجار العرب- كما أشرنا- ويدلل على ذلك ما ورد في أحد المصادر الصينية من أن "العرب في هذا الإقليم قد استخدموا طرقاً مشابهة في صهر الزجاج لكي يشبه في ذلك الزجاج الصيني غير أنهم كانوا يضيفون البواركس لكي يجعلوا الزجاج أكثر مرونة (لينا) [١٨]. وقد أشار مصدر صيني إلى سمة أخرى من سمات هذا الزجاج الذي ينتج في اليمن فذكر "أن الزجاج المعتم من بين منتوجات الساحل الحضرمي للجزيرة"[١٩].

وفي ضوء هذه الحقائق يتضح أن المنتجات الزجاجية اليمنية تختلف في صفاتها عن المنتجات الزجاجية الصينية في كونها معتمة وفي تضمين عجينتها مادة البوراكس التي تجعلها مرنة.

وقد عثر في "موقع Kawad am- Sailah في سهل عدن على كميات من الزجاج تشتمل على قطع من الزجاج الأخضر اللون، ويمتاز الزجاج الذي عثر عليه في هذه المنطقة بخطوطه الضيقة أما من حيث الشكل فإن أكثر القطع التي عثر عليها تلك الأساور التي يبدو أن مصانع الزجاج في عدن قد تخصصت في إنتاجها"[٢٠].

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن الأساور الزجاجية تمثل نسبة كبيرة من المعثورات الزجاجية التي عثر عليها في مدينة ظفار [لوحة ٢] وفي غيرها من المواقع التي تم مسحها أثرياً أو أجريت فيها بعض التنقيبات في منطقة ظفار كعين حمران وشصر والتي أمكن تأريخها بالقرن الرابع عشر الميلادي وهو ما يشير إلى أن استيراد هذه النوعية من الحلي الزجاجية

وانتشار تجارته كان رائجاً في منطقة ظفار كلها بل ان العثور على هذه الأساور وفي مواقع كعين حمران وشصر يدل على الروابط التجارية التي كانت تربط المناطق الداخلية في إقليم ظفار بمناطق الساحل تلك الروابط التي ظلت مستمرة حتى القرن ٩هـ/١٥م[٢١].

وتشير المصادر العربية[٢٢] والوثائق الصينية[٢٣] إلى أن العطور واحدة من السلع المهمة التي كانت تستوردها الصين من منطقة ظفار، ويرجح كوستا أن ما عثر عليه من بقايا زجاجات للعطور في منطقة المسجد الجامع مرتبط بهذه التجارة والدليل الأثري عليها[٢٤].

هوامش الفصل:

(١) من هذه التنقيبات منقبات البعثة الأمريكية، وتنقيبات بادلو كوستا وتنقيبات جامعة السلطان قابوس فى موسم ١٩٩٦م التى قام بالاشراف عليها معاوية ابراهيم، د/ محمد عبد الستار عثمان، عاطف عبد السلام بمشارك طلاب قسم الآثار بجامعة السلطان قابوس.

(٢) ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٦٨.

(٣) سحر السيد عبد العزيز سالم: عُمان وطرق القوافل، ص٤٧، نعيم زكى: المرجع السابق، ص٣٦٣.

(٤) كوستا: ص٦٢

(٥) كوستا: ص١٣٨

(٦) يقصد هنا بكلمة الدراهم العملة لأن المعنى المحدد للدراهم هى المسكوكات المصنوعة من الفضة.

(٧) ابن بطوطة، ص٢٨٥.

(٨) أشار المقدسى إلى أن العملة التى كانت متداولة فى عُمان فى عهده تسمى "الطسوة" وسمى هذه العملة يشوبه الغموض حيث لم يذكر المقدسى معدنها أو عيارها [محمد أبو الفرج العش، النقود العمانية، سلسلة دائرة التراث والثقافة، ص٢٧].

(٩) الخزرجى: المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٨.

(١٠) حبيب الجنحانى، دور عُمان فى نشاط التجارة العالمية فى العصر الإسلامى الأول، مجلة حصاد، جـ٣ ص٥٧.

(١١) رأفت غنيمى: دور عُمان فى باء حضارة شرق إفريقية ، حصاد، جـ٣ ص.ص ١٥١-١٥٢.

(١٢) الجنحانى: المرجع السابق، ص٥٧.

(١٣) عثر على هذه القطع فى التنقيبات التى قام بها كوستا، وجامعة السلطان قابوس، قسم الآثار موسم ١٩٩٦.

(١٤) سحر: طريقة القوافل ص٣٨

(١٥) اللخبة بلام ثم خاء معجمة ثم موحدة مفتوحات ثم هاء، قال الصنعانى فى التكملة لخبة بالتحريك موضع بظاهر عدن أبين وضواحيها وذكر صاحب المستبصر فى

تاريخه بناها الأمير أبو عمر عثمان الزنجبيلي وذكر أن منها إلى عبدن فرسخين وربع وأن منها ينقل الأجر والزجاج إلي عدن وكانت قرية عامرة بها دكاكين ومعاصر [للاستزادة راجع أبى مخرمة : المصدر السابق، ص ص ٢١-٢٢].

(١٦) أبى مخرمة: المصدر السابق ص ٢٢.

(١٧) ربيع حامد خليفة: المرجع السابق، ص٢١٦.

(١٨) ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٢١٦.

(١٩) ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٢١٧.

(٢٠) ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٢١٧.

(٢١) بوريس زاريتز: المرجع السابق، ص١١.

(٢٢) ابن خرداذبة: ص٦١، سحر : طريق القوافل ص٣٨.

(٢٣) كومستا: الشواهد الأثرية ص١٣٧-١٣٨.

(٢٤) كومستا: المرجع نفسه، ص١٣٨.

الباب الثالث
مقبرة الرباط ونماذج من شواهد القبور بها

الفصل الأول

مقبــــرة الربـــاط

مقابر ظفار:

تشتمل صلالة حالياً على العديد من المقابر منها مقبرة الحداد والربـــاط والبليد والجوف ومقبرة بَتَى عفيف (صلالة الوســطى)، ومقــبرة بــاعلوى (صلالة الغربية) ومقبرة عقاد. كذلك توجد مقابر أخرى فى المدن الأخـــرى بمنطقة ظفار أو المنطقة الجنوبية بسلطنة عُمان من أهمها مقبرة مربــــاط[١] وطاقة.

ومن أهم المقابر التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بمدينة ظفار مقبرة الرباط باعتبارها المقبرة الرئيسية للمدينة طوال فترات تاريخها حتى عهد الكثيرين، وان استمر الدفن فيها إلى ما بعد ذلك، ومقبرة أخرى خارج السور الغربـــى لمدينة ظفار والتى تعرف "بمقبرة البليد" والمقبرة التى تقــع داخــل أســوار المدينة مجاورة ومحيطة بالمسجد الذى أطلق عليه المسجد الجنائزى ارتباطاً بهذه المقبرة، وقد سبقت الإشارة إلى كل من المقبرة داخــــل مدينــــة ظفــــار والمقبرة التى تقع خارج السور الغربى لها وذكرنا أنهما متأخرتين، أما مقبرة الرباط فهى التى ترتبط بتاريخ معظم فترات تاريخها المزدهر.

مقبرة الرباط :

ذكر كوستا وصف ميلز لمقبرة الرباط، وأشار إلى أن هـــذا الوصـــف يتضمن معلومات مثيرة منها أن كان يوجد قبرين أو ثلاثة من قبور المقـــبرة تنتمى إلى المنجويين، وعلى شاهد منهم تاريخ سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م. وكان

هناك العديد من قبور سلاطين ظفار حيث كان لأحد تلك القبور نقشاً جميلاً على حجرين من الرخام على أحد الحجرين يمثل النقش على حجر الرخام مصباحاً معلقاً بواسطة سلسلة بينما يمثل النقش الآخر ثلاثة مصابيح"(٢).

وتتجسد أهمية هذا الشاهد الذى يرجع إلى عهد المنجويين فى أنه يشير إلى أن مقبرة الرباط كانت قائمة فى العقد الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى واستمرت كمقبرة أساسية لمدينة ظفار بعد ذلك فى عهد الحبوضيين والرسوليين والكثيريين حتى آلت المدينة إلى الخراب. وظهرت صلالة كمدينة بديلة ضمت مقابر أخرى للقبائل والحكام. مثل مقبرة باعلوى التى ضمت ثلاثة من نسل الزعيم الكثيري بدر بن طويرق(٣). ولكن هذا لم يمنع أن تستمر بعض القبائل فى الدفن بمقبرة الرباط كما تعكس ذلك بعض شواهد القبور التى ترجع إلى القرنين ١١-١٢هـ/ ١٧-١٨م.

ومقبرة الرباط تشغل مساحة شاسعة من الأراضى وتعتبر هى ومقبرة الأئمة بنزوى ومقبرة مرباط من أهم المقابر الإسلامية على وجه الاطلاق لما تشتمل عليه كل نها من شواهد قبور تعكس تاريخ هذه المدن لعدة قرون متتالية.

ولما كان الدفن عادة فى هذه المقابر يتم فى لحود تحفر لكل فرد على حدة فإن استمرار المقبرة الواحدة لعدة قرون يعنى بصورة مباشرة اتساع نطاق المساحة التى تشغلها هذه المقبرة أو تلك اتساعاً كبيراً يجمع لحود كل المتوفين المدفونين لعدة قرون تمثل تاريخ المقبرة.

ومقبرة الرباط تحتاج إلى مسح أثرى دقيق يسجل ويوثق ما بقى من شواهد القبور، كما أن الرفع المساحى والمعمارى لهذه المقبرة يساعد كثيراً فى تحديد مراحلها زمنياً. ولاشك أن انجاز هذا المسح الأثرى من شأنه أن

يزود الباحثين بمعلومات كثيرة عن مراحل الدفن بهذه المقبرة واتجاهات توسعها، كما أن دراسة شواهد القبور بعد توثيقها تزيد معرفتنا بأسماء المدفونين وقبائلهم وألقابهم ووظائفهم وهى معرفة تضيف كثيراً إلى تاريخ مدينة ظفار حيث أن هذه الشواهد تعتبر مصادر أصيلة لتاريخ هذه المدينة.

ودراسة شواهد القبور أيضاً من حيث شكل نقوشها وزخارفها وأشكالها تسد فراغاً فى دراسة الخط العربى بصفة عامة وسلطنة عُمان على وجه الخصوص وبخاصة وأن المقبرة تشتمل على روائع من نماذج خط الثلث فى مرحلة مهمة من تاريخ تطوره ونضجه وهى الفترة المحصورة بين القرنين ٧-٩هـ/ ١٣-١٥م. كما أن دراسة هذه الشواهد ومقارنتها بالشواهد الأخرى فى مقبرة مرباط والمعاصرة لها فى مقبرة الأئمة بنزوى سواء من ناحية الشكل أو من ناحية مضمون النقوش تجسد بوضوح جهود العمانيين فى تشكيل الخط العربى ودورهم فى تطويره وهى حلقة مازالت غائبة عن دراسات الكتابات العربية الاسلامية(٤).

وفى إطار ما سبق يتضح مدى أهمية توثيق مقبرة الرباط لتاريخ مدينة(٥) ظفار بصفة خاصة ولا سلطنة عُمان بصفة عامة.

ومقبرة الرباط حالياً تنقسم إلى قسمين أحدهما داخل أسوار قصر الرباط وساعد ضم هذه المقبرة داخل أسوار القصر على حفظها وحفظ شواهدها من نقلها إلى خارج البلاد، كما حدث من نقل لشاهد قبر الشيخ محمد بن أبى بكر، وشاهد السلطان الواثق. لكن يبقى توثيق هذه المقبرة علمياً من أهم المشروعات التى تساعد فى الحفاظ عليها من منظور علمى يحفظ للباحثين والدارسين ما تحتويه من شواهد وعناصر معمارية أخرى تمكنهم من

دراستها، ولاشك أن هذا التوثيق يمهد للحفاظ على هذه الشواهد من عوامل التعرية التى تؤدى إلى تآكل نقوش الشواهد، ويمكن جمع هذه الشواهد ووضعها فى متحف خاص واستنساخ نسخ منها لوضعها فى مواضعها الأصلى على قبور أصحابها. وبذلك نحفظ الأصل وتبقى على الشواهد المستنسخة دالة على مواضع القبور للتعرف على اصحابها وتأكيد جوانب أخرى مهمة من الجوانب المعرفية الخاصة بهذه المقبرة.

وقد تآكلت كثير من شواهد القبور وتهدمت حدود كثير من المقابر بفعل عوامل التعرية فى هذا القسم الأول من المقبرة داخل أسوار الرباط لكن مازالت هناك مجموعات كثيرة من الشواهد محتفظة بمواضعها الأصلية على قبور أصحابها منها ما يحده سور خاص كتلك المجموعة من القبور التى تقع على بعد حوالى ٥٠٠ متراً إلى الشمال الغربى من مسجد محمد بن أبى بكر، ومنها مجموعة أخرى من القبور وشواهدها تقع إلى الغرب مباشرة من المسجد المذكور وتضم قبور كثير من العلماء والفقهاء والشيوخ من أبرزهم "الشيخ الكبير مدافع بن أحمد اليمنى المعينى والشيخ محمد بن أبى بكر"(٥).

كما بقيت آثار جدران لمنشآت معمارية كانت تعلو القبور مبنية أساساتها بالحجر، ولسنا نعرف على وجه التحديد الشكل المعمارى لهذه المنشآت فهل كانت قباباً كما هو الحال فى بعض قبور مرباط، أم كانت اسوار أو حوائط مرتفعة كما هى العادة فى أحواش الدفن، أم أنها كانت مظلات مفتوحة تعلو المقبرة مثلما كان فى عدن(٦).

والقسم الثانى من مقبرة الرباط يضم مقابر الرسوليين والكثيرين ويشتمل على روائع من الشواهد والكتابات التى تمتد من خلال أشرطة حول تركيبة القبر ويبدو أن بعضها أيضاً كانت تعلوه منشآت معمارية كالأضرحة ذات القباب أو تحيط بها اسوار كالأحواش أو مظلات مفتوحة، وبصفة عامة يمكن أن نسجل الملامح التالية لمقبرة الرباط:

١- أن الدفن بها بدأ على الأقل قبيل سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م.

٢- استمر الدفن بها إلى عهد قريب برغم انشاء مقابر أخرى فى صلالة.

٣- يلاحظ تجاور قبور أفراد القبيلة الواحدة بما يشير إلى أن هذه السمة القائمة حالياً فى صلالة تمتد اصولها إلى العصور الوسطى.

٤- تشتمل المقبرة على قبور علماء وشيوخ جاءوا للاقامة أو زيارة مدينة ظفار فى العصور الوسطى لشهرتها مثل الشيخ مدافع بن أحمد اليمنى المعينى الذى جاء من بلاد اليمن ومات فى ظفار ودفن فى مقبرتها الرباط [لوحة ٢١].

٥- يلاحظ أيضاً تجاور مقابر الشيوخ والعلماء باعتبارهم فئة من الفئات التى كان تفضل أن تتجاور قبورهم وهذه السمة كانت شائعة فى العصور الوسطى(٧)، ونلحظ ذلك فى المنطقة التى تقع إلى الغرب مباشرة من مسجد محمد بن أبى بكر.

٦- يلاحظ أن شواهد القبور منقوشة على نوعية من الحجر الجيرى غير دقيق المسام الذى يسهل الحفر عليه والذى يتآكل بسرعة بواسطة عوامل التعرية، ولذلك فإنه يلاحظ أن كثيراً من الشواهد قد تآكلت كتاباتها الظاهرة بينما حفظت أجزاؤها المطمورة.

٧- تنوعت اشكال شواهد القبور فمنها ما هو مستطيل ومنها ما هو نصف مستدير من أعلى فى هيئة العقد نصف المستدير أو المدبب أو الذى

يشبه جدوة الفرس ومنها ما هو مسنن من أعلا فـي هيئـة الشرافـات المثلثة الشكل، وهناك اشكالاً أخرى عديدة [لوحة رقم ١٦].

٨- تنقش الكتابات على وجه الشاهد وأحيانا على ظهره وفي بعض الشواهد إذا كانت سميكة تنقش جوانبها وأعلاها أيضاً.

٩- تضم بعض القبور كتابات على الألواح الحجرية التي تشكـل جوانـب القبر وغالباً ما تكون نصوصاً قرآنية [لوحة رقم ٢٣ أ - ب].

١٠-تكاد تكون النقوش الكتابية البارزة هي السمة الأساسية في تنفيذ الكتابات على الشواهد وهذا الأسلوب رغم صعوبته في التنفيذ إلا أنه هو السائد، ولكن يبدو أن طبيعة نوعية الحجر كما ذكرنا تساعد على ذلك.

١١-يقسم سطح الشاهد إلى مناطق أفقية تفصل بينها خطوط بارزة يكتب بها سطر أو سطرين، وغالباً ما يكون نص الشاهد مبتدئا بشهادة التوحيـد والرسالة المحمدية ثم يلي ذلك إسم صاحب شاهد القبـر وفـي بعـض الأحيان يكتفى ببعض النصوص القرآنية وغالباً ما يكون النص "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"[٨]. وكثير من الشواهد تخلو من البسملة وتوجد أمثلة قليلة يبدأ بها النص القرآني.

١٢-تشتمل بعض سطوح الشواهد على عناصر زخرفية معمارية عبارة عن أشكال عقود ويمكن الاستفادة من هذه الأشكال في دراسة نوعية العقود التي كانت شائعة في العمائر المعاصرة [لوحة رقم ٢٠، ٢١].

١٣-تشتمل بعض الشواهد على عناصر زخرفية بنائية وهندسـية كالنجمـة السداسية وأشكال المشكاواه [لوحة رقم ٢١ب،٢٣] والثريات والمـآذن وغيرها وهي تعتبر ثروة زخرفية تكشف من "إبداع نقاش هذه الشواهد وتجسد من جهة أخرى عناصر الزخرفة المستخدمة في عصر إعـداد الشاهد وبعض الأدوات التي اشتملت عليها.

١٤-تجسد وضع الشواهد على القبر مضمونا يتصل بتحديد المساحة التـي يشغلها القبر وأيضا بنوع الشخص المدفون ذكرا كان أم أنثـى، فعـادة يتحدد القبر بحجرين عمودين فقط أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم، وهناك قبورا يحددها بالإضافة إلى هذين الحجرين سور حجري منخفـض أو سور مبني وهذا نادرا وإذا كان المتوفي رجلا وضع حجران علـى كل طرف، أما قبور النساء فإن بها حجرا إضافيا في الوسط. وإذا كانت المرأة توفيت أثناء الولادة يضاف حجران عموديان أصغر حجمـا إذا كان المولود ذكرا، أما إذا كان المولود أنثى تضاف عادة ثلاث أحجـار عمودية صغيرة.

هوامش الفصل:

(١) للاستزادة راجع جى أومين: دراسة تمهيدية عن النقــوش الإســلامية فــى صلالــة بالمنطقة الجنوبية، مجلة حصاد. وزارة التراث القومى والثقافة- سلطنة عمان، جــ٨ ص.ص ٧-١٠١.

(٢) كوستا: المرجع السابق، ص٦٥، نقلاً عن ميلز:

Miles. S. B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, Edinburh (New Edilition Published in 1966).

ولم أعثر فى الترجمة العربية لهذا الكتاب على هذه المعلومات.

(٣) أومين: المرجع السابق، ص١٣.

(٤) جاءت دراسة أومين سطحية وكذلك لم تتضمن دراسة جيست عن ظفار فى العصور الوسطى البعد الفنى الأثرى للشواهد التى عرض لها.

(٥) سنعود لدراسة شاهدى قبرهما.

(٦) ابن أبى مخرمة: المصدر السابق، ص٢٤٦.

(٧) السكرى: المصدر السابق، ص٧٥

(٨) قرآن كريم، سورة الرحمن آية:٢٦-٢٧

الفصل الثانى

نماذج من شواهد القبور فى مقبرة الرباط:

توجد فى مقبرة الرباط مجموعة رائعة من شواهد القبور سرق بعضها وبقى كثير منها فى مواضعه، وقد تخيرنا من هذه الشواهد ثلاثة نعرض لها بالدراسة، وأول هذه الشواهد شاهد قبر الشيخ محمد بن أبى بكر أحد أعـــلام مدينة ظفار وأحد المجاهدين فى الدفاع عنها وتركز على دراسة هذا الشـــاهد - كنموذج- فى إطار منهج تفصيلى يعرض لجوانب الشكل والمضمون، أما الشاهد الثانى فهو شاهد قبر الملك الواثق أول سلاطين مدينة ظفار الرسوليين وتركز الدراسة على التعريف بصاحب الشاهد وألقابه مع الربط بين ما ورد فى الشاهد من معلومات، وأشارت إليه المصادر عن حكام وسلاطين ظفـــار فى الفترة الرسولية، أما الشاهد الثالث فهو خاص بـــأحد العلمـــاء اليمنيـــن المشهورين فى الربع الأول من القرن السابع الهجرى[الثالث عشر الميلادى] وهو الشيخ مدافع بن أحمد الذى فضل أن يقضى بقية عمره فى مدينة ظفـــار بعيداً عن اضطهاد الحكام الأيوبيين فى اليمن والذى وجد فى مديـنـــة ظفـــار ملاذاً آمناً ومركزاً مشعاً للعلم والدين.

تعريف بالشيخ محمد بن أبى بكر صاحب الشاهد:

أشارت المصادر والدراسات التاريخية الحديثة إلى حادثة مهمـــة فـــى تاريخ ظفار وقعت سنة ٦٦٠هـــ/١٢٦١م وكان بطلها محمد بن أبى بكـــر، وهذه الحادثة تتلخص فى أن حاكم هرمز محمد بن أحمد الكوشى زحف من قلهات على ظفار غير أن محمد بن أبى بكر تمكن من رده على أعقابه، بعد أن قام بأعمال سلب ونهب فى المناطق الساحلية[1].

وقد أشار ابن بطوطة إلى الشيخ محمد بن أبى بكر فى حديثه عن زاويته التى أنشأها بين بساتين ظفار فى منطقة الامتداد العمرانى بمنطقة الرباط والتى سبقت الإشارة اليها. ومن حديثه هذا يتضح أن الشيخ محمد بن أبى بكر كان صالحاً عابداً، وكانت زاويته محل تقدير واحترام من السلطات فى مدينة ظفار، وكان يستجير بها المستجيرون فلا تقدر السلطات عليهم. ويكشف هذا عن إجلال السلطان لصاحب هذه الزاوية وتقدير الخاص والعام لها ولصاحبها.

ويبدو أن هذا الاجلال والتقدير لزاوية الشيخ محمد بن أبى بكر حتى بعد وفاته لم يأت من فراغ فصاحب هذه الزاوية هو الذى قاد حرب المقاومة ضد حملة محمد بن أحمد الكوشى تلك الحملة التى تعرضت جنودها للإبادة عندما عادوا إلى قلهات عن طريق البر.

وتجسد الألقاب الواردة فى نص شاهد قبر محمد بن أبى بكر جهاده فى حياته واعتصامه بدينه فقد ورد فى هذا النص أنه "الشيخ العابد الورع صائن الدين مخدار الإسلام" وتجمع هذه الألقاب بين شخصية تقية ورعة خاضت جهاداً ضد الأعداء مدافعه عن الإسلام وحرمته والوطن وعزته.

وتحسم هذه الألقاب مشكلة الخلاف التى وردت فى المصادر حول الفية اسم هذا الشيخ، فقد ذكر ابن بطوطة أنه "أبى محمد بن أبى بكر بن عيسى" وورد اسمه فى شاهد القبر "محمد بن أبى بكر بن سعد بن على الدارعيني". ويناقش جيست هذا الخلاف فيذكر أنه الشيخ الذى ورد اسمة فى شاهد القبر لاشك أنه هو الشخص الذى زار زاويته ابن بطوطة، ويبدو أن

الاختلاف فى الاسم الذى ورد راجع إلى خطأ فى نسخ مخطوط بن بطوطة[٢].

وهنا يجب الإشارة إلى أن الاسم الذى ذكره ابن بطوطة فى مخطوطته صحيحا حيث أن عيسى هو الجد الأعلى لمحمد بن أبى بكر[٣] وأن الاسم الذى ورد فى شاهد القبر ذكر الاسم إلى الجد الأقرب.

وقد أعقب الشيخ محمد بن أبى بكر ولدان هما أبى العباس أحمد وأبو عبد الله محمد ولما كان الأصل فى الكنية عند العرب، أن الرجل يكنى بما ولده فإن أحمد بن الشيخ محمد بن أبى بكر يكون قد أعقب العباس وأن محمد ابن الشيخ محمد بن أبى بكر قد أنجب عبد الله وبذلك يكون العباس وعبد الله حفيدى الشيخ محمد بن أبى بكر.

ويعلق جيست على قول ابن بطوطة بأنه كان فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابن الشيخ أبى بكر المذكور[٤]. بأن هذا النص يوحى بأنهما أولاد أبى بكر وليس كما ذكر فى الاسم الأول لأبيهما، وهو "محمد بن أبى بكر" والذى يعنى أن أبا بكر جدهما، ويذكر أن ابن بطوطة زار ظفار سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م أى بعد فترة قصيرة من موت محمد بن أبى بكر وهو ما يعنى امكان مقابلة ابن بطوطة لولديه كما تذكر الرواية[٥]. وواضح من نص ابن بطوطة أنه يعنى "بالشيخ أبى بكر" "محمد بن أبى بكر" ولا أدل على ذلك من تحديد ذكره بكلمة "المذكور" فالذى ذكر فى صدر النص هو الشيخ محمد بن أبى بكر.

دراسة شاهد قبر الشيخ محمد بن أبى بكر : لوحات [١٣أ ، ب، جـ]

عبارة عن لوح من الرخام فى هيئة مستطيلة وقطاعه العلـــوى يـــأخذ شكل العقد المدبب، وقد نقش نص الشاهد بالخط الثلث المحفور حفرا بـــارزا باتقان شديد، وقد نقشت كتابات الشاهد فى شريطخارجي فى وضـــع رأســـى يبدأ من الطرف السفلى الأيمن ويدور بدوران الشاهد، وهذا الشريط محـــدد من الجانبين بشريط ضيق، وهذا الشريص نص كتاباته "الله لا إلــه إلا هــو الحى القيـوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض مـــن ذا الذى يشفع عند إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم / وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يـــؤوده حفظـــهما وهو العلى العظيم لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغـــى فمـــن يكفـــر بالـــ/ـطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور"[٦].

ويلى هذا الشريط من الداخل شريطان جانبيان فى وضع رأسى أيضـــا يبدأ أولهما من الطرف السفلى الأيمن ونص كتاباته "شهد الله أنه لا إلــــه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الديـــن عند الله الاسلام"[٧]، ويستكمل النقاش هذا النص فى الشريط الأيسر بما نصه "وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومـــن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب"[٨]. ويفصل القطاع العلوى فى هيئـــة العقد المدبب عن القطاع المستطيل من الشاهد شريط كتابى فى هيئة أفقيـــة تبدأ كتاباته من فوق الشريط الرأسى الأيمن الداخلى وتنتـــهى أيضـــا فـــوق الشريط الرأسى الثانى الأيسر الداخلى، ونص كتابات هذا الشريط "الله لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم"[٩]. وأسفل هذا الشريـــط قسم

النقاش المساحة إلى تسع مناطق مستطيلة تفصل بينها أشرطة ضيقة بـــارزة خالية من الزخارف كذلك التى تفصل بيـــن الأشرطـــة الرأسـية. ويلاحـــظ اختلاف هذه المناطق من حيث الاتساع، فالمنطقة الثانية – من أعلـــى إلـــى أسفل- أكثرها إتساعاً تليها المنطقة الأولى أما المناطق من الثالثة إلى السابعة فمتساوية الاتساع تقريباً وأصغر نسبياً من المنطقة الأولى، والمنطقتان الثامنة والتاسعة متساويتان وأقل المناطق اتساعاً وقد نقشت وفى كل منطقة من هذه المناطق التسع سطر كتابى بالخط الثلث، ويلاحظ الاختـــلاف فـــى توزيـــع الكلمات والحروف فى كل سطر سيما وأن حجم النص الكتابى يختلف أيضاً وكذلك المساحة المتاحة كما اشرنا. ونص هذه الكتابات كما يلى:

السطر الأول بسم الله الرحمن الرحيم

السطر الثانى لا إله إلا الله محمد رسول الله.

السطر الثالث يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم[١٠]

السطر الرابع هذا قبر الشيخ الزاهد الورع

السطر الخامس العابد ضاين الدين مختار الاسلام محمد بن أبى بكر

السطر السادس ابن سعد بن على الدرعينى[١١] تغمده الله

السطر السابع بالرحمة والرضوان وأسكنه دار الجنان

السطر الثامن وكانت وفاته بكرة يوم الجمعة أول يوم من شهر ذى

السطر التاسع الحجة نة أربع تعـــ[شــ]ـر وسبعمائة مـــن الـــهجرة النبويـــة صلو[ا]ت الله على صاحبها وسلامه

ولم يقتصر النقاش على نقش هذه الكتابات ولكنه ملأ مساحة القطـــاع العلوى والذى فى هيئة العقد المدبب والمحصورة بين الشريط الخارجى الذى يؤطر الشاهد والشريط الذى يشغل الجزء السفلى من هذا القطاع بزخـــارف

محفورة عبارة عن مروحتين نخيليتين فى الجانبين يليهما إلى الداخل شكيل لمئذنتين تتكون كل منهما من ثلاث طوابق ويتوج كل منهما قلة فى هيئة كروية اسبانية جميلة، وهاتان المئذنتان تشبهان مآذن المدارس الرسولية الباقية، ويرتكز على المئذنتين من أعلى عقد مدبب كانت تتدلى منه مشكاه شوهت هيئتها ولكنها كانت فى الغالب مثل المشكاة التى تزخرف وبطريقة مشابهة شاهد قبر الملك الواثق [لوحة رقم١٢].

ويلاحظ أن القطاع السفلى من الشاهد خال من الزخرفة وهذا القطاع كان يدخل فى البناء الذى يعلو القبر أو سطح الأرض الذى كان الشاهد مثبتا به وقد حرص النقاش على ترك هذه المساحة حتى تظهر كتابات الشاهد ولا يختفى منها أى جزء عند تثبيت الشاهد على القبر بالطريقة المتبعة فى مقبرة الرباط.

ودراسة هذا الشاهد من ناحية الشكل والمضمون فى غاية الأهمية، فمن ناحية الشكل يلاحظ أن النقاش نفذ نقوشه سواء الكتابية أو الزخرفية بطريقة الحفر البارز وهذه الطريقة تحتاج إلى مهارة وجهد أكثر من طريقة الحفر الغائر، وقد برع فى العمل بها النقاش الظفارى وغلبت هذه الطريقة على حفر نقوش الشواهد فى ظفار وفى وغيرها من مدن المنطقة الجنوبية حيث نلحظ أن الأسلوب هو الغالب فى مقبرة الرباط وطاقة وباعلوى وغيرها.

ويلاحظ أن النقاش نوع أيضا فى أشكال أشرطة الكتابة تنويعا حفظ لكتابة الشاهد توازنها الفنى، ونلاحظ ذلك فى الأشرطة الرأسية الخارجية والأفقية الداخلية والشريط الدائرى فى القطاع العلوى للشاهد، ولاشك أن هذا القطاع الذى شغله النقاش فى هيئة عقد زورقى مدبب قد أضاف شكلا جماليا

مميزا للشاهد. ويلاحظ الترديد بين شكل هذا العقد وذلك العقد الأصغر المحفور بين المئذنتين والذى تتدلى منه المشكاة فى هيئة مركبة متداخلة.

ويأتى فى إطار هذه الجماليات أيضا التمسك بمبدأ المنمترية فى وضع المئذنتين والمروحتين النخيليتين فى المساحة المعقودة فى القطاع العلوى من الشاهد.

ويلاحظ أن النقاش فى تقسيمه للمناطق التسع التى تتضمن السطور الأفقية لنص الشاهد قد قصد هذا التقسيم والتنويع فى المساحات لإبراز النصوص التى تتضمنها بدرجات مختلفة تتفق وأهمية النص بداخلها، ففى المنطقة الأولى سجل البسملة بخط بارز واضح جميل تراكبت بعض حروفه وزخرفت بعناصر زخرفية تعلو بعض الحروف وفى المنطقة الثانية أكثر المناطق اتساعا سجلت شهادة التوحيد والرسالة المحمدية تسجيلا بارزا وبحروف ذات حجم كبير يفوق حجم الحروف فى أى موضع آخر من مواضع نقش الكتابات في هذا الشاهد، وتقع عليها العين قبل أي نص آخر. وشهادة التوحيد والرسالة المحمدية نص أساسي في شواهد القبور الظفارية وهو نص أساسي لاحظناه أيضا في نقوش المحاريب العمانية[١٢]، وهو النص الذي يلخص عقيدة الإسلام التي تقوم علي التوحيد.

ومن هنا كان اتجاه النقاش إلى ابراز هذا المفهوم العقائدى من خلال هذا التشكيل، ويلاحظ فى كتابة هذا الجزء من النص المثل إلى الاهتمام بترويس هامات الألفات واللامات والتناظر فى كتابة اللام ألف بطريقة جمالية متشابهة وتركيب الكلمات وبخاصة فى النصف الثانى من السطر، كما

يلاحظ تداخل رسم حرف الهاء في كلمة الله الأولى مع الدال مع كلمة محمد فتقرأ هاء في كلمة الله ودال في كلمة محمد.

ثم ينقل النقاش العين بعد نقش الشهادة والرسالة إلى نص قرآني تمهيدي نقش بطريقة مضغوطة في مساحة ضيقة نسبيا ليحدث التضاد بينها وبين النقوش قبلها وكذلك النقوش بعدها وهو ما يجعل القارئ للنص يشعر بنقله مفاجئة، ثم يلي ذلك نقش نص الشاهد الذي يحدد اسم صاحبه وألقابه بخط غير مضغوط توافرت لحروفه المساحة المناسبة التي تجعلها واضحة سهلة القراءة، ومرة أخرى يعود الخطاط إلى الأسلوب المضغوط في الكتابة لتضمين نص الشاهد تاريخ الوفاة.

ومن خلال ما سبق يتضح أن النقاش كان مدركا للمعايير الفنية المختلفة فقد جمعت طريقة نقش الشاهد بين الوحدة والتنوع بين التناظر والتضاد بين الترديد والتوازن والتشكيل الجميل فخرج الشاهد وكأنه قطعة فنية تشكيلية.

أما من ناحية التشكيل الخطي فيلاحظ أن الخطاط كان متقنا لقواعد الخط الثلث وميزانه، وناسب بين هذا وبين المساحات التي حددها لنقش نصوص الشاهد، كما يلاحظ ميله إلى ترويس الألفات واللامات ومدها بمستوى واحد، كما يلاحظ ميله إلى التشكيل الجمالي لملئ بعض المساحات بتشكيل الحروف تشكيلا يحقق ذلك، كما في كلمة محمد في السطر الثاني والدار عيني في السطر السادس، وفي مجال التنقيط يلاحظ أن الخطاط لم يلتزم تماما بتنقيط الحروف المعجمة مثل كلمة الزاهد في السطر الرابع والعابد في السطر الخامس ونوع الخطاط في رسم الحروف تنويعا يدل على تمكنه من إجادة الخط الثالث وتكشف هذه المتابعة لرسم الحروف عن ذلك.

حرف الألف:

حرف الألف "شكل عبارة عن خط منتصب ميزانها في خط هذا الشاهد سبعة نقاط، نقطة الابتداء ثم يتبعها ست نقاط نزولا إلى أسفل ويلاحظ أن الخطاط رسم الألف المفردة غالبا بطريقة مميزة فيلاحظ أن الجزء الأول منها الذي يسمى "زلف" أو رأس الألف أو الهامة أو الترويس عبارة عن خط مائل من يسره إلى يمنة، ومن أعلى إلى أسفل بطول نقطتين ونلحظ ذلك في ألفات البسملة وكذلك ألفات شهادة التوحيد والرسالة المحمدية، أما الجزء الثاني الذي يسمى "النصل" أو جسم الألف وطوله خمس نقاط ويلاحظ أنه غالبا ما يستدق بوضوح من أعلى إلى أسفل، أما الجزء الثالث وهو عبارة عن شظية مسننة الطرف تأخذ شكلا مقوسا جهة اليسار وهي سمة تكاد تنطبق علي معظم الألفات المفردة في نص الشاهد.

ولم يقتصر الخطاط على هذا الشكل في رسم الألفات المفردة حيث يلاحظ أنه أحيانا يرسم هامة الحرف بدون ترويس مع وجود ميل من أسفل اليمين إلى اليسار ونلاحظ ذلك في ألفات كلمات السطر الخامس والسادس والسابع، وهذا الشكل يقابل شكل الألفات المروسة في السطرين الأول والثاني حيث الميول إلى جهة اليمين وهكذا يحدث توازنا مقصودا في رسم حروف الألفات واللامات من خلال التركيز على رسم هاماتها بهاتين الصورتين المتقابلتين.

وقد رسم الخطاط الألف الصاعدة في الشاهد بأكثر من شكل فقد رسمها بصورة مشابهة للألف المفردة، ورسمها بصورة أخرى مميزة ومتكررة متناظرة عبارة عن خط مقوس غير ممتد مائل إلى اليمين يقطع بعض

الحروف السابقة عليه ولكنها فى تكوين جميل كما فى اللام ألـــف المكـــررة مرتين فى السطر الثانى.

حرف الباء وأخواتها:

رسمت الباء وأخواتها بصور متشابهة لا تختلف إلا فى الاعجام والباء المفردة تتكون من ثلاثة خطوط منتصب ومنسطح ومقوس ويذكر صـــاحب الميزان المألوف "أن المنتصب يرسم مائلا بقدر ربع نقطة ومقداره جوالـــى نقطة ويضيف أما المنسطح فيرسم بميل مقداره نصف نقطـــة فـــى الجـــزء الأخير منه وتقدر مساحته بست نقاط مربعة والمقوس يرسم مائلا إلى يسره ومساحته اذا جعل مستويا يكون بمقدار نقطة كاملة[١٣].

وقد رسم الخطاط الباء المفردة وأخواتها بالهيئة المجموعة كمـــا فـــى كلمتى الكتاب والحساب فى الشريط الداخلى الأيسر. وجنبـــات فـــى الســـطر الثالث وغيرها. أما الباء المبتدأة فقد رسمها الخطاط ممتدة بصورة واضحـــة مع ميـــل إلى جهة اليسار فى كلمة بسم فى السطر الأول وبهيئة تشبه هامات الألفات واللامات ليحدث نوعا من التوازن فى الامتدادات الرأسية للحـــروف فى هذا السطر. وفيما عدا ذلك رسمت الباء وأخواتها بالرسم العادى ولكنـــه كان يميز بينها وبين أخواتها بجعلها ذات سن متوسط أو مرتفع قليلا حتـــى يميز بينها وبين أخواتها. كما رسمها فى هيئة مقنطرة فـــى حالـــة اتصالـــها بحرف الراء المدغمة كما فى كلمة قبر. واتصالها بحرف النون حيث رسمت بهيئة مقوسة من أسفل إلى أعلى أى بدون سنة من أعلى كما فى كلمة بـــن، والتى اتصل فيها حرف الألف بالياء كما فى السطر السادس (ابن سعد، ابن على).

الجيم وأخواتها:

حروف الجيم والحاء والخاء رسمت بصور متشابهة، والجيم نوعـــان زنادى ومحلق والزنادى شكل مركب من أربعة خطوط منكـــب ومنســـطح فمستلق فشكل يشبه المثلث، والمنكب يبدأ بترويس ثم يرسم منه شكل يشبـــه القوسين مبتدأ من أعلى إلى أسفل ومن اليسار إلى اليمين، ويقدر هذا الطول بنحو ثلاث نقاط وانكبابة نقطة ونصف جهة اليمين والمنسطح مائل إلى يمنة بقدر نصف نقطة وقطرة خمس نقاط، والمستلق يتقابل مع المنكـــب بحـــزاء نصف المنسطح تقريبا ويقطع جزءا من المنكب فى طريقـــة الارتبـــاط بـــه ومساحته تقدر بنحو أربع نقاط، أما الشكل الشبيه بالمثلث يكون أحد زوايـــاه من أسفل ومستديرا من كل زاوية قليلا[١٤]. وقد استخدم نقاش هذا الشاهد هذا النوع من حرف الجيم وأخواتها كما فى كلمة الرحمن والرحيم فى البســـملة وبرحمة فى السطر الثالث وبالرحمة فى السطر السابع.

أما النوع الثانى وهو المحلق فهو شكل مركـــب مـــن ثلاثـــة خطـــوط منتصب فمنسطح فمستلق؛ والمنتصب كسن الياء رسما وبدون ترويس ومن ومساحته بحوالى نقطتين ويرسم مائلا إلى يمنة وابتداؤه من أعلى إلى أسفل، أما المنسطـــح فمائل إلى يمنة بقدر نقطة ومساحته من الخارج خمس نقاط ثم يتجه نحو الصعـــود مباشرة بعد استلقائه وقد لوحظ أن نقاش هـــذا الشـــاهد رسم الجيم بهذه الصورة الثانية ونلحظ ذلك فى كلمة الشيخ ويلاحظ الاستمداد فى نهاية الحرف من أسفل بصورة مرسلة واضحة لملئ الفراغ أسفل حرفي الشين والياء وغلب استخدام هذه الصورة فى الكلمات الواردة فى النصوص القرآنية بالشاهد والتى تشتمل على حروف الجيم وأخواتها.

الدال وأختها:

يذكر القلقشندى أن حرف الدال شكل مركب من خطين منكب ومنسطح ومجموعهما مساو للألف(١٥) وقد رسم النقاش الذال المفردة فى هيئة مثلث على زاوية واحدة وجمع طرفيها جمعا يسيرا كما فى كلمة "ذا" وكلمة إذنه ويؤوده ويلاحظ أنها رسمها مرسلة بعض الشئ فى كلمة دار بالسطر السابع.

أما الدال المتصلة وأختها فيلاحظ أن الخطاط رسمها فى كلمة محمد بالسطر الثانى بصورة غير مألوفة حيث مدها إلى أسفل مستوى حروف الكلمة بصورة واضحة ويبدو أن ذلك كان لملئ الفراغ وهى سمة نلحظها أيضا فى رسم حروف أخرى ولنفس السبب رغم عدم التزامها بقواعد الخط فى رسم هذا الحرف وبالصور المألوف التى جرت عادة الخطاطين باتباعها. وهناك صورة أخرى لرسم الدال المتصلة كما فى كلمة الزاهد بالسطر الرابع والعابد ومحمد بالسطر الخامس وهذه الصورة هى الصورة العادية لرسم حرف الدال المتصلة بحروف، ويلاحظ أن النقاش مد الجزء المنتصب من حرف الدال فى كلمة بعد فى الشريط الداخلى الأيسر حتى تتساوى فى الارتفاع مع الألفات واللامات وكان هذا فى إطار حرصه الواضح على التوازن بين هذا الشكل الرأسى لامتدادات الحروف والشكل الأفقى فمثلا فى كاسات الحروف فى المستوى السفلى من الشريط وهذا الأسلوب فى التنسيق الخطى واضح تمام الوضوح فى كتابات الأشرطة الرأسية الجانبية.

الراء والزاى:

شكل مركب من خطين منتصب ومستلق والمنتصب يقدر بنقطتين يزاد عليهما الترويس المسنن، ودرجة الميل نصف نقطة وعند الاتصال يحذف الترويس، أما المستلقى فينحدر من اليمين إلى اليسار بطول يزيد عن الست

نقاط والنهاية شبه مذنبة(١٦). وقد رسم النقاش فى هذا الشاهد الراء بتلك الصورة نادرا كما فى كلمة الرحمن الرحيم بالسطر الأول لكنه غلب عليه الميل إلى رسم الراء بالصورة المجموعة المدغمة وقد ناسب هذا الشكل فى الرسم الفكرة التى نفذ بها النقاش فى تنفيذ كتابات الأشرطة الرأسية والتى تعتمد على التوازن بين هامات الحروف القائمة من أعلى وكلمات الحروف فى القطاع السفلى كما أشرنا. هذا ويلاحظ أن الخطاط لم يعجم الزاى فى كلمة الزاهد بالسطر الرابع.

السين والشين:

يذكر القلقشندى أن حرف السين مركب من خمسة خطوط منتصب ومقوس ومنتصب ومقوس ومنتصب(١٧). بينما يذكر صاحب "الميزان المألوف" وصفا أكثر تفصيلا، فيذكر أنه من سبعة خطوط: منتصب، مقوس، منتصب، مقوس، منتصب، مستلق، مقوس، والمنتصب الأول كسن الباء رسما ومساحة نقطة واحدة والمقوس الأول مساحته نقطة وترسم من يمنة إلى يسرة، والمنتصب الثانى مساحته نقطة ويميل إلى اليمين بمقدار نصف نقطة، والمقوس الثانى مساحته نقطة ونصف ويأخذ استواء أكثر من المقوس الأول وسنه أفقى، والمنتصب الثالث مساحته نقطتان ويتمثل فى الجزء الأول من الكاسة، والمستلقى مثل الراء المجموعة يرتكز على نقطتين جهة اليمين ونقطة واحدة متجهة إلى اليسار ويطلق عليه "عرقة" والمقوس الأخير يطلق عليه مصطلح الشظية "الطرف" وهذا بطول نقطتين وبدخول جهة اليمين.

ولا توجد سين أو شين مفردة فى نص الشاهد، أما السين المتصلة المبتدأة فيلاحظ أن النقاش أحيانا يرسمها بمستوى أعلى من مستوى حروف

بقية الكلمة كما فى كلمة سميع فى الشريط الأيسر الداخلى وهو مـا يجعله يربط السنة الثالثة لها بقنطرة مائلة إلى اليسار والى أسفل ليصل مـا بين السين والميم. أما السين الوسطية فقد رسمها الخطاط بالهيئة العادية متساوية الأسنان معجمة بثلاث نقطا فى هيئة معينات كما فى كلمة الشيـخ بالسطر الرابع.

الصاد والضاد:

شكل مركب من ثلاثة خطوط مستلق ومنكب ومنسطح، والمستلقى ابتداؤه من يسرة إلى يمنة ومساحته ثلاث نقاط واستلقاؤه على نقطتين طولا، والمنسطح كجسم الباء المرسلة، والفراغ الداخلى لحرف الصاد "البياض" شبه مثلث قاعدته من أسفل ومساحته نقطة ونصف. قد رسم الخطاط حرف الضاد بهذه الهيئة لكن يلاحظ أن المساحة أثرت إلى حد ما فى شكل كاسة الضاد المفردة فى كلمة الأرض فى الشريط الأيمن الخارجى لكن عندمـا توفرت له المساحة المناسبة رسمها بالصورة المثالية كما فى كلمة الأرض فى الشريط الخارجى فى القطاع الذى يشبه العقد المدبب "وسع كرسيه السموات والأرض".

ومن المعلوم أن ارتكاز حروف الصاد أو الطاء على نقطة من جهة اليمين تتيح الفرصة لاتصال حرف الصاد بحرف يسبقه اذا وقع متوسطا وقد راعى النقاش هذه القاعدة فى إجادة تامة كما نرى فى كلمة "انفصام" بالشريط الخارجى الأيسر. أما الصاد المبتدأة فقد رسمها النقاش بالصورة المثالية العادية كما فى كلمة صاين بالسطر الرابع وكلمتى صلوات وصاحبها فى السطر السابع.

الطاء والظاء

شكل حرف الطاء كشكل حرف الصاد إلا أن المنكب للصاد يزيد قليلا عن الطاء والزيادة بمقدار نقطة واحدة، كما أن الطاء تزيد عن الصاد فى المستلقى الصاعد إلى جهة اليمين فنجد طوله أربع نقاط، ويلاحظ أن النقاش فى هذا الشاهد راعى هذه الفروق بدقة ولعل مقارنة بين رسمه للكلمات التى تشتمل على صاد وضاد- التى سبقت الإشارة اليها- والكلمات التى تشتمل على طاء وظاء كما فى حفظهما، والطاغوت والظلمات فى الهامش الخارجى توضح ذلك.

العين والغين:

ترسم العين فى الخط الثلث بأشكال متنوعة، والعين المفردة تماثل حرف الجيم والحاء فى طرفها المقوس وهو شكل مركب من ثلاثة خطوط مقوس ويطلق عليه رسم الحاجب وطوله ثلاث نقاط، ومنكب طوله نقطتين ويكتب من أعلى إلى أسفل ثم نصف دائرة[١٨].

ويلاحظ أن الخطاط رسم رأسى العين المبتدأة المتصلة والمفردة بصورة متشابهة إلا أنه لم يراع مساحة الفراغ الذى يليها فتارة نجده أقل من النقطة مع الحرف الصاعد كما فى كلمة "على" فى السطر السادس وتارة أخرى نجد أكثر من النقطة كما فى كلمة عليم بالشريط الخارجى الأيسر فى حين أن المتعارف عليه أن يكون وهناك فراغ بمقدار نقطة من أعلى رأس العين المبتدأة[١٩].

ويلاحظ أن الخطاط فى رسمه للعين المفردة النهائية قد أرسل القطاع السفلى وامتد به أسفل بعض الحروف السابقة عليها امتدادا واضحا كما فى

كلمة الورع السطر الرابع بل انه وصل طرفها بحرف الألف وظاهرة وصل الحروف الأخيرة بما سبقها من حروف فى الكلمة أو فى كلمات أخرى ظاهرة واضحة فى هذا الشاهد وربما يرجع ذلك لنقش النص بطريقة الحفر البارز.

أما العين الوسطية أو المعقودة فهى شكل مركب من ثلاثة خطوط منكب ومنسطح ومستلق. والمنكب مقوس قليلا وطوله ثلاث نقاط[٢٠]. وقد اتبع الخطاط هذه القواعد فى رسم العين الوسطية المعقودة وحافظ على نقوش الخط المنكب مما أضفى ليونة وجمالية على رسم العين المتوسطة لكن يلاحظ أن نسبة طول هذا الخط أقل قليلا من النسبة المشارة اليها. وفيما عدا ذلك فقد رسم الخطاط فراغ العين فى هيئة مثلث قاعدة من أعلى كما هو متبع في رسمها.

الفاء:

شكل حرف الفاء المبتدأة يتكون من ثلاثة خطوط منكب ومستلق ومنتصب، والمنكب مساحته نقطتان والمستلقى استلقاؤه من اليمين مع الارتفاع، والمنتصب كسن الباء بدون ترويس، ويلى ذلك فى الفاء المفردة منسطح بطول ست نقاط ثم شظية بطول نقطة واحدة. وقد رسم الخطاط الفاء المبتدأة مائلة إلى أسفل من يسرة كما فى كلمة فى السطر السابع، وكررت هذه السمة فى رسمه لمعظم حروف الفاء المبتدأة، ويلاحظ أن الخطاط فى رسمه للفاء المتوسطة قد رسمها بصورتين الصورة الأولى نلحظ فيها الفاء مرتكزة على السطر (خط الارتكاز) كما فى كلمات يشفع، حفظهما فى الشريط الخارجى. أما الصورة الثانية فهى التى أتى جاء بعدها حرف هابط دون مستوى السطر فرسمت مرتفعة بمقدار نقطة تقريا. كما فى كلمة

انفصام، والتى يلاحظ أن فراغ الفاء بها مستطيل بينما فى الكلمات التى رسمت فى مستوى السطر جاء الفراغ مربعاً. أما العين المنتهية فقد رسمت بهيئة منسطحة مجموعة بالرسم المتعارف عليه كما فى كلمة اختلف بالشريط الداخل الأيسر.

القاف :

شكل مركب من رأس الفاء ابتداء وتوسطاً، أما إذا كانت مفردة أو متطرفة فرأسها كالمفردة وكاستها ككاسة السين. وقد رسم الخطاط القاف المبتدأة حسب قواعد الخط الثلث كما نلحظ فى كلمة قبر لكن القاف الوسطية جاءت فى بعض الكلمات ولظروف المساحة مشابهة للعين الوسطية كما فى كلمة مقيم فى السطر الثالث وقد اضطر النقاش إلى رسم نقطتيها فوق حرف الباء بعد رأس القاف لظروف المساحة ايضا. كما يلاحظ أيضاً أن القاف الوسطية في كلمة القيوم بالهامش الخارجي الأيمن ارتفعت بمقدار نقطة عن حرف الياء الذى تليها وهى سمة لاحظناها أيضاً فى رسم حرف الفاء فى بعض الحالات كما في كلمة انفصام التي سبقت الإشارة اليها.

الكاف :

اقتصر الخطاط فى نقش الشاهد على رسم الكاف بالهيئة المشكولة فلم يستخدم قط الكاف المبسوطة ويبدو أن ذلك كان فى إطار رغبة الخطاط فى توظيف حرف الكاف توظيفا يخدم اتجاهه فى تطبيق الفكرة التى سبقت الإشارة اليها وهى التوازن بين هامات الحروف الممتدة رأسيا كالألفات واللامات والقوائم المنتصبة فى الطاء والظاء بل وحتى الدال وفى إطار ذلك ضم حرف الكاف إلى هذه الحروف فرسمه بهيئة تشبه الألف واللام مع ميل خفيف جهة اليسار وقد وردت الكاف فى نص الشاهد بهذه الهيئة فى

كلمات كرسيه، إكراه، يكفر في الهامش الخارجي والملائكة، الحكيم، والكتاب في الهامش الداخلي ويلاحظ أن رسم كلمة الكتاب يختلف قليلاً حيث يرسم للكاف خطاً منبسطاً فوق الهامة لكنه لايخل بالتوازن الذي قصده الخطاط.

ورسم الخطاط الكاف بالهيئة المشكولة العادية في السطر الثامن من نص الشاهد كما في كلمة "كانت" وبكرة وهو ما يؤكد أن تشكيلها بالصورة التي سبقت الاشارة اليها في الهامش كانت في إطار التشكيل الخطي المتوازن في كتابة هذا الهامش والتي تتميز عن كتابة متن الشاهد في السطور الوسطية الأفقية.

حرف اللام:

حرف اللام شكل مركب من خطين منتصب ومنسطح[٢١] وقد رسم الخطاط اللام المفردة بالصورة المجموعة كما في كلمة أول في السطر الثامن، أما بقية اللامات المبتدأ والوسطية سواء في نص الهامش أو المتن فقد وازن الخطاط- كما أشرنا- بين إمتداد هاماتها وهامات الألفات وروسها من اليمين مرة كما لامات كلمات السطر الأول والثاني وجعلها طرفها من أعلى عريضاً مائلاً إلى اليسار ليقابل الترويس إلى جهة اليمين كما في بقية لامات النقش، وهكذا نوع الخطاط في رسم اللامات لإحداث الترديد والتوازن الذي أضفى جمالاً على النقش، ويلاحظ استرقاق الخط المنتصب للام من أسفل.

حرف الميم:

حرف الميم شكل يتكون من أربعة خطوط مستلق ومنتصب ومنكب ومستلق، والمستلق الأول يكتب من يسرة إلى يمنة ومساحته نقطتان، واستلقاؤه نقطة، أما المنتصب فهو كسن الياء رسماً ومساحة نقطتان ويكتب

مع المستلقي الأول من غير فصل أما المنكب فهو كمنكب رأس الفاء في حالة انفرادها ومساحته نقطتان والمستلقي كمستلقي راء مرسلة، ويلاحظ أن الخطاط في نقش هذا الشاهد قد اتبع الصورة المشار اليها فيما عدا الجزء الأخير من الحرف وهو المستلقي حيث يلاحظ اختزاله كما نرى في كلمة بسم في السطر الأول، وقصره إلى حد ما كما في كلمة القيوم، ونوم، مع رسمه بهيئة مدغمة تشبه الراء المدغمة.

والميم المبتدأة المتصلة رأسها محققة وأظهر مساحة ضوئها الذي يعادل نقطة كما في كلمة "ما" في الهامش الداخلي، وكلمة من داخلها من الخارجي، كما رسم الميم المبتدأة المغلقة كما في كلمة محمد في السطر الثاني واستخدمها أيضا في الميم المنتهية المتصلة كما في كلمة الرحيم السطر الأول، واستخدم الشكلين نفسهما في الميم الوسطية كما في الكلمات الواردة في النص مثل كلمة الرحمن السطر الأول وكلمة محمد في السطر الثاني وتعمده في السطر السادس حيث رسم الميم مغلقة ورسمها بمساحة ضوئها في كلمة الرحمة في السطر السابع.

حرف النون:

يذكر القلقشندي أنه شكل مركب من خط مقوس نصف دائرة والنون المجموعة في تفصيل أدق شكل مركب من ثلاثة خطوط منتصب ومستلق ومقوس والمنتصب طوله نقطتان فأوله ترويس ويبدأ بنقطة بها تقوس، والمستلق يرتكز على نقطة وطوله ست نقاط، والمقوس طوله نقطة ويتصل بالجزء المستلقي[٢٢]. ويلاحظ أن النقاش رسم النون المفردة مشابهة إلى حد كبير بالراء المدغمة كما في كلمة الرضوان في السطر السابع من المتن، ويلاحظ كبر حجمها بالنسبة لبقية الحروف وامتدادها امتداداً واضحاً

واتصالها بالألف التي تسبقها، وقد سبقت الإشارة إلى ظاهرة اتصال بعض الحروف. وكذلك رسم الخطاط النون المنتهية بنفس الأسلوب ونلحظ ذلك في كلمة الرجيم في السطر الأول من المتن، وكلمتى ابن فى السطر الخامس وكلمتي ابن في السطر السادس، وهذا لم يمنع من رسمه لحرف النون المنتهية المتصلة بالشكل العادى كما فى كلمة صابين. أما النون الوسطية فقد رسمها بطريقة مشابهة لرسم الباب وأخواتها كما سبقت الاشارة.

الهاء:

الهاء المفردة شكل مركب من ثلاثة خطوط منكب انكبابه إلى يمنة قدر نقطة ونصف وابتداؤه بنقطة وطوله ثلاث نقاط، ومنسطح به تقوس خفيف وطوله نقطتان ويكتب من يمنة إلى يسرة، ومستلق استلقاؤه نحو اليمين ومساحته أربع نقاط ويكتب من أسفل إلى أعلى ومن اليسار إلى اليمين[٢٣]. وقد رسم خطاط هذا النقش الهاء المفردة بهذا الأسلوب كما فى كلمة عنده، ويووده، وإكراه فى الهامش الخارجي.

أما الهاء المبتدأة فهى شكل مركب من نصف دائرة وفاء متوسطة إلا أن الفاء تأخذ فى طريقها جزءا من نصف الدال وهى بذلك تشبه عين الهر، ولذلك فإن مثل هذه الهاء تسمى اصطلاحا "بوجه الهر" والخطاط فى هذا النقش رسم الهاء المبتدأ بهذا الشكل ولكنه استبدل بالفاء المتوسطة خطا منتصبا مروسا يشبه هامات الألفات واللامات فى هذا النقش ونلحظ ذلك فى كلمة هذا وأيضا فى كلمة الزاهد فى السطر الرابع والتى وردت الهاء فى الحرف الرابع منها ولكنها كالمبتدأة ورسمت الهاء المتوسطة بنفس هذه الصورة فى بعض الكلمات ولكن رسمت بصورة أخرى فرسمت بالصورة المركبة الملوزة كما فى كلمة جاءهم وبيتهم فى الهامش الخارجي، ورسمت

الصورة المدغمة كما فى كلمة بينهم فى الهامش الداخلى، أما الهاء المنتهية المتصلة فقد رسمت بالصورة المحدود به كما فى كلمة كرسيه فى الهامش وكلمة الله فى السطر السادس فى المتن، وهذا هو الشكل الغالب فى رسم الهاء المنتهية.

الواو :

حرف الواو شكل مركب من ثلاثة خطوط مستلق ومنكب ومقوس[٢٤] والمفرد فيها رأسها كرأس الفاء وباقيها كجسم الراء[٢٥]. ويلاحظ أن الخطاط التزم بهذه الهيئة فى رسم الواو المفردة بل إن تقوسها مال إلى الاستدارة الشديدة فى معظم الكلمات وبهيئة مجموعة كما فى كلمات هو فى السموات والوثقى، ورسمت فى بعض الكلمات بشكل يميل فيه التقوس إلى الانحدار الشديد ومرسلة كما فى "وجنات" فى السطر الثالث من المتن، والورع فى السطر الرابع. وفى الواو التى يسبق كلمة الرضوان السطر الرابع حيث امتد التقوس قليلا ولكن الواو فى النهاية أخذ الهيئة المجموعة، ورسمت الواو المتصلة بنفس الصور السابقة فى الكلمات التى تضمنتها.

اللام ألف:

رسم الخطاط اللام ألف المفردة بالصور المحققة ولكنها فى شكل يميل فيه الألف ويتقوس ليقطع الخط المنتصب من اللام ويمتد إلى أعلى قليلا فى هيئة أفقية ويلاحظ ذلك بصورة متكررة مرتين فى السطر الثانى من المتن. ورسم بشكل مشابه فى النص القرآنى من الهامش ورسمها بطريقة مرشوقة مفردة كما فى الشريط الأفقى فوق المتن فى كلمة لا.

حرف الياء:

شكل مركب من ثلاثة خطوط مستلق ومنكب ومقوس[٢٦] والمستلقي كمستلقي رأسي كاف بسيطة بدون ترويس هابط أو صاعد إلا أن طوله ثلاث نقاط وينحدر على نقطتين والمنكب كمنكب حرف الفاء إلا أنه يبدأ كتابة من أعلى ومساحة طوله نقطتان والجزء الثالث المقوس شبه كأسه حرف السين كتابه[٢٧]. وقد رسم الخطاط الياء بهذه الهيئة سواء المفردة أو المتصلة فى معظم كلمات النص إلا أنه يلاحظ أن استخدم الياء الراجعة أحيانا كما فى كلمة الغى بالهامش الخارجي وفى بعض الأحيان اضطر إلى رسم العين بامتداد رأسي مبالغ فيه كما فى كلمة "الدار عينى" فى السطر السادس من المتن.

الألقاب فى نص الشاهد:

وتمثل الألقاب الواردة فى نص الشاهد جانبا آخر مهما من جوانب مضمونه فبالاضافة إلى أنها تكشف عن السمات الأخلاقية التى كان يتمتع بها الشيخ محمد بن أبى بكر فانها تومئ ايضا إلى دوره فى الدفاع عن بلدة ظفار عندما تعرضت للغز الهرمزى. كما يلاحظ أن هذه الألقاب تتناظر فى صياغتها الألقاب التى جرت العادة باستخدامها فى هذا العصر فى البلاد الاسلامية الأخرى وبخاصة اليمن الرسولية ومصر المملوكية، وتجدر بنا أن نعرض لدلالات هذه الألقاب واستخداماتها ومقارنتها بمثيلاتها على الآثار الاسلامية لنؤكد هذه الحقائق.

الشيخ :

الشيخ فى اللغة هو الطاعن فى السن وقد ورد بهذا المعنى فى القرآن الكريم[٢٨] واستخدم الشيخ للدلالة على وظيفة تعليمية دينية، وعرف الشيخ

كاسم وظيفة صوفية[٢٩]. وينطبق هذان المعنيان للقب الشيخ على محمد بن أبى بكر فقد كان طاعنا فى السن فقد قاوم الغزو الهرمزي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م. واذا افترضنا أن ذلك كان على الأقل وهو فى ريعان شبابه فإن ذلك يعنى أن وفاته كانت بعد الستين. واتضح كذلك -مما سبق- أن محمد بن أبى بكر كان من أقطاب الصوفية وأنشأ زاوية بلغت شهرتها الآفاق فى الرباط وكان من الشيوخ البارزين التابعين للطريقة القادرية الجيلانية وهو ما يعنى تمتع محمد بن أبى بكر بلقب الشيخ فى إطار إستخدام هذا اللقب كاسم لوظيفة صوفية.

الزاهد :

الزاهد فى اللغة خلاف الراغب والمراد من أعراض الدنيا فلم يلتفت اليها وهو من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح وقد أطلق على الشيخ الامام أبى زكرياء بن يحيى المتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ٢٣٠هـ فى نص جنائزى بطشقند، وعلى ذى النون المصرى فى نص جنائزى بتاريخ سنة ٢٤٥هـ من الفسطاط وعلى محمد بن أبى بكره بن أحمد فى نص جنائزى سنة ٥٠٠هـ من بلاد العرب وعلى الشيخ أبى طالب بن الحسن بن محمد فى نص جنائزى بتاريخ ٥٠٧هـ[٣٠]. وقد أطلق على محمد بن أبى بكر - أيضا فى هذا النص الجنائزى- موضع الدراسة - ليؤكد أنه كان من أقطاب المتصوفة.

الـــــورع :

المراد من يتنزه عن الوقوع فى الشبهات، ومعناه فى اللغة التقى وقد أطلق بصيغة الوارع على الشيخ الامام أبى زكرياء بن يحيى المتوفى فى شهر ربيع سنة ٢٣٠هـ وفى عصر المماليك اختص هذا اللقب سواء مجردا أو مضافا إلى ياء النسب "الورعى" بالصوفية وأهل الصلاح ولو أنه استعمل لرجال الحرب والادارة إذا اتصفوا بالتقوى والتنزه عن الوقوع فى الشبهات[٣١] واستخدم هذا اللقب على هذا الشاهد المعاصر للعصر المملوكى وبالصيغة والمعنى الذى وردت فى هذا العصر يكشف عن الصلات الحضارية التى كانت تربط بين مصر المملوكية واليمن الرسولية وظفار فى عهد الرسوليين، كما أنه يكشف أن الشيخ محمد بن أبى بكر عندما أطلق عليه هذا اللقب كان فى إطار قدره فى التصوف وجهاده فى سبيل مقاومة الغزو الهرمزى لمدينة ظفار وتمتعه بالأخلاق الحميدة أيضا.

العابـــد:

فاعل من العبادة وهى الطاعة وكان من ألقاب الصوفية ورجال الدين وقد يستعمل لغيرهم من العسكريين ورجال الادارة إذا اتصف أحدهم بالصلاح، وقد ورد هذا اللقب فى النقوش منذ عصر مبكر فقد أطلق على ذى النون المصرى فى نص جنائزى مؤرخ سنة ٢٤٥هـ من الفسطاط[٣٢]، ويأتى إطلاقه على محمد بن أبى بكر فى إطار نشاطه الدينى كمتصوف بارز ونشاطه الحربى كمقاومة للغزو الهرمزى كما هو حال لقب الورع.

صاين الدين:

ظهرت الألقاب المضافة إلى الدين فى عهد الدولة البويهية وانتشرت بعد ذلك انتشارا واسعا وأصبحت من الصياغات الشائعة فى العصر

المملوكى فى مصر والرسولى فى اليمن، ولقب صاين الدين الذى لقب به الشيخ محمد بن أبى بكر يبدو أنه ارتبط بجهاده وقيادته لمقاومة الغزو الهرمزى ويمكن أن نعتبره نعتا خاصا به فى هذه الحالة يؤكد هذا اللقب ما ورد فى المصادر التاريخية من اشارات مقتضبة إلى قيادة الشيخ محمد بن أبى بكر للظفاريين فى مقاومة الغزو الهرمزى لمدينتهم.

مختار الاسلام :

مختار اسم مفعول من الاختيار أى أصحاب الأمر يختارون لمهماتهم على أن اسم الفاعل على نفس الصيغة كذلك وهو من ألقاب صغار الرجال العسكريين فى عصر المماليك ممن يلقبون بالمجلس السامى[٣٣]، ولكن صياغة اللقب فى هذا الشاهد بإضافته إلى الاسلام يكشف عن صياغة جديدة تبين المكانة الدينية لمحمد بن أبى بكر سواء فى حياته للجهاد ضد أعدائه أو فى حياته الدينية وارتفاع مقامه فى مجال التصوف.

الدرعينى:

ذكر ياقوت أن "الدريعاء" قرية من قرى زبيد باليمن والله أعلم[٣٤]. والنسبة اليها حسب القياس اللغوى. لكن محمد بن أبى فى نص الشاهد نسب فى نص الشاهد بالدارعينى. وإذا كانت الرواية الشفهية تشير إلى أن أصوله ترتد إلى بلاد اليمن[٣٥]، فإن نسبته إلى الدريعاء التى أشار اليها ياقوت اشارة تومئ إلى عدم تأكده مما يذكر تبقى مجرد احتمال. وفى إطار القياس اللغوى ذاته يمكن أن يكون صحيح الاسم الذى نسبه اليه الشيخ محمد بن أبى بكر هو "الدرعينى"(؟).

النصوص القرآنية :

تضمن نص الشاهد بعض الآيات القرآنية ومن هذه النصوص الآية الكريمة آية الكرسي. كذلك يلاحظ أن كاتب نص الشاهد ضمنه الآية الكريمة "شهد الله أنه لا إله إلا هو وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام"[٣٦]. وهذه الآية جرت العادة باقتباسها ضمن نصوص كثير من شواهد القبور وترجع إلى القرون الاسلامية الأولى واستخدمت في عصور اسلامية متتابعة، ويأتي استخدامها في هذا الشاهد في إطار هذه الظاهرة وربما يفسر هذا ما ورد في المصادر من أن هذه الآية من خواص القرآن، وفي معنى هذه الآية يقول ابن عباس رضي الله عنه، تقدير الكلام شهد الله بنفسه، وأن لم يكن شهد أحد غيره بأنه لا إله إلا هو، والملائكة يشهدون له بذلك، وقوله وأولو العلم يعني النبيين والمؤمنين يشهدون له بذلك، قائما بالقسط أي بالعدل لأنهم أهل العدل، ولأن معنى العدل وضع الشئ في موضعه ولا يكون إلا بالعلم ولا إله إلا هو العزيز الحكيم، العزيز بالنعمة عمن لايؤمن به، الحكيم بما شهدوا من أنه لا إله إلا هو وألا يعبدوا إلا إياه وأن الدين عند الله الإسلام[٣٧]. وهكذا تبلور الآية كل هذه المعاني التي تعكس مستوى الايمان والعقيدة القائمة على التوحيد وعلى العلم. وهي المعاني التي يتكرر مضمونها في شهادة التوحيد، معقوبة بالرسالة المحمدية في صياغة السطر الثاني من نص الشاهد بعد البسملة. وهكذا تتكامل المعنى والمبنى في صياغة نص الشاهد.

كذلك يتضمن الشاهد من الآيات القرآنية الأخرى التي تؤكد معنى التوحيد كالآية الكيمة "الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم"[٣٨].

وفي متن الشاهد جاء الاقتباس القرآني الذي يفيد أن المؤمنين "يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم"[٣٩]. وفي هذا الاقتباس ما يشير إلى أن كاتب النصر استبشر بالجنة للشيخ محمد بن أبي بكر التي هي وعد الله للمتقين أمثاله. وهكذا توافقت نصوص الشاهد القرآنية توافقا تاما مع سيره الشيخ محمد وألقابه التي أكمدت حسن هذه السيرة.

تاريخ الشاهد:

يلاحظ أن تاريخ الشاهد سجل وقته بشده واضحة وهي سمة نلاحظها في صياغة التواريخ في أمثلة كثيرة من شواهد القبور العمانية[٤٠]، فقد حدد كاتب النص أو الوفاه كانت "بكرة يوم الجمعة أول يوم شهر ذي الحجة سنة أربعـ[شـ]ـر وسبعمئة[٤١]. فقد حددت الساعة واليوم والشهر والسنة. وهي سمة تتميز كثير من شواهد القبور العمانية.

شاهد قبر الملك الواثق [لوحة رقم ١٢ أ، ب، جـ، د]

يشبه هذا الشاهد في شكله العام شاهد قبر الشيخ محمد بن بكر بل إنه يعتبر النموذج الأصلي له حيث أن هذا الشاهد نفذ سنة ٧١١هـ/١٣١١م أي قبل ثلاث سنوات من شاهد قبر الشيخ محمد بن بكر، وهو عبارة عن لوح من الرخام مستطيل الشكل وقطاعه العلوي في هيئة عقد زورقي مدبب، ويلاحظ أن لهذا اللوح قاعدة بحافة بارزة من الأمام والخلف تساعد على تثبيته في بناء القبر، حيث تعلو قبور سلاطين ظفار الرسوليين بالرباط مساطب مستطيلة المسقط مبنية بالحجر وبشكل متدرج كانت تثبت عليها شواهد القبور وقد كان يعلو قبر الملك الواثق شاهدان أحدهما عند الرأس وآخر عند القدمين، وهذا النمط في شواهد القبور انتشر في منطقة ظفار.

والشاهد الذي يتضمن اسم الملك الواثق نقشت عليه كتابات في هيئة شريطين رأسيين أحدهما خارجي يبدأ من الطرف الأسفل الأيمن للشاهد ويدور بدوران الشاهد في قطاعة العلوي الذي على هيئة عقد مدبب زورقي ثم يمتد إلى أسفل في نهايته في الطرف السفلي الأيسر أما الشريط الداخلي فهو كما في شاهد قبر الشيخ محمد بن أبي بكر تنقسم إلى قسمين أحدهما أيمن والآخر أيسر ويعلو طرفهما العلوي شريط ممتد في هيئة أفقية. والمنطقة التي تعلو هذا الشريط الأخير والتي يحدها الشريط الخارجي في القطاع العلوي من الشاهد بها زخارف منحوته نحتا بارزا يشبه تماما التصميم الزخرفي الذي سبق وصفه في شاهد الشيخ محمد بن أبي بكر إلا أنه يلاحظ أن هذا الشاهد لم تمح المشكاة التي تتدلى من العقد الأوسط الصغير الذي يرتكز على المتدليتين في الجانبين وهي مشكاه معلقة في سلسلة ولها رقبة اسطوانية ذات حافة بارزة، وبدنها كروي الشكل أما القاعدة فعلى هيئة ناقوس مقلوب وهي تشبه إلى حد كبير المشكاوات الزجاجية التي ترجع إلى العصر المملوكي.

وقد نقشت النصوص الكتابية بطريقة الحفر البارز بخط الثلث ويشبه اسلوب الخط إلى حد كبير اسلوب خط شاهد قبر الشيخ محمد بن أبي بكر. وفي الشريط الخارجي النص القرآني "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيما ما توعدون نزلا من غفور رحيم، ومن أحسن قولا ممن دعى إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين، ولا تستوي الحسنة ولا

السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم"(٤٢).

ونص كتابة الشريط الداخلي النص القرآني "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير"(٤٣).

أما المتن الداخلي للشاهد فيتضمن ستة سطور أفقية في ست مناطق تفصل بينها خطوط بارزة ضيقة ويلاحظ أن السطر الثاني يشغل أكبر منطقة يليه السطر الأول كما هو الحال في شاهد قبر محمد بن أبي بكر وقد نفذت كتابات السطرين في هاتين المنطقتين بحجم وبأسلوب مميز عن كتابات بقية السطور، ويتضمن السطر الأول البسملة، أما السطر الثاني يتضمن شهادة التوحيد والرسالة المحمدية أما بقية السطور فيتضمن تاريخ وفاة الملك الواثق بما نصه "انتقل مولانا سلطان الاسلام والمسلمين الملك الواثق نور/ الدين ابراهيم بن الملك المظفر إلى رحمة الله/ يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة أحدى عشر/ وسبعمائة وصلى الله على محمد وآله وصحبه".

وتتفق الملاحظات العامة على شكل الخط الثلث الذي كتب به الشاهد وكذلك تنسيقه العام مع ما سبق عرضه بخصوص شاهد قبر الشيخ محمد بن أبي وهو تشابه يوحي للدارس باحتمال أن يكون نقاشا واحدا قد قام بتنفيذهما سيما أن الفارق الزمني بين تاريخ كل منهما حوالي ثلاث سنوات.

أما من ناحية المضمون فإنه يلاحظ أن النصوص القرآنية في الهامشين الخارجي والداخلي تختلف عن مثيليهما في شاهد قبر الشيخ محمد وبالتالي تختلف الدلالات الخاصة بها وبالرغم من هذا الاختلاف إلا أنه يلاحظ أن بعض الآيات تتفق في تركيزها على معنى التوحيد، أما فيما يتعلق بنص المتن فإن السطرين الأول والثاني متشابهين في كل من الشاهدين لكن بقية النص تختلف بالطبع لاختلاف الأسماء والألقاب وتاريخ الوفاة. ولكن يلاحظ أيضا أن تاريخ الشاهد يؤكد بشدة على تحديد اسم اليوم ورقمه في عدد أيام الشهر الذي حدد أيضا وكذلك السنة وهي سمة لاحظناها أيضا في شاهد قبر الشيخ محمد بن أبي بكر.

تضمن نص الشاهد كثيرا من الألقاب وبصيغ مشابهة لصيغ ألقاب ملوك الرسوليين وسلاطينهم وهذه وتلك متأثرة بصيغ سلاطين المماليك الذين كانت تربطهم بالدولة الرسوليين صلات وثيقة، ويجدر بنا أن نعرض لهذه الألقاب تفصيلا.

مولانا:

ذاع استعمال لقب "المولى" مضافا إلى ضمير جمع المتكلم فقيل "مولانا" وقد استعمل هذا اللقب بهذه الصيغة للخلفاء العباسيين كما تشير إلى ذلك المصادر التاريخية، وأقدم مثل معروف لاستعماله في النقوش اطلاقه على الشيخ محسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب في نص تعمير يرجع إلى سنة ٣٥١هـ بمسجد الشيخ محسن في حلب، كما استعمل للخلفاء الفاطميين بكثرة كما عرف خارج الدولة الفاطمية فقد ورد ضمن نص تشييد مؤرخ بسنة ٤٤٢هـ بدير بكر وتلاه نص آخر مؤرخ سنة ٥٥٠هـ في نفس

المدينة وأطلق في نقوش بالشام مع بعض الأتابكة مثل طغتكين ومحمود بن بوري في دمشق ونور الدين في حلب وحماه ودمشق وبعلبك.

ثم صار اللقب من ألقاب السلاطين منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وأوصى الكتاب باستعماله في دساتيرهم باستعماله كعلم على السلطان[٤٤] واستمر استعمال اللقب بعد ذلك وبنفس هذه الرؤية على سلاطين المماليك وأطلق أيضا على سلاطين الرسوليين باليمن كما نراه في نص هذا الشاهد مستخدما بنفس الدلالة على أول سلاطين ظفار من قبل الدولة الرسولية.

الملك:

لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية، وهو لقب معروف في اللغات السابقة، وقد ورد ذكره في النقوش العربية القديمة ويعتبر نقش صرواح الذي تركه "كرب ال وتر" ملك سبأ أقدم نقش عثر عليه في جنوب بلاد العرب ورد فيه هذا اللقب اذ كان حكام سبا يلقبون في النقوش القديمة بلقب "مكرب".

واستخدم هذا اللقب بنفس الدلالة في شمال بلاد العرب وورد في نقش التمارة الذي ينسب إلى امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة والذي يرجع إلى سنة ٣٢٨م كما ورد اللفظ في القرآن الكريم بما نصه "وكان وراءهم ملك يأخذ كل سقيفة غصبا"[٤٥]. "وإن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة"[٤٦]. ولم يستخدم اللقب في صدر الاسلام والعصر الأموي وفي العصر العباسي استخدمه بني سامان ثم استمر إطلاقه على أمراء بعض الدول المستقلة عن الخلافة، واستخدمه بني بويه وفي العصر الفاطمي أطلق على بعض الأمراء ثم بدأ التحول في استخدام اللقب ليطلق على

السلاطين فى العصر الأيوبى حيث لقب به صلاح الدين[٤٧] ونهج المماليك على نهج أسلافهم الأيوبيين وتأثر بهم أيضا ملوك الرسوليين ثم كان استخدام سلاطين ظفار له فى إطار محاكاة سلاطين الرسوليين.

سلطان الاسلام:

يذكر القلقشندى أن لقب السلطان لم يصبح لقبا عاما إلا بعد أن تغلب الملوك بالشرق مثل بنى بويه على الخلفاء واستأثروا بالسلطة دونهم وبذلك اتخذوا لقب "السلطان" ثم صار "السلطان" لقبا عاما يطلب على المستقلين من الولاة يضرب على نقودهم تمييزا لهم عن غيرهم من الولاه غير المستقلين.

ويغلب على الظن أنه فى عهد السلاجقة أخذ لقب "السلطان" يتحدد بمدلوله كحاكم أعظم ولقب الملك كحاكم تابع، واستخدمت الأسرة النورية فى بلاد الشام اللقب بهذه الدلالة، وربما جاء اللقب السلطان إلى الأيوبين موروثا عن الفاطميين[٤٨] ولقب صلاح الدين بلقب "سلطان الاسلام والمسلمين" واتخذت اللقب دول أخرى ومن الأيوبين انتقل اللقب إلى المماليك ومنهم إلى الرسوليين فى اليمن ثم إلى حكام ظفار.

وإضافة لفظ السلطان إلى الاسلام والمسلمين يعطى الملقب صفة دينية اسلامية اذ تجعله المسلم الأول الذى اختاره الله لتأييد الاسلام والانتصار للمسلمين، وقد جاء اللقب وترادفاته كأثر لتخلى الخلفاء وعن حماية الدين لرجال الدولة من السلاطين ومن هنا لقب به صلاح الدين كما أشرنا أول مرة فى نص من نصوص قلعة القاهرة سنة ٥٨٦هـ ثم استمر استخدامه بعد ذلك سيما بعد أن سقطت الخلافة العباسية واتجهت أنظار المسلمين إلى السلاطين كحماة للاسلام، وتقلب به الحكام المماليك فى مصر وكذلك حكام

الرسوليين فى اليمن، كما يؤكد هذا الشاهد استخدامه بواسطة حكام ظفار ولكن بصيغة "سلطان الاسلام" فقط. وتعكس ترجمة الملك الواثق وبصفة خاصة مدينة المناخ الذى أدى إلى إطلاق هذا اللقب عليه. ومن الجدير بالذكر أن لقب السلطان قد تلقب به الحكام العمانيون فى عهد اليعاربة واستمر استخدامه فى عهد البوسعيديين حتى الآن بل إن عمان تعتبر الدولة الوحيدة فى المنطقة العربية التى يطلق عليها مسمى السلطنة تأكيدا للتواصل التراثى التاريخى والحضارى لعمان.

الواثق:

اسم فاعل من وثق وقد استخدم هذا اللقب كنعت خاص للسلطان نور الدين ابراهيم، وقد جرت العادة فى الدولة الرسولية باليمن باتخاذ كل ملك من ملوكها نعتا خاصا وهى سمة سبقت اليها الدولة العباسية والدولة الفاطمية. ويلاحظ أن لقب الواثق لم يستخدمه أى من سلاطين الرسوليين فى اليمن كنعت خاص وانفرد به نور الدين ابراهيم عكس ما حدث من استخدام بعض سلاطين ظفار لألقاب سبقهم إلى استخدامها سلاطين الرسوليين فى اليمن، ويبدو أن إطلاق هذا اللقب على ابراهيم ابن الملك المظفر الرسولى يوسف بن عمر [٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م] كان فى إطار الظروف السياسية والحربية التى عايشها باعتبار أنه أول السلاطين الذين تم تعيينهم لحكم ظفار من قبل الدولة الرسولية فى اليمن.

نور الدين :

انتشرت الألقاب المضافة إلى الدين انتشارا حتى فى عهد السلاجقة وانتشرت كذلك فى عهد الفاطميين بمصر ثم الأيوبيين، ولقب نور الدين أحد هذه الألقاب وهو نعت السلطان العادل محمود وقد ورد فى نقوش كثيرة

خاصة به(٤٩). وورد ضمن ألقاب السلطان ابراهيم سلطان ظفار كأحد النعوت التى نعت بها السلطان وهو من النعوت التى تضفى على من يلقب بها سمات التمسك بالدين والدعوة له.

وفى إطار ما سبق يتضح أن أول سلاطين ظفار فى عهد الرسوليين قد لقب بألقاب تمتع بها سلاطين الدول الكبرى فى ذلك الوقت كسلاطين المماليك وسلاطين الرسوليين، كما يلاحظ أن بعض هذه الألقاب تضفى على صاحبها الاهتمام بأمور الدين ويجسد تمكنه من حكم بلاده وما يتمتع به من ثقة كان مصدرها بلاشك والده سلطان اليمن الرسولى.

وعلى هذا النهج سار تابعيه من حكام وسلاطين ظفار فى العصر الرسولى حيث اتخذ كل منهم لقبا خاصا رددته المصادر التى اشارت اليهم فقد تولى بعد الواثق ابنه الفائز. وتولى من بعد الفائز ابنه المغيث ثم تشير المصادر إلى أن صاحب ظفار فى سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م كان الفائز بن المظفر وفى إطار ما نلاحظه من توارث حكام سلاطين ظفار الحكم أبنا عن أب فإن المظفر والد الفائز المذكور يمكن اعتباره أيضا احد حكام ظفار وهو يختلف بلا شك عن الملك المظفر الرسولى والد الخليفة الواثق [٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م] وحيث أن قائمة سلاطين ملوك الرسوليين فى اليمن لا تتضمن ملكا لقب بالمظفر غيره فإن هذا يؤكد أن المظفر والد الفائز المذكور كان من سلاطين ظفار وورث الفائز الحكم من بعده. وهكذا تتحدد ألقاب خمسة من حكام ظفار تلقب أربعة منهم كل واحد بلقب أو نعت خاص به أما الحاكم الثانى وهو الفائز فقد اشترك معه الحاكم الخامس فى لقب الفائز، ولتمييز يمكن أن نطلق على هذا الأخير لقب الفائز الثانى(٥٠).

ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة استخدام النعت الخاص بأحد الملوك لملك آخر من نفس الأسرة الحاكمة ظاهرة تكررت فى بلاد اليمن بالذات وفى عهد الدولة الرسولية في اليمن والتى تعتبر هؤلاء الحكام امتداداً لها مثل لقب الأشرف الذى تلقب به الأشرف الأول عمر بن يوسف [٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٥-١٢٩٧م] وتلقب به الأشرف الثانى اسماعيل بن العباس (٧٧٨-٨٠٣هـ/١٣٧٧-١٤٠١م] والأشرف الثالث الذى تلقب به اسماعيل بن المنصور [٨٤٢٨٥٠هـ/١٤٣٩-١٤٤٧م](٥١). وتكررت نفس الظاهرة أيضاً فى عهد الدولة الطاهرية [٨٥٨-٩٣٣هـ/١٤٥٤-١٥٢٦م] فقد لقب أول حكامها بالظافر وهو عامر بن طاهر (٨٥٨-٨٧٠هـ/١٤٥٤-١٤٦٦م] ولقب كذلك رابع حكامها بنفس اللقب وهو الظافر الثانى عامر عبد الوهاب [٨٩٤-٩٢٣هـ/١٤٨٩-١٥١٧م].

ولاشك أن معرفة المزيد عن هؤلاء الحكام الذين حكموا ظفار من الرسوليين أو الكثيرين أو غيرهم يمكن أن تكشف عنه تنقيبات أثرية فى مقبرة الرباط ودراسات متأنية لما يمكن أن يعثر عليه من نقوش على مقابرهم التىمازالت باقية ضمن مقابر الرباط.

نقش ظهر للشاهد [لوحة ١٢ب]:

وقد نقش ظهر الشاهد، ونقش ظهر الشاهد من الملامح التي تميز كثير من شواهد القبور فى مقابر منطقة ظفار على وجه الخصوص وسلطنة عمان بصفة عامة حيث نجد كثير من شواهد القبور منفذة بهذا الأسلوب فى مقابر الرباط ومرباط ونزوى والحيملي وغيرها. بل اننا نجد أن بعض الشواهد فى مقبرة من مرباط نقشت جوانبها التى تحدد سمك الشاهد سيما وأن هذه

الشواهد يبلغ سمكها أكثر من ١٠ سم فملأها الخطاط بنقوش كتابية شاهدية تكشف عن براعة في تنفيذ الكتابات على مثل هذا الحيز [لوحة٢٤].

وتشبه نقوش هذا الظهر في شكلها العام الأسلوب الذي تم بـه نقش الوجه، حيث تضمن مروحة نخيلية في حيز ضيق جداً في الجانبين وأربعة أشكال تشبه المآذن تحصر بينها ثلاث مناطق معقود بعقود خماسية مفصصة المنطقة الوسطى أوسع من الجانبين ويتدلى من قمة كل عقد مشكاه تشبه المشكاه التي في الوجه الأول للشاهد.

وقد نقش في الشريط الخارجي النص القرآني "الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي/ العظيم ولا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله ولي الذين آمنوا يخرج من الظلمات"(٥٢).

أما الشريطان الداخليان فيتضمنان النص القرآني "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام(٥٣)... قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وينزع الملك فمن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قديرتولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب"(٥٤).

أما متن الشاهد فقد نقش بنفس السلوب المتبع في الوجه الأول حيث ركز النقاش على كتابة السطر الثاني والذي يتضمن الشهادة والرسالة بخط كبير مميز تتسع له المنطقة الثانية باعتبارها أكبر المناطق ويليها في الحجم

والاتساع المنطقة الأولى التي تتضمن البسملة [ثم يلي ذلك السطر الثالث ونصه:

ونص السطر الثالث: يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان.
السطر الرابع: وجنات لهم فيها نعيم نعيم خالدين فيها
والسطر الخامس: أبداً إن الله عنده أجر عظيم(٥٥) "وقل
السطر السادس: ربي أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين وقالوا
السطر السابع: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا
السطر الثامن: الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم
السطر التاسع: "أجر العاملين"(٥٦).

ويلاحظ التشابه في بعض الآيات الرآنية في نصوص هذا الوجه من الشاهد ونصوص وجه شاهد الشيخ محمد بن أبي بكر وهو تشابه يركز على معاني الآيات المتصلة بالتوحيد وكذلك الآيات التي تتصل بالجنة. وهذا التقارب في الصياغة أمر طبيعي في شاهدين صنعا في بلد واحد وفي عصر واحد وفي فترة زمنية متقاربة جداً.

الشاهد الثاني للسلطان للملك الواثق:

يشبه الشاهد الأول فيما شكله العام وأيضا في اسلوب نقش نص الشاهد بالحفر البارز في الوجه والظهر لذلك فإن الزخرفة في القطاع العلوي من الشاهد تشبه الوجه الذي يشتمل على مئذنتين تتدلى منهما مشكاه واحدة. وهذا النقش في كل من وجهي الشاهد بصورة مآذن متشابهة عكس الشاهد السابق الذي اقتصرت نقش الوجه فقط.

نصوص نقش الوجه [لوحة ١٢ جـ]

الشريط الخارجى يتضمن النص القرآن "الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات" (٥٧).

أما نص الشريط الداخلى فهو النص القرآنى "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام(٥٨) / قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع/ الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب(٥٩).

أما متن الشاهد فقد نقش فى تسعة أسطر نصها:

١- "بسم الله الرحمن الرحيم

٢- لا اله الا الله محمد رسول الله

٣- كل نفس ذائقة الموت(٦٠)

٤- "يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات

٥- لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا

٦- ان الله عنده أجر عظيم"(٦١)

٧- "وقل ربى أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير

٨- المنزلين"(٦٢) وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده

٩- وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء(٦٣)

نص نقش ظهر الشاهد [لوحة ١٢ د]

نقش فى الهامش الخارجى النص القرآنى "آمن الرسول بما أنزل اليه كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"(٦٤).

أما نص الهامش الداخلى فهو النص القرآنى "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم"(٦٥).

أما نص متن الشاهد فيقع فى ستة أسطر نصها:

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- لا إله الا هو محمد رسول الله

٣- الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

٤- ملك يوم الدين اياك نعبد وإياك نستعين

٥- اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت
٦- عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين[٦٦]...

تعريف بالسلطان الواثق نور الدين إبراهيم وألقابه الواردة في الشاهد:

هو السلطان الواثق نور الدين إبراهيم بن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول ملك اليمن [سنة ٦٤٦-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م] أول السلاطين الذين حكموا ظفار فبعد أن استقرت أحوال مدينة ظفار بعد استيلاء الرسوليين وبالتحديد فى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م قطع السلطان الملك المظفر الرسولي يوسف ولده الملك الواثق إبراهيم "ظفار الحبوضي"، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٧١١هـ/١٣١١م[٦٧].

وكان الملك الواثق "فريدا فى محاسنه، له معرفة فى الآداب، ومشاركة فى فنون العلم، وكان يقول الشعر ويحسر عليه الجوائز السنية.

ومن يك داود بن يوسف صنوه   فليس غريبا أن يرى بكريم

وأكرم أيضا أهل التصوف وقد سبق أن أشرنا إلى معاملته الحسنة وعطاياه لولد أحمد الرفاعى[٦٨].

وتوفى الواثق كما تشير المصادر التاريخية[٦٩] والنقوش على شاهده: "فى العشرين من المحرم سنة احدى عشر وسبعمائة" ودفن فى مقبرة الرباط بظفار فى القطاع الخاص بمقابر الحكام الرسوليين، لكن شاهد قبره نقل- كما أشرنا- إلى انجلترا واستقر أخيرا بمتحف الانسان التابع للمتحف البريطانى بلندن.

وفى إطار ما سبق يتضح أن الملك الواثق نور الدين إبراهيم قد حكم ظفار الحبوضي لمدة تسعة عشر عاما، وكانت مدينة ظفار قاعدة حكمه، وتم دفنه بمقبرة الرباط المقبرة الرئيسية لمدينة ظفار فى هذه الفترة وكان قبره فى مقبرة الرباط أحد القبور الرسولية التى تشغل قطاعا مهما من مقبرة الرباط التى تنعكس فى آثارها سواء البقايا المعمارية أو النقوش الكتابية مظاهر الثراء والفن والتى تجسد بوضوح المستوى الذى بلغه أيضا من الخط والزخرفة فى هذه البقعة المهمة فى العالم الاسلامى.

وقد لفت هذا المستوى الرائق لفن الخط فى نظر جيست Guest فذكر أن "الحفر على الرخام بهذا المستوى لم يكن ليتم فى مدينة ظفار فى القرن ٨هـ/ ١٤م، وذكر أنه ربما قام به صناع وافدون من الذين جرى استخدامهم فى اليمن فى هذه الفترة مستندا على رواية للخزرجي تقرر استخدام صناع أجانب عن اليمن لمدة سبع سنين فى إنشاء قصر قرب العاصمة"[٧٠].

والرواية التى وردت على لسان الخزرجى تشير إلى عظمة عمارة القصر السلطانى المسمى بالمعقلى فى ثعبات والذى تم بناؤه فى صفر سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وأن هذا القصر كان عبارة عن "مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعا فى عرض عشرين ذراعا، بسقفين مذهبين بغير أعمدة له أربع مناظر بأربعة رواشن ليس فيه إلا رخام وذهب وأمامه بركة طولها مائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا على حافاتها صفه طيور ووحوش من صفر أصفر ترمى الماء من أفواهها، وفى وسط البركة فواره ترمى الماء إلى السماء فيبلغ مدا بعيدا، وقبالته شاذروان بعيد المدى يصب ماءه إلى البركة المذكورة كأنه لوح من بلور لايمكن التعبير عنه بغير هذا وفى المجالس شبابيك تفضى إلى بستان عجيب المنظر حسن المختبر والخبر"، ثم

يستطرد الخزرجي في روايته فيقول أن المصنف الذي يروى عنه قال "سمعت من يحكي ممن أدرك أيام عمارته أنه كان يطلع إليه في كل يوم نحو من سبعين بغلة من الصناع الغرباء ما بين نجار ودهان ونحاس وصانع ومكندج ومرخم ومزخرف ومصور خارجاً عمن يركب الحمير ومن لايركب من أتباعهم وهذا ما عدا صناع البلاد وهم اضعاف أضعافهم" [٧١]. وفي ضوء هذه الرواية خلص جيست إلى رأيه السابق.

ومن الثابت أن اليمن شهدت في العهد الرسولي (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م) ازدهاراً لصناعة الرخام فإن هذا الازدهار يأتي انعكاساً لازدهار هذه الصناعة في مصر وبصفة خاصة في عهد دولة المماليك البحرية [٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م] [٧٢]، وهناك احتمال قائم بأن يكون بعض المرخمين المصريين قد انتقلوا إلى اليمن للقيام بهذه الأعمال الفنية في هذا المجال سيما وأن صاحب اليمن كان يسير على نهج صاحب مصر في كثير من الأمور المتعلقة بترتيب الدولة[٧٣] ومنها أيضاً النواحي الفنية[٧٤].

وقد انتقلت كثير من المظاهر الحضارية المملوكية إلى مدينة ظفار في عهد الرسوليين باعتبار تبعيتها للحكم الرسولي وزاد هذا الأمر وضوحاً بعد ما تولى الحكم في ظفار الملك الواثق وأولاده من بعده، حيث أنهم سعوا إلى أن يحتذوا الرسوم السلطانية التي نقلها آباؤهم الحكام السوليين في اليمن عن سلاطين المماليك، ولم يتوقف التأثير عنه هذا الحد ولكننا لاحظنا أيضاً الاهتمام بانشاء المنشآت الدينية كالمدارس والمساجد والخنقاوات وهو تأثير ظهرت علاماته في ظفار سواء كانت هذه المنشآت من انشاء السلطان

الرسولي في اليمن نفسه أو إنشاء ذريته من حكام وملوك وأمراء حكموا مدينة ظفار.

وتشير الرواية إلى أن الملك يوسف بن عمر الرسولي خاطب السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في استدعاء طبيب من مصر لمعالجة المرضى بمدينة ظفار[٧٥]. وفي هذه الرواية ما يؤكد وصول التأثيرات الحضارية من مصر مباشرة إلى مدينة ظفار عن طريق الحكام الرسوليين.

ومما سبق يتضح أن ما ذكره جيست عن احتمال تنفيذ شاهد قبر الملك الواثق نور الدين إبراهيم على يد مرخم أجنبي ليس من ظفار أو اليمن أمر قائم، لكن يمكن أيضاً أن نطرحه بحذر سيما وأن هناك شواهد أخرى يجب أن توضع في الاعتبار قبل التسليم بصحة هذا الافتراض من أهمها أن اليمن وظفار كان بها خطاطون بارزون وقد اشارت المصادر إلى أعلام في هذا المجال منهم على سبيل المثال الفقيه الفاضل أبو محمد سعيد بن أسعد بن علي الحراري وأصل بلده قريته المراح في رأس وادي نخلان [ت٦٧٨هـ/١٢٧٩م] الذي كان حسن الصوت والخط[٧٦] والفقيه النبيه جمال الدين محمد بن حسين بن علي المحترم الحضرمي [ت٦٨١هـ/١٢٨٢م] الذي ورد أنه كان خطاط مجيداً[٧٧]. ومن مدينة ظفار عرف محمد بن عبد القدوس الأنصاري [نحو سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م] الذي اشتهر بما ألف في مجال الخط حيث كان من اشهر مؤلفاته "العلم في معرفة القلم"[٧٨].

كذلك فإن الكتابات على الآثار اليمنية تشهد بتطور مدرسة الخط في اليمن ونفس الحال كان في عمان التي تعكس الكتابات على محاريب مساجدها[٧٩] والنقوش الكتابية على شواهد القبور في مقابرها الكبيرة كمقبرة نزوى ومرباط والرباط ومقابر صلالة الأخرى على ذلك. وإذا

كانت العلاقات بين بلدان العالم الإسلامي تسمح بانتقال التأثيرات في جميع المجالات فإن قيام مدارس محلية ثابته الخطى واضحة المعالم أمر قائم. وأعتقد أن دراسة شواهد القبور في المقابر الأثرية في عمان من شأنه أن يحدد ملامح المدرسة العمانية، ودورها في تطوير الخط العربي كما أن هذه الدراسة تساعد أيضاً على تفنيد الآراء التي جنحت إلى ابراز التأثيرات الأجنبية على كتابات بعض الشواهد التي كشف عنها في ظفار قبل أن تدرس الكتابات الأثرية في ظفار وغيرها دراسة متأنية تكشف الحقيقة.

شاهد قبر مدافع بن أحمد المعيني اليمني [لوحة رقم ٢٠]

هذا الشاهد مازال باقياً على قبر الشيخ مدافع في مقبرة الرباط في الموضع الذي يضم قبور العديد من الأعلام والشيوخ وغيرهم إلى الغرب من مسجد الشيخ محمد بن أبي بكر بحوالي ٣٥ متراً تقريباً، وهذا الشاهد عبارة عن لوح حجري مستطيل الشكل قطاعه العلوي على هيئة عقد نصيف مسدين، وينقسم إلى ست مناطق بها كتابات بالخط الثلث المحفور حفراً بارزاً نصها:

١- لا إله إلا الله

٢- محمد رسول الله

٣- هذا قبر الشيخ

٤- الكبير الفرد الشهير

٥- مدافع بن أحمد

٦- اليمني المعيني الخولاني

٧- .....[٨٠] نفع الله به

ووجود هذا الشاهد في هذا الموضع من مقبرة الرباط دليل أثري مهم يقطع بدفن الشيخ مدافع في مقابر الرباط الخاصة بمدينة ظفار ويحسم

الخلاف بين الباحثين عن موضع دفنه وتحقيق رواية الخزرجي التي أشارت إلى رواية يفيد وفادته إلى ظفار في آخر حياته وإقامته بها عدة أيام إلى أن حين وفاته سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م ودفنه بها.[٨١]

وتذكر الرواية "أن الشيخ مدافع بن أحمد ممن فتح الله عليه بالدين وأخذ يد التصوف عن الشيخ ابن الحداد نحو أخذه عن الشيخ عبد القادر الجيلاني. وكان مدافع بن أحمد ممن اجتمع الناس على صلاحه وكماله، ولما فقد الشيخ أبو العيث بن جميل شيئاً من أحواله وصل إلى الشيخ مدافع وأقام عنده في قرية الوجيز في مسجد قريب من بيته، فأعاد الله عليه ما أفقده، وصحبة جماعة من أعيان الصوفية كعثمان ابن سادح وعلي الرميمة وعمران الصوفي من علية وغيرهم، وكان الملك المسعود بن الملك الكامل يومئذ، صاحب اليمن من قبل أبيه، وكان كثيراً ما ينزل من الحصن

فيقف في الميدان أو في المطعم يطعم الجوارح الصيدية فرأى العسكر يروحون طريق الوجيز فسأل عن ذلك فقيل له إنهم يروحون لزيارة رجل من الصوفية كبير الحال فبحث عنه، فأخبر أن له قبولاً عظيماً عن سائر الناس فأحب أن يطلع أمره، وأظهر أن غرضه زيارته، ووصل إلى بابه، وكان من عادة الشيخ مدافع أنه لايجتمع به أحد من الناس من أذان الصبح إلى قريب من الزوال، فوصل الملك مسعود إلى بيت الشيخ، والشيخ مقبل على صلاة الضحى، فوقف على الباب ينتظر الأذن، والشيخ في صلاته لم يعلم بوصوله فلما طال وقوفه على باب الشيخ، وكلما خرج أحد من القراء قال الشيخ مشغول والآن يخرج، اغتاظ من ذلك ورجع قبل أن يعلم به الشخ، وتوهم أنه ربما حدث منه ما حدث من رغم الصوفي، فأمر بقبض الشيخ مدافع، فقبض، وكان قبضه في عشرة من رمضان من سنة سنع عشرة وستمائة، فأقام محبوساً في حصن تعز إلى سلخ شهر ربيع الأول من سنة

ثمان عشرة وستمائة، ثم سفر به إلى الهند فدخل بلد الدنيول فاقام بها شهرين وثلاثة ايام ثم خرج منها لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ثماني عشرة وستمائة، ثم دخل ظفار فأقام بها ثمانية عشرة يوما، وتوفى هناك رحمه الله"(٨١).

وهذه الرواية تكشف عن حقائق عدة تتصل بالشيخ مدافع وبمدينة ظفار منها انتشار التصوف وطرقه باليمن وشرق الجزيرة بصفة عامة، وأن الشيخ مدافع كان من مريدى وأعلام الطريقة القادرية الجيلانية، ويفسر لنا ذلك انتشار الزوايا والأربطة فى اليمن وفى ظفار التى جاء إليها ابن أحمد الرفاعى وأكرم السلطان الواثق وفادته وأنشئت بها زاوية الشيخ محمد بن أبى بكر التى كانت محط الوافدين ومجمع رجال التصوف ونالت احترام سلاطين ظفار أيضا.

كذلك تكشف هذه الرواية عن أن الشيخ مدافع بعد أن خرج من حبسه فى اليمن سافر إلى الهند ثم أراد العودة إلى بلاد العرب وفضل أن تكون مدينة ظفار مقرا اقامته. ولاشك أن ذلك يعكس مكانة مدينة ظفار التى كانت حينئذ تحت حكم الحبوضيين وعلى وجه التحديد تحت حكم أحمد بن محمد الحبوضى مستقلة عن اليمن، ومن الملاحظ أن قدوم الشيخ مدافع إلى ظفار كان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وهى السنة التى فكر فيها الملك مسعود الذى حبس الشيخ مدافع فى مهاجمة ظفار لطمعه فيها باعتبارها من أهم الموانئ الناشئة المنافسة لعدن فكان أن خربها أحمد بن محمد الحبوضى ثم أعاد بناءها وأمعن فى تحصينها لتقوى على أى هجوم.

وإذا كان شاهد القبر المؤرخ سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م والذى أشار اليه ميلز وكوستا يكشف عن قدم الدفن فى الرباط وأن مقبرة الرباط كانت مقبرة مدينة ظفار منذ عهد المنجويين فإن شاهد قبر مدافع -موضع الدراسة-

يكشف وغيره عن استمرار استخدام هذه المقبرة فى عهد الحبوضيين ويكشف شاهد قبر الواثق وغيره على استمرارها كمقبرة لظفار فى عهد الرسوليين، وقد استمرت أيضاً فى عهد الكثيرين وتدل على ذلك شواهد القبور التى ترجع إلى عهدهم. وهكذا تدلل شواهد القبور على استمرار الرباط كمقبرة اساسية لمدينة ظفار على امتداد تاريخ عمران المدينة منذ نشأتها وحتى هجرانها وخرابها الذى أدى فى النهاية إلى استخدام بعض مناطقها للدفن، كما هو الحال فى المقبرة بوسط المدينة، أو الدفن بجوار بابها الغربى من الخارج.

وشاهد قبر ابن مدافع نفذ فى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م أى فى ذات السنة التى نقش فيها نص تأسيس قبر حصن الدين تعلب بالقاهرة، والمقارنة بين الشاهدين من ناحية أسلوب الخط تكشف عن أن الخط الثلث قد تطور فى ظفار تطوراً كبيراً حيث أن ألفات ولامات نص شاهد قبر الشيخ مدافع وإن خلت من الترويس تتميز بنسب جمالية واضحة، كما أن الخطاط أجاد رسم الراء المدغمة واللام الملفاطية الشكل والسين الخالية من الأسنان والياء الراجعة والعادية بسمات تناسب مساحة شاهد القبر المتاحة، وتكشف عن تفرد فى الملامح يقطع بوجود مدرسة خطية محلية. استمرت بلاشك فى مراحل تطورها فى العصور التالية وبلغ أوج ازدهارها فى القرنين ٨/٩ هـ - [١٤/١٥م]، كما تدلل على ذلك كثير من الشواهد فى مقبرة الرباط والتى ترجع إلى هذه الفترة.

مراجع الفصل:

(١) السالمي: [عبد الله بن حميد] تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ت١٣٣٢هـ، نقلاً عن زاهر وزهير، الملقب مسعود بن أحمد، س . ب. ميلز: الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، نشر وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان سنة ١٩٩٠، ص٤٧٠.

(2) Guest: Op. Cit., p. 409.

(٣) رواية شفهية للفاضل عوض عيسى الذى يرتد نسبه إلى الشيخ محمد بن أبـي بكـر المذكور.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٨٧.

(5) Guest: Op. Cit., p. 409.

(٦) قرآن كريم، سورة البقرة أية رقم٢٥٥-٢٥٧

(٧) قرآن كريم، سورة آل عمران أية رقم ١٨-١٩.

(٨) قرآن كريم، سورة آل عمران أية رقم ١٩

(٩) قرآن كريم، سورة الحشر أية رقم ٢٢

(١٠) قرآن كريم، سورة التوبة أية رقم ٢١

(١١) هذه الكلمة قرأها جيست Guest "الدمريني" ولكنه وضع علامة استفهام بعد هـذه القراءة بما يفيد أنه متشكك فى قراءتها.

(١٢) للاستزادة راجع:

- ايروس بلديسيرا: الكتابات فى المساجد العمانية القديمة، نشـــر وزارة الـتراث القومى والثقافة، سلطنة عمان ١٩٩٤،

- محمد عبد الستار عثمان، نقوش عربية إسلامية من سلطنة عمان، دراســة فــى المضمون. بحث تحت النشر فى الكتاب التذكارى للأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن محمد الطيب الأنصارى، قسم الآثار، جامعة الملك سعود.

(١٣) محمد افندى مؤنس، الميزان المألوف فى وضع الكلمات والحروف، نشــره مــع مقدمه بعنوان الخط العربى. د جمال التونى، دار الكتاب المصرى للطباعة والنشر، د.ت، ص٣.

(١٤) محمد أفندى مؤنس، المرجع السابق، ص٢٥.

(١٥) القلقشندى [أحمد بن على بن أحمد ت ٨٢١هـ] صبح الأعشى فى صناعة الانشاء القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٨، جـ٣ ص٢٦.

(١٦) محمد عبد الستار عثمان. مصطفى مملوكى بالقراءات السبع من جزيرة شندويل، مجلة العصور، دار المريخ للنشر، المجلد الثامن، الجزء الأول، ينـــاير ١٩٩٣م، ص١٦٤.

(١٧) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣ ص٧٠.

(١٨) مؤنس : الميزان المألوف، ص٣٧.

(١٩) محمد عبد الستار : المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٢٠) مؤنس: المرجع السابق، ص ص ٣٩-٤٠.

(٢١) مؤنس: الميزان المألوف، ص٤٥.

(٢٢) مؤنس: الميزان المألوف، ص٥٣.

(٢٣) مؤنس: الميزان المألوف، ص٥٩.

(٢٤) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣ ص٣٤.

(٢٥) مؤنس: الميزان المألوف، ص٦٣.

(٢٦) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣ ص٣٤.

(٢٧) مؤنس : المرجع السابق، ص ص ٦٥-٦٦.

(٢٨) قرآن كريم: سورة القصص آية رقم ٢٣، سورة هود، آية ٧٨، سورة يوســف، آية ٧٨، سورة غافر، آية ٦٧.

(٢٩) حسن الباشا: الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية، مكتبـــة النهضـــة العربية، القاهرة، ١٩٦٦م، جـ٢ ٢ ٢ ٦٢٨-٦٢٩.

(٣٠) حسن الباشا: الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، مكتبـــة النهضـــة العربية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٠٩.

(٣١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٦ ص٣٤، حســـن الباشـــا: المرجــع الســـابق، ص٥٤٠.

(٣٢) حسن الباشا: المرجع السابق، ص٣٨٧.

(٣٣) حسن الباش: المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(٣٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٩٨٤، جـ٣ ص٤٥٤.

(٣٥) رواية عن الأستاذ عوض عيسى.

(٣٦) قرآن كريم، سورة آل عمران الآية رقم ١٨.

(٣٧) البونى [أحمد بن على ت٦٢٢] شمس المعـــارف الكــبرى، بــيروت، المكتبـــة الثقافية، ص١٤٧.

(٣٨) قرآن كريم، سورة الحشر آية٢٢.

(٣٩) قرآن كريم، سورة التوبة آية رقم ٢١.

(٤٠) محمد عبد الستار عثمان: نقوش كتابية عربية إسلامية من سلطنة عمان، دراسة فى المضمون. بحث تحت النشر فى الكتاب التذكارى لتكريم الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن بن محمد بن الطيب الأنصارى والذى يتولى نشره قسم الآثار والمتـــاحف بجامعة الملك سعود، ص ١١.

(٤١) سقط قراءة كلمة "وسبعملة".

(٤٢) قرآن كريم، سورة فصلت الآيات ٣٠-٣٥.

(٤٣) قرآن كريم، سورة الفلك، الآيات ١-٥.

(٤٤) حسن الباشا: الألقاب الاسلامية، ص ص ٥٢٠-٥٢١.

(٤٥) قرآن كريم، سورة الكهف آية رقم ٨٠.

(٤٦) قرآن كريم، سورة النمل آية ٣٤.

(٤٧) حسن الباشا: المرجع السابق، ص ص ٤٩٦-٥٠٠.

(٤٨) حسن الباشا: المرجع السابق، ص ص ٣٢٣-٣٢٨.

(٤٩) حسن الباشا: الألقاب، ص ٥٣٥.

(٥٠) وهذا التحديد وارد احتمال تغيره فى حالة اذا ما كشفت عن حاكم آخر تلقب بـــهذا اللقب فى سلسلة الحكام بعد الفائز الأول وقبل هذا الفائز.

(٥١) أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م، ص ٢٣٠.

(٥٢) قرآن سورة البقرة آية رقم ٢٥٥-٢٥٧.

(٥٣) قرآن كريم، سورة آل عمران، آية ٢٦.

(٥٤) قرآن كريم سورة آل عمران، آية رقم ١٨-١٩.

(٥٥) قرآن كريم، سورة التوبة، آية ٢١.

(٥٦) قرآن كريم، سورة الزمر، آية ٧٤.

(٥٧) قرآن كريم سورة البقرة الآيات ٢٥٥-٢٥٧.

(٥٨) قرآن كريم سورة آل عمران آية ١٨-١٩.

(٥٩) قرآن كريم سورة آل عمران آية ٢٦-٢٧.

(٦٠) قرآن كريم سورة آل عمران آية ١٨٥.

(٦١) قرآن كريم سورة التوبة آية رقم ٢١-٢٢.

(٦٢) قرآن كريم سورة المؤمنون آية ٢٩.

(٦٣) قرآن كريم سورة الزمر، آية ٧٤.

(٦٤) قرآن كريم سورة البقرة آية ٢٨٥-٢٨٦.

(٦٥) قرآن كريم، سورة الحشر، آية رقم ٢١-٢٤.

(٦٦) قرآن كريم سورة الفاتحة ١-٧.

(٦٧) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص ص ٢٦٨، ٢٩٨.

(٦٨) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص٢٩٨-٢٩٩.

(٦٩) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص٢٩٨.

(70) Gest, Op. Cit., p. 409.

(٧١) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص ص٢٧٧-٢٧٨.

(٧٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٩٥.

(٧٣) ابن فضل الله العمرى [شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار [ممالك مصر والشام والحجاز واليمن. تحقيق أيمن فؤاد السيد: المعهد العلمي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٥٢، ص١٥٤.

(٧٤) ربيع حامد خليفة: المرجع السابق، ص١٩٥، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص١٥٦.

(٧٥) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص٢٧٧.

(٧٦) الخزرجي: المصدر السابقجـ١ ص٢١٦.

(٧٧) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص٢٢٦.

(٧٨) الزبير وآخرون - موسوعة السلطان، المرجع السابق، ص١٤٨.

(٧٩) للمزيد راجع ابروس بلديسيرا: الكتابات في المساجد العمانية القديمة، نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧.

(٨٠) كلمات لم نتمكن من قراءتها لوجود الحشائش وارتفاع مستوى الأرض الذى غطى الجزء الأسفل من الشاهد.

(٨١) الخزرجي: المصدر السابق، جـ١ ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

الخاتمة

كشفت هذه الدراسة عن المراحل التاريخية عاشتها مدينة ظفار والدور الذى لعبته فى التجارة العالمية وكيف أن نشأتها وازدهارها ارتبط بالمتغيرات السياسية فى العالم الاسلامى سيما بعد ضعف الخلافة العباسية وازدهار الخلافة الفاطمية فى مصر ثم سيطرة الأيوبيين والمماليك على التجارة فى البحر الأحمر بعد ذلك.

وأوضحت هذه الدراسة مجالات النشاط الاقتصادى الأخرى لهذه المدينة كالنشاط الزراعى والصناعى وكيفية ارتباط الازدهار فى هذين المجالين بالنشاط التجارى.

كما ألقت الدراسة الأضواء على تاريخ بعض الدول والأسرات الحاكمة التى حكمت ظفار كالمنجوين والحبوضيين والرسوليين والكثيريين.

وفى إطار الدراسة الأثرية أوضحت الدراسة مراحل النمو المعمارى والعمرانى لمدينة ظفار والأسباب التى كانت وراء ازدهارها ثم التى أدت إلى انحدارها وضمورها.

وكشفت الدراسة عن أهمية دراسة تخطيط هذه المدينة باعتبارها من مدن الموانئ الاسلامية العربية فى العصور الوسطى وباعتبارها من أهم المدن التى انشئت فى الجزيرة العربية فى العصور الوسطى الاسلامية.

وبينت الدراسة أسس وملامح تخطيط مدينة ظفار فى إطار دراسة تفصيلية لعناصر تخطيطها ونوعيات منشآتها المختلفة كالأسوار والبوابات والمنشآت الدينية والمنشآت التجارية وغيرها.

وفى إطار دراسة تفصيلية للمساجد كشفت الدراسة عن أهم الملامح المعمارية للمساجد الظفارية وما تتميز به عمارة المسجد الجامع من ملامح معمارية خاصة وصححت هذه الدراسة بعض الآراء الخاطئة فى الدراسات السابقة كما أنها أضافت كثيراً من الحقائق التى لم تشر اليها الدراسات السابقة فى إطار يمكن توظيفه لخدمة الكشف والتنقيب عن آثار هذه المدينة وكذلك يمكن توظيفه فى مشروعات ترميم مبانيها الباقية كالمسجد الجامع.

وفى إطار دراسة بعض اللقى الأثرية التى عثر عليها فى موقع تنقيبات جامعة السلطان قابوس فى الموسم ١٩٩٦م بينت الدراسة أهمية هذه المعثورات فى إلقاء الضوء على النشاط التجارى لمدينة ظفار سواء مع بلاد الصين شرقاً أو العراق وإيران واليمن. ومن منظور آخر بينت الدراسة المقارنة لبعض هذه اللقى وبخاصة الأساور الزجاجية عن أن مدينة ظفار كانت على اتصال وثيق بالمدن ومراكز الاستيطان فى الداخل كعين حمران وشصر وغيرها، وهو ما يكشف عن أن مدينة ظفار كانت الميناء الرئيسية لهذه المدن والبلاد الداخلية فى العصور الوسطى.

وأكدت الدراسة صحة ما أورده الرحالة والمؤرخون من مشاهدات عن مدينة ظفار وعادات أهلها ومسكوكاتها وحرفها وصناعاتها وعمائرها من خلال دراسة المواد الأثرية التى كشفت بها.

كما بينت الدراسة المراحل المعمارية التى مرت بها عمارة هذا الجامع وارتباط ذلك بدرجة الكثافة السكانية للمدينة وعلاقة هذه الكثافة بالنشاطات الاقتصادية لمدينة ظفار ازدهارا أو انحدارا، كما وضعت الدراسة تصورا لما يمكن أن يكون عليه مشروع ترميم هذا الجامع.

وأوضحت هذه الدراسة نطاق الامتداد العمرانى لمدينة ظفار وكيف أن هذا العمران امتد خارج أسوارها حتى مقبرة الرباط المقبرة الرئيسية لها وما كان فى هذا الظهير من منشآت مازالت أطلالها تشهد بذلك.

وفى دراسة لبعض المعثورات الأثرية فى إطار الربط بينها وبين ما ورد فى المصادر العربية والأجنبية وكشفت الدراسة عن ازدهار بعض الصناعات فى ظفار وبخاصة صناعة المنسوجات بهدف التصدير فى إطار سياسة اقتصادية رفيعة المستوى.

كما كشفت دراسة نماذج شواهد القبور عن وجود مستوى متقدم للخط العربى فى سلطنة عمان بصفة عامة ومدينة ظفار على وجه الخصوص لايمكن اغفاله فى إطار دراسة الخط العربى على مستوى العالم العربى والاسلامى، وكشفت هذه الدراسة –فى إطار المضمون– عن أن مدينة ظفار كانت مركز جذب للعلماء والفقهاء فرغبوا فى الاقامة بها وهو أمر يتوافق مع ما كانت تضمه المدينة من منشآت تعليمية دينية كالمدارس والزوايا.

أهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية

١- القرآن الكريم.

٢- ابراهيم بوتشيش، التواصل الثقافي بين عمان وبلاد المغرب الاسلامي. بحث تحت النشر.

٣- أحمد شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠.

٤- أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها. دار المعارف. مصر ١٩٦٥.

٥- أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ)، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٦.

٦- اسماعيل علي الأكوع، المدارس الاسلامية في اليمن. بيروت، مؤسسة الرسالة- الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

٧- ايروس بلديسيرا، الكتابات في المساجد العمانية القديمة، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٩٩٧.

٨- باولو أم كوستا، دراسة لمدينة ظفار (البليد)، وزارة التراث القومي والثقافة- سلطنة عمان ١٩٨٤.

٩- ـــــــــــ، الشواهد الأثرية على وجود التبادل التجاري بين التجار العمانيين من جهة والعالم الخارجي وخاصة الشرق من جهة ثانية قبل افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح، بحث بكتاب بعنوان مشروع منظمة التربية والثقافة والعلوم "اليونسكو" لدراسة طريق الحرير- الندوة الدولية لطرق الحرير، جامعة السلطان قابوس، ١٩٨٠.

١٠- ابن بطوطة [شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد اللواتي الطنجي ٧٠٣-٧٧٧هـ/١٣٠٣-١٣٧٥م]، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق علي المنتصر الكتاني، نشر مؤسسة الرسالة لبنان. بيروت ١٩٨٥م.

١١- جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة السيد يعقوب بكر ١٩٥٩.

١٢- جون وليكنسون - صحار تاريخ وحضارة - نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان. سلسلة تراثنا، العدد (٢٠) الطبعة الثانية.

١٣- الجوهري [اسماعيل بن حماد] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

١٤- جى أومين، دراسة تمهيدية عن النقوش الاسلامية فى صلالة بالمنطقة الجنوبية. مجلـــة حصـــاد. وزارة التراث القومى والثقافة. سلطنة عمان، المجلد الثامن، ١٩٨٠.

١٥- جبيب الجنحانى، دور عمان فى نشاط التجارة العالمية فى العصر الاسلامى الأول، ندوة حصاد، الجزء الثالث، ١٩٦٠.

١٦- حسن الباشا، الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة العربية، القـــاهرة، ١٩٥٧.

١٧- ـــــــــــــــ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار، دار النهضة العربية، القـــاهرة ١٩٦٥م.

١٨- الحميرى [محمد بن عبد المنعم] الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس. مكتبـــة لبنان ١٩٨٤م.

١٩- ابن حوقل [أبو القاسم محمد بن على النصبى ت ٣٦٧هـــ/٩٧٧م] صورة الأرض، تحقيـــق كريمرز- ليدن، ١٩٣٩.

٢٠- خالد بن أحمد العليان، البيوت القديمة فى محافظة ظفار، المطابع العالمية. روى، مسقط ١٩٩٤.

٢١- خالد مصطفى، آثار رسول صلى الله عليه وسلم، القاهرة ١٤١٧هـــ.

٢٢- الخزرجى [على بن الحسن] العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، دار صادر، بـــيروت، نسخة مصورة عن طبعة دار الهلال ١٩١١م.

٢٣- ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الاسلامى، الـــدار المصريـــة اللبنانيـــة، بيروت، القاهرة ١٩٩٢.

٢٤- ابن رسته [أبو على أحمد بن عمر] الأعلاق النفيسة. ليدن ١٩٨٢.

٢٥- السالمى، [عبد الله بن حميد] تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، نشر زظاهر وزهير ابـــنى حفيـــد المؤلف سعود بن حمد

٢٦- س.ب. ميلز، الخليج وبلدانه وقبائله، نشر وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٠.

٢٧- سحر السيد عبد العزيز سالم، عمان وطريق تجارة التوابل عـــبر المحيـــط الهنـــدى فى العصـــر الاسلامى. بحث فى كتاب بعنوان مشروع منظمـــة التربيـــة والثقافـــة والعلوم "اليونسكو" لدراسة طرق الحرير، حصـــاد النـــدوة الدوليـــة الحرير. بجامعة السلطان قابوس. مسقط ١٩٩١م.

٢٨- سعاد ماهر محمد، مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى، القاهرة دار مطابع الشعب، ١٩٦٥.

٢٩- ابن سعيد المغربى، [أبى الحسن على بن موسى]، كتاب الجغرافيا، تحقيـــق اسمـــاعيل العـــربى، منشورات المكتب التجارى للنشر والتوزيع، بـــيروت، الطبعـــة الأولى

١٩٧٠.

٣٠- السكرى [على بن جوهر] الكوكب السيار إلى قبور الأبرار،تحقيق ودراسة ونشر محمد عبـــد الستار عثمان، دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية ١٩٩٢.

٣١- السمهودى [نور الدين أبو الحسن على بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن علـــى الشـــافعى ٨٤٤-٩١١هـــ/١٤٤٠-١٥٠٥م]، وفـــاء الوفـــا بأخبـــار دار المصطفى، دار الآداب والمؤيد بمصر ١٢٢٦هـــ.

٣٢- السيابى [سالم بن حمود بن شامس]، عمان عبر التاريخ نشر وزارة التراث والثقافة، الطبعـــة الثالثة ١٩٩٤م.

٣٣- سيدة اسماعيل كاشف، علاقة عمان بشمال افريقية، بحث قدم لندوة "عمـــان فى التـــاريخ"، بجامعة السلطان قابوس ديسمبر ١٩٩٤م.

٣٤- طاهر مظفر العميد، بغداد مدينة المنصور، مطبعة النعمان بالنجف الأشرف ١٩٦٧م.

٣٥- طه الولى، المساجد فى الاسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٣٦- عادل غباشى، مصانع النورة بمكة المكرمة حتى نهاية العصر العثمانى، مجلـــة الـــدارة، العـــدد الأول، المحرم ١٤١١، السنة الثالثة والعشرون، الرياض.

٣٧- عاطف عبد السلام عوض الله، بلاد بونت ومحاولـــة لتحديـــد موقعـــها ق١٤ق.م رحلـــة حتشبسوت، مجلة نزوى، العدد السادس أبريل ١٩٩٦.

٣٨- عبد المنعم سيد عبد الحليم، الأصول المصرية لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبـــل الاسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية- الكتاب الثـــانى، الريـــاض، ١٩٨٤

٣٩- العمرى [شهاب الدين أحمد بن يحى بن فضل الله ت ٧٤٩هـــ/١٣٤٨م]، مسالك الأبصـــار فى ممالك الأمصار "ممالك مصر والشام والحجاز واليمن"، تحقيق أيمـــن فؤاد السيد، نشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥م.

٤٠- القلقشندى [أحمد بن على بن أحمد ت٨٢١هـــ] صبح الأعشى فى صناعة الانشا، القـــاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٨.

٤١- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الاسلامية فى عصر الولاه، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

٤٢- ماركو بولو، رحلات ماركو بولو. ترجمها إلى الانجليزية وليم مارسون، وإلى العربية عبد العزيز جاويد. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧.

٤٣- ابن المجاور [يوسف بن يعقوب بن محمد ٦٠١-٦٩٠هـــ/١٢٠٤-١٢٩١م]، صفة بـــلاد

اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر لابن المجاور اعتنى بنشره وتصحيحه: أوسكر لوفقرين، المدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٩٨٦.

٤٤- مجدى عبد العزيز، دراسة تحليلية لبعض القصور والدور بالقاهرة، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الفنون الجميلة، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٤.

٤٥- محمد أفندى مؤنس، الميزان المألوف فى وضع الكلمات والحروف نشرة مع مقدمة بعنوان الخط العربى جمال التونى، دار الكتاب المصرى للطباعة والنشر.

٤٦- محمد بن الزبير وآخرون، موسوعة السلطان قابوس لأسماء العلماء العرب، دليل أعلام عمان، نشر جامعة السلطان قابوس، مطابع العالمية بمسقط ١٩٩١م.

٤٧- محمد سيف النصر، المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية، مجلة الإكليل.

٤٨- محمد عبد الستار عثمان، مسجد سدوس- دراسة أثرية معمارية، مجلة كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، العدد (١٦) ١٩٩٤.

٤٩- ______، نقوش كتابية عربية من سلطنة عمان، دراسة فى المضمون، بحث تحت النشر فى الكتاب التذكارى الذى يصدره قسم الآثار جامعة الملك سعود لتكريم الأستاذ عبد الرحمن بن محمد الطيب الأنصارى.

٥٠- ______، المدينة الإسلامية، نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب- دولة الكويت، سلسلة عالم المعرفة العدد (١٢٨) ١٩٨٨م

٥١- محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، رسالة دكتوراه، مقدمة لجامعة أسيوط، ١٩٨٠.

٥٢- ______، مصحف مملوكي بالقراءات السبع من جزيرة شنديويل، مجلة العصور، دار المريخ للنشر، لندن، المجلد الثامن، الجزء الأول ١٩٩٣.

٥٣- محمد بن عبد الله الدفاع، عمارة المساجد فى مرتفعات جنوب غرب المملكة العربية السعودية أنماطها المعمارية وتأثرها بمسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم- سجل أبحاث ندوة عمائر المساجد، نشر كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، المجلد الثانى، ١٩٩٩.

٥٤- محمد بن على الأكوع الحوالى، اليمن الخضراء مهد الحضارة، مكتبة الجيل الجديدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

٥٥- المقريزى [تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م]، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، دار صادر بيروت، د.ت.

٥٦- محمد ناصر الألبانى، تلخيص أحكام الجنائز، المكتبة الاسلامية، د.ن، الطبعة الثانية، د.ت.

٥٧- محمود محمد الحويرى، ساحل شرق الريقية من فجر الاسلام حتى الغزو البرتغالى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦.

٥٨- أبى مخرمة [أبى محمد بن عبد الله الطيب بن أحمد]، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندى والأهدل، نشر مكتبة مدبولى، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

٥٩- معاوية ابراهيم، محمد عبد الستار عثمان، عاطف عبد السلام، تقرير أولى عن حفريات جامعة السلطان قابوس، البليد موسم ١٩٩٦م [تحت النشر].

٦٠- مونيك كارفران، مدينة صحار وعلاقتها بطرق الحرير، بحث فى كتاب "مشروع منظمة التربية والثقافة والعلوم"، (اليونسكو) لدراسة طرق الحرير بسلطنة عمان، وزارة التراث القومى والثقافة، ١٩٩١م.

٦١- ناصر خسرو [أبى معين الدين ناصر خسرو القباديانى المروزى]، سفرنامة رحلة ناصر خسرو، ترجمة أحمد خالد البلى، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٣.

٦٢- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣.

٦٣- وثيقة وقف السلطان برسباى، ٨٨٠ أوقاف.

٦٤- ابن الوردى [أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م]، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، ١٢٨٠هـ.

٦٥- وزارة الاعلام، المنطقة الجنوبية ظفار، سلسلة "سلطنة عمان ومسيرة الخير" نشر وزارة الاعلام بسلطنة عمان، ١٩٨٧.

٦٦- ______، سلطنة عمان - تاريخ عمان البحرى، ١٩٧٩.

٦٧- وندل فليبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، نشر وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٤.

٦٨- ياقوت الحموى [ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م]، معجم البلدان، بيروت، دار صادر ١٩٨٠.

٦٩- اليعقوبى [أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهيب بن واضح] البلدان، نشر هنرى بسيرلس، الجزائر، ١٩٦٠.

٧٠- يوريس زارينز، التنقيبات الأثرية فى محافظة ظفار، ترجمة عبد الله الراضى، مجلة نزوى، العدد الثانى، ١٩٩٥.

٧١- اليونينى [موسى بن محمد]، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند ١٩٥٥م، الطبعة الأولى.

72- Creswell (K. A. C), Early Muslim Architecture 2nd ed, Oxford, Charendon Press, 1969.

73- Eliot (Charles) The East of Africa Protectorate, London, 1966.

74- Juris Zarins, Dfufar- Land of Incense, Archaeological Works in the Sultanate of Oman 1990-1995, to be Published by Sultan Qaboos University & Ministry of Information, Sultanate of Oman.

75- Serjeant (R & Lewcock R) Sana An Arabian Islamic City. England, 1983.

76- Makerjti Radhakumud. N. A. Indian Shijsping, Ahtistary of Sea Borne Trade and Maritime Activity of Indian from Early time to the end of Mogol Period, London 1912.

77- Miles S. B, The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, Edinburh (New Edition Published in 1966).

78- Morelkand (Wl H), The ships of the Arabian Sea about 1500 J. R. A. S, Great Britain and Irland London 1939.

79- Varthema Ludvice, di Les Vogage Divico Varthema. Paris 1888.

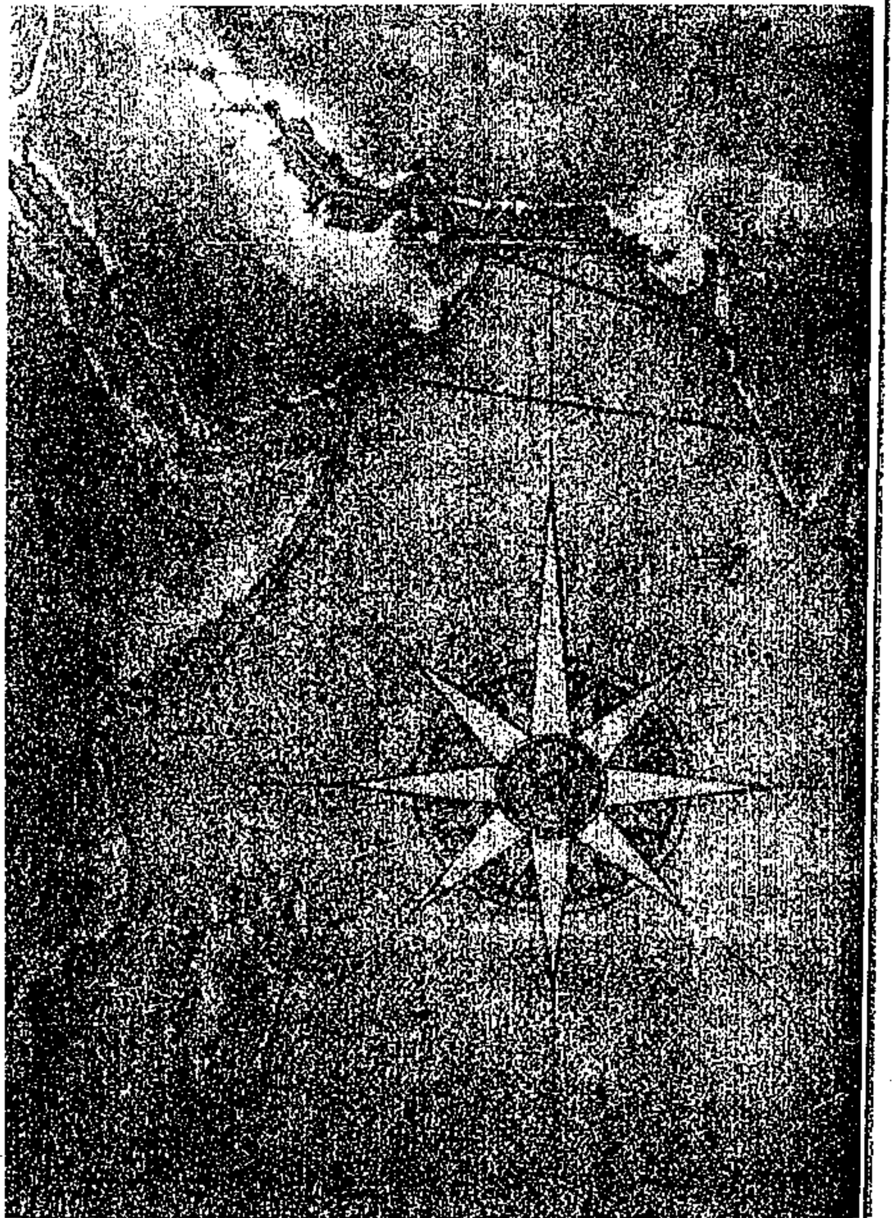
بيان الأشكال

بيان اللوحات

رقم اللوحة	البيان
١	نماذج من قطع المسكوكات الصينية التى عثر عليها فى ظفار (محفوظة فى متحف المركز الثقافى).
٢	أساور زجاجية عثر عليها فى مدينة ظفار (محفوظ قسم الاثار جامعة السلطان قابوس).
٣	قطع من الخزف الصينى [السلادون والبورسلين] محفوظة فى قسم الآثار- جامعة السلطان قابوس.
٤	تبين حامل خشبى عثر عليه فى المسجد الجامع بمدينة ظفار (عن: كوستا).
٥	تبين قطع من العملة النحاسية المحلية التى ضربت فى ظفار محفوظة فى قسم الآثار - جامعة السلطان قابوس.
٦	تبين منظر عام لأطلال الجد الجامع بمدينة ظفار.
٧	تبين أعمدة مسجد الرباط ويعلوها بناء نافذ العقود.
٨	تبين الواجهة الجنوبية لمسجد الرباط.
٩	تبين مئذنتى جامع صنعاء (عن سيرجيت).
١٠	لوحدتين مئذنتا المدرسة الأشرفية (عن: الأكوع).
١١	لوحة تبين مئذنة بوطويرق (عن: الأكوع).
١٢/أ	تبين وجه شاهد الرأس لقبر الملك الواثق.
١٢/ب	تبين ظهر شاهد الرأس لقبر الملك الواثق.
١٢/جـ	تبين وجه شاهد القدم لقبر الملك الواثق.
١٢/د	تبين ظهر شاهد القدم لقبر الملك الواثق.
١٣/أ	تبين شاهد قبر الشيخ محمد بن ابى بكر.
١٣/ب	تبين تفاصيل كتابات من متن شاهد الشيخ محمد بن أبى بكر.
١٣/جـ	تبين تفاصيل كتابات هامش شاهد الشيخ محمد بن ابى بكر.
١٤	تبين محراب المسجد المعى بالمسجد الجنائزى.
١٥	تبين منظر عام لحفريات جامعة السلطان قابوس موسم ١٩٩٦ بمنطقة الاغتسال.
١٦	تبين مسجد الرباط من الخارج وبجواره مجموعة من شواهد القبور بمقبرة الرباط.
١٧	قطع من الفخار المحلى الخشن.
١٨	قطع من الفخار المحلى المزخرفة باللون الأحمر.

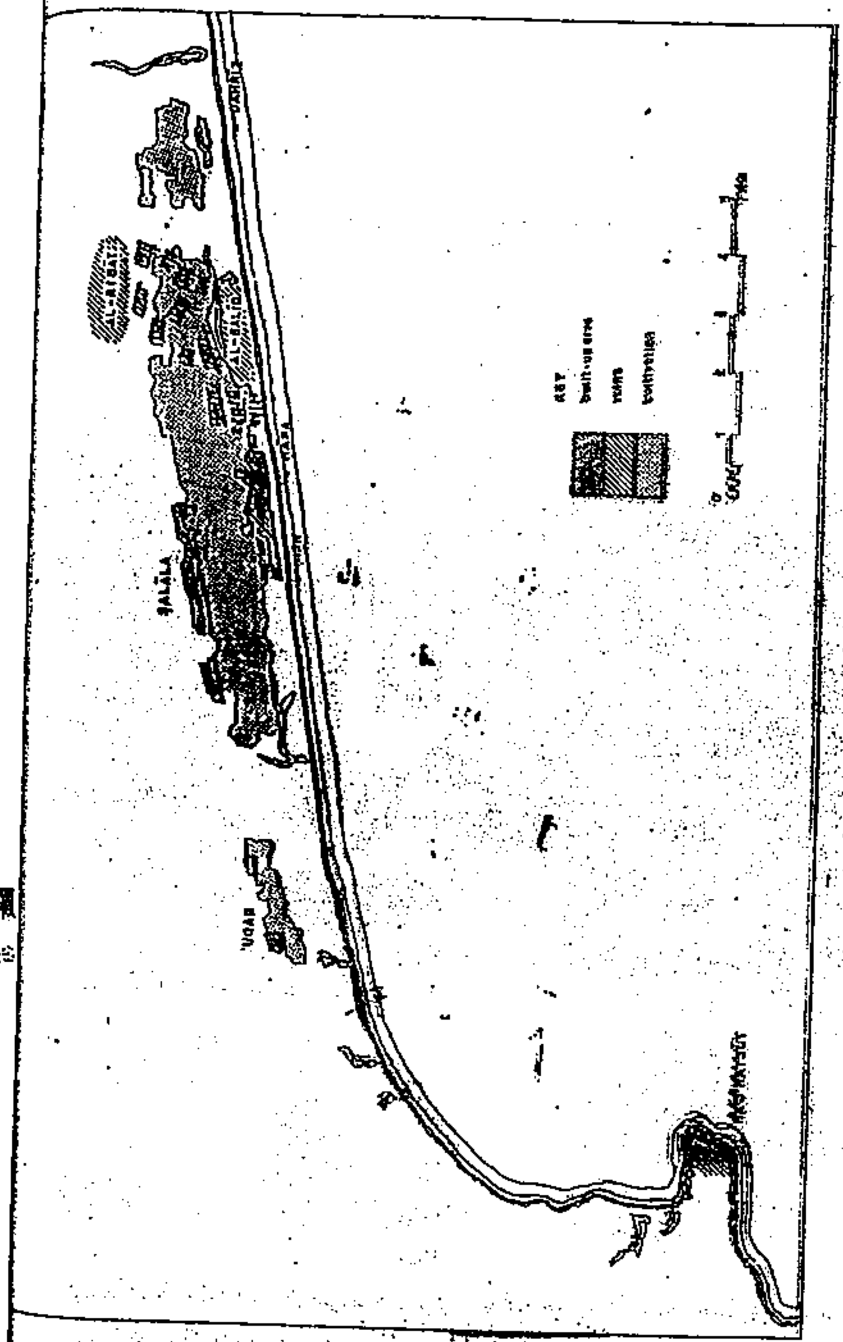
٢٠	رسم لقطع من أوانى فخار من ظفار (البليد- فخار محلى خشن).
٢١	رسم لقطع من أوانى فخارية من ظفار (البليد) من فخارى محلى مزخرف (عن جامعة السلطان قابوس - قسم الآثار).
٢٢	رسم لقطع من الخزف السلادون والبورسلين الطيفى عثر عليها فى ظفار (البليد) عن قسم الآثار جامعة السلطان قابوس.
٢٣	رسم لأصداف وأساور من الزجاج عن قسم الآثار (جامعة السلطان قابوس).

الأشكال

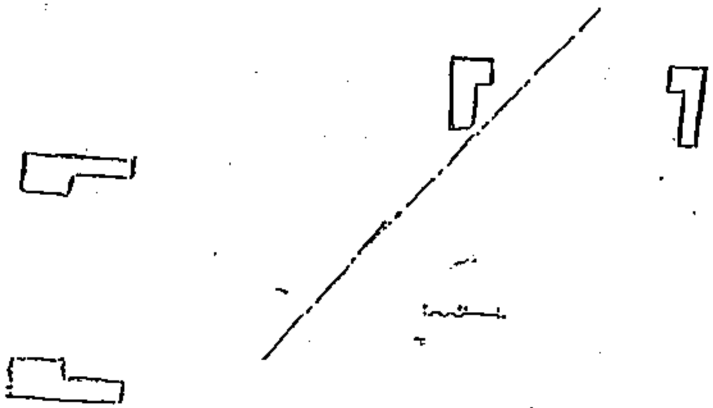


شكل (١)

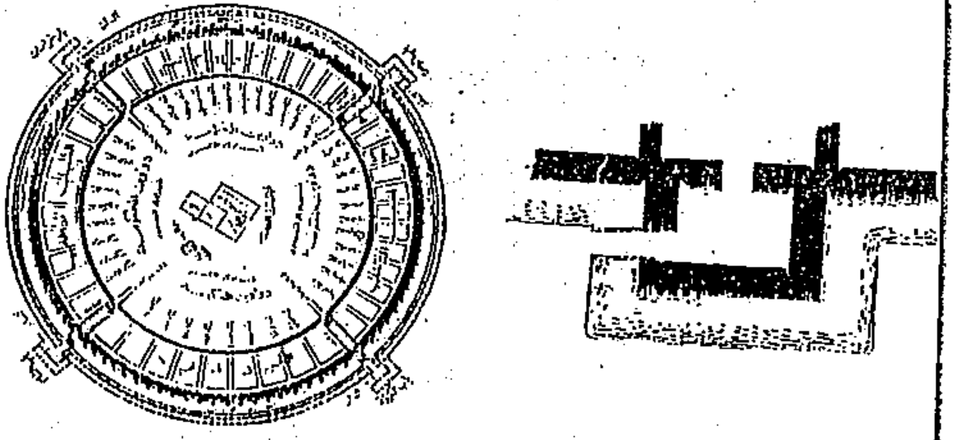
خريطة لسلطنة عمان موضح عليها موقع مدينة ظفار وطرق التجارة التى كانت تصل إليها، عن: وزارة الثقافة والإعلام بسلطنة عمان.



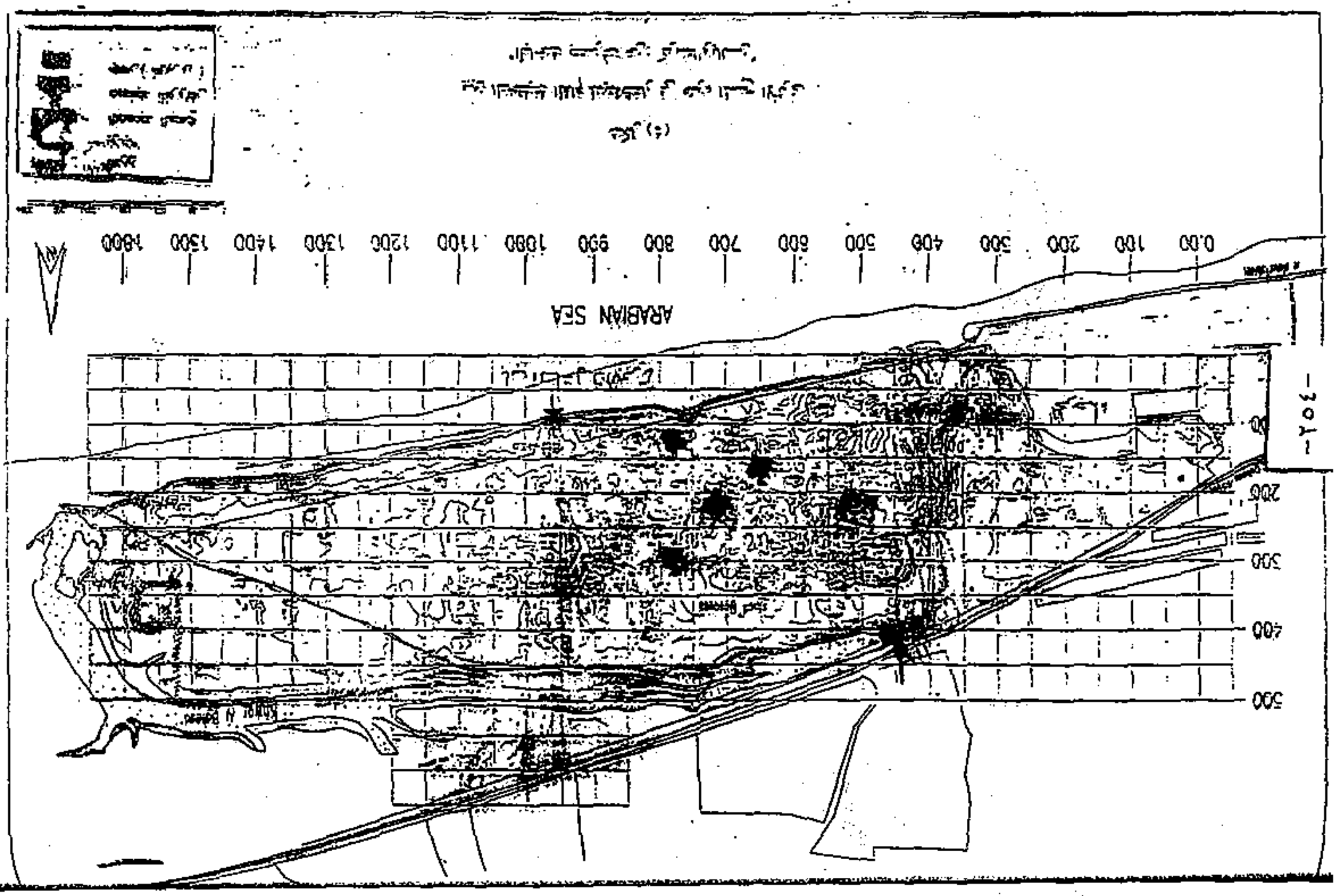
شكل (٢) خريطة تبين التوسع العمراني لمدينة ظفار
[الباحث بتصرف]



شكل (٣/ ا)
مسقط افقى للبوابة الجنوبية لمدينة ظفار (باب الساحل)
(عن كوستا).



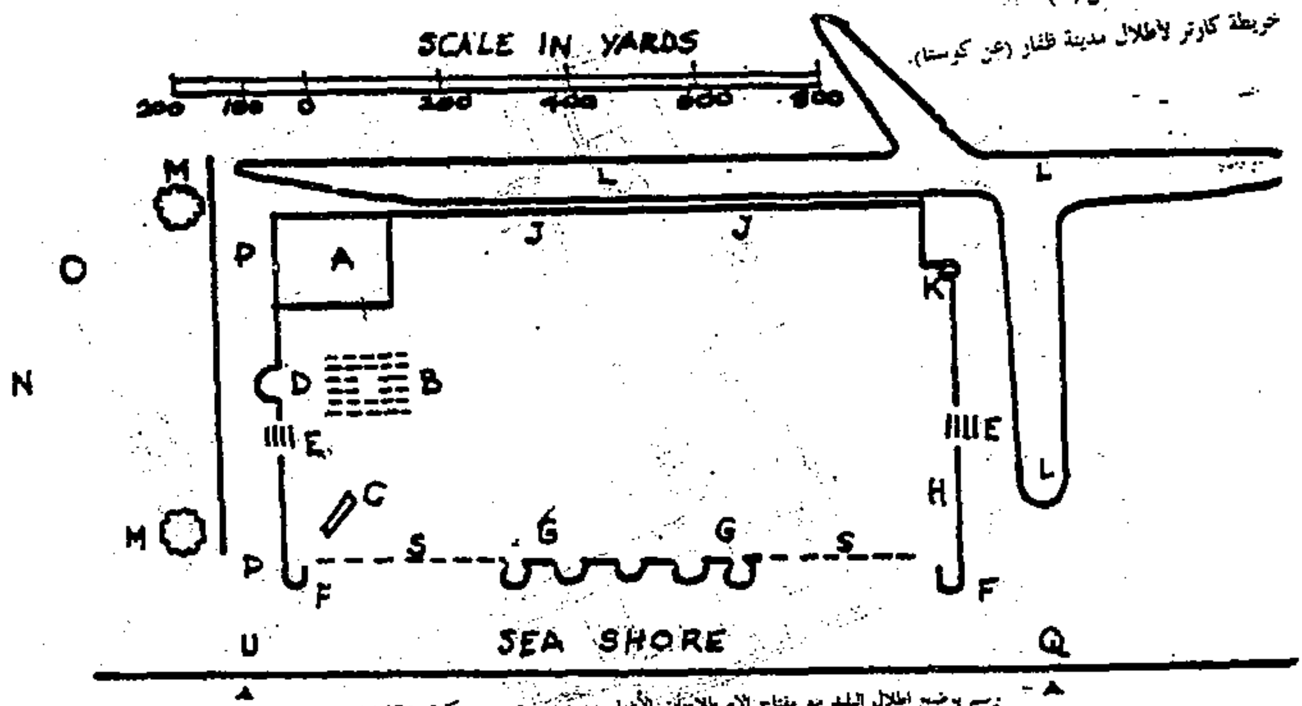
شكل (٣/ب)
مسقط افقى لمدينة بغداد وأحد مداخلها
عن فرود شلام، وعيسى سلمان.



شكل (٤)

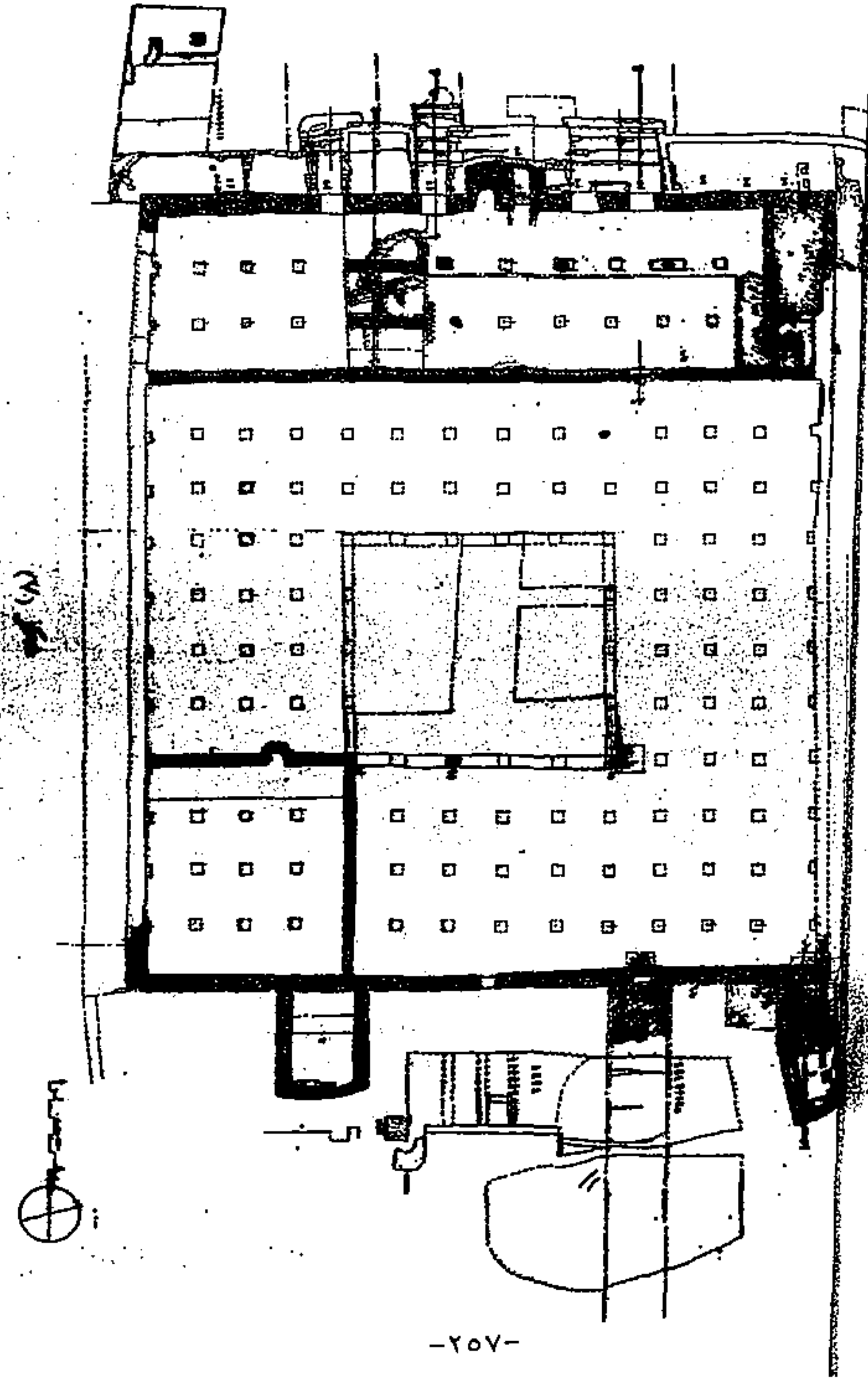
شكل (٥)

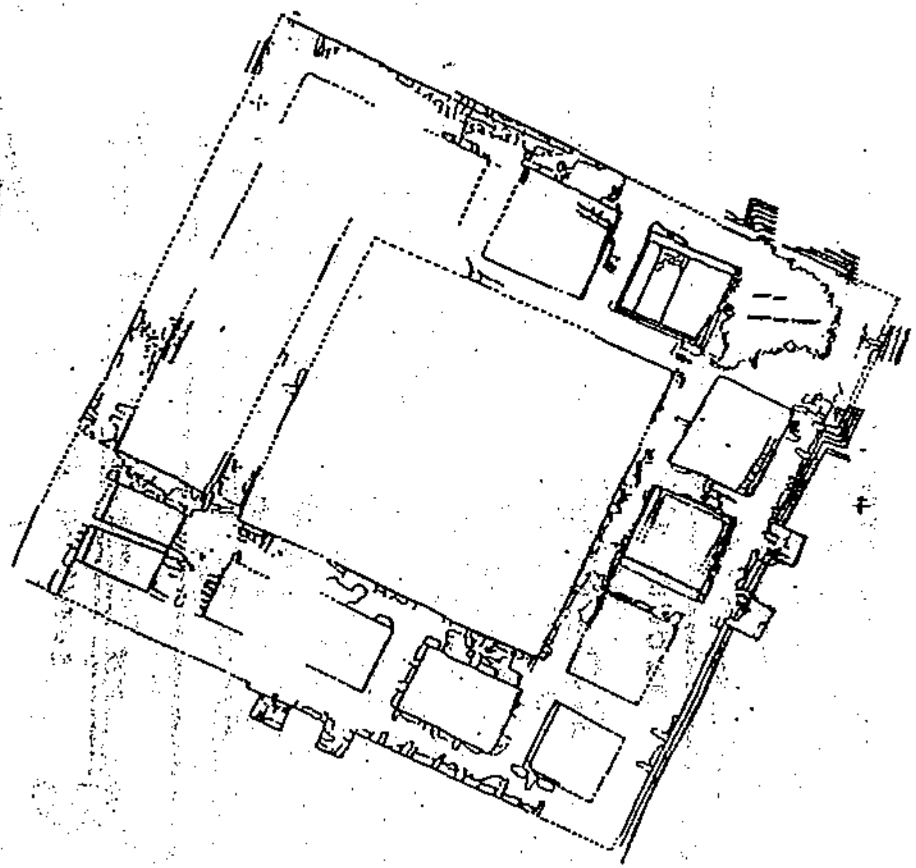
خريطة كارتر لأطلال مدينة ظفار (عن كوستا).



رسم يوضح أطلال البلد مع مفتاح الاصطلاحات الأصل من مرجع • . ج . كارتر (١٨٤٦) .

(A) القلعة . (B) المعبد . (C) عامود عليه كتابات . (D) برج . (E) مكان لرسو السفن . أبراج على الأجناب . (GG) أطلال السور . (H) أطلال السور . (JJ) مكان لرسو السفن . (K) البرج . (LLLL) بركة مياه عذبة . (MM) أبراج كبيرة . (N) أطلال خارج المدينة . (O) المقابر . (P) الخندق الغربي . (Q) مدخل للميناء مغمور بالطمي . (R) اتجاه يجري إلى (Q) . (U) مدخل محتمل . أطلال مُغطاة .

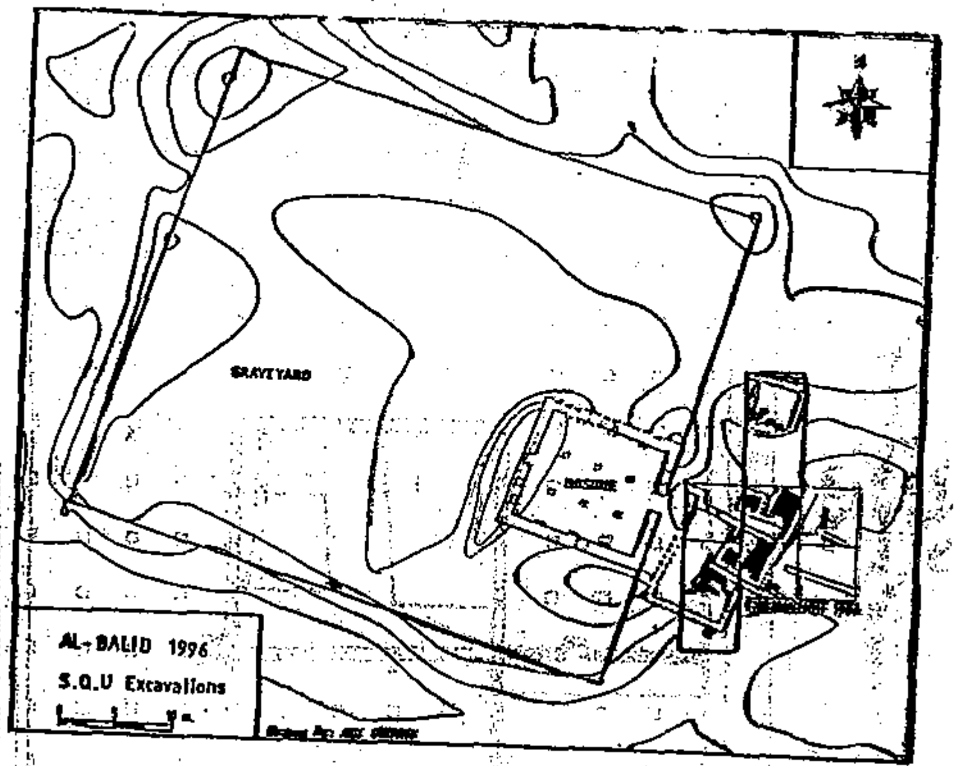




شكل (٦)

مسقط أفقى للمبنى الذى كشفه كومنتا فى المنطقة B من حفرياته بالمدينة

عن : كومنتا



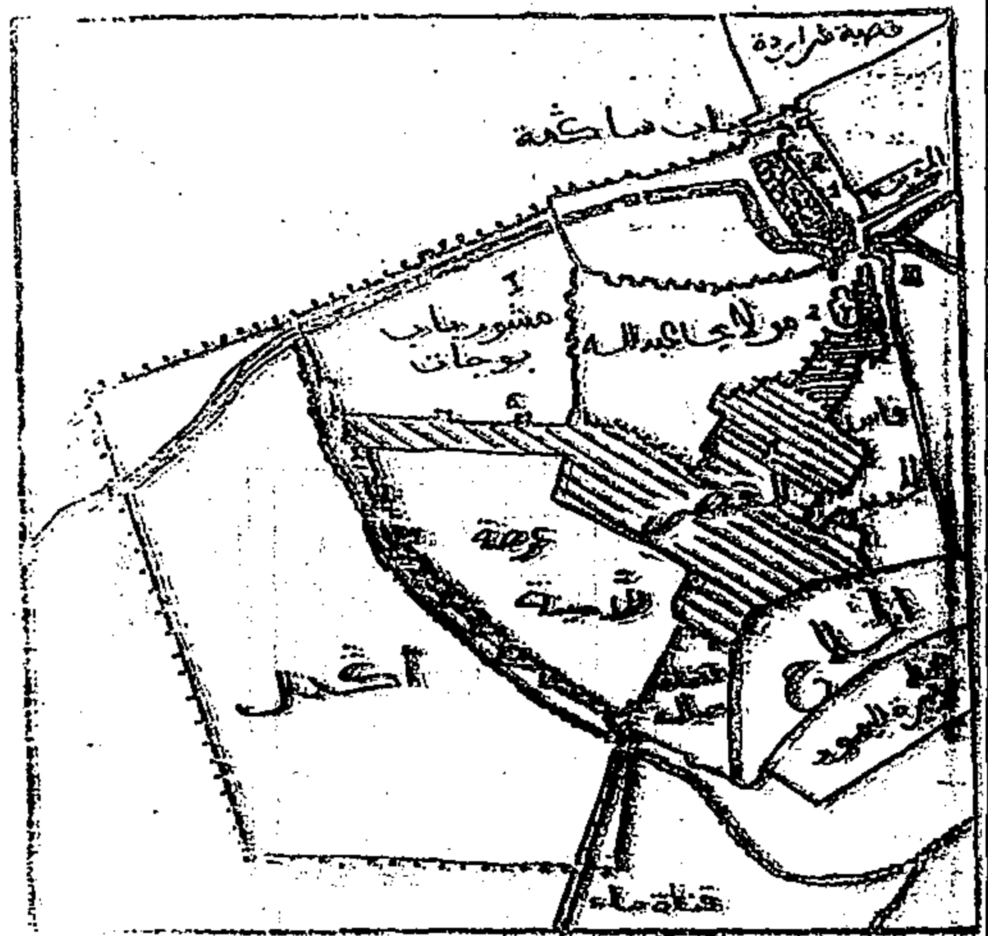
شكل (٨)

مسقط أفقي للمسجد المسمى بالمسجد البلاتري والمقبرة المحيطة به

(عن كوستا).

شكل (٩)

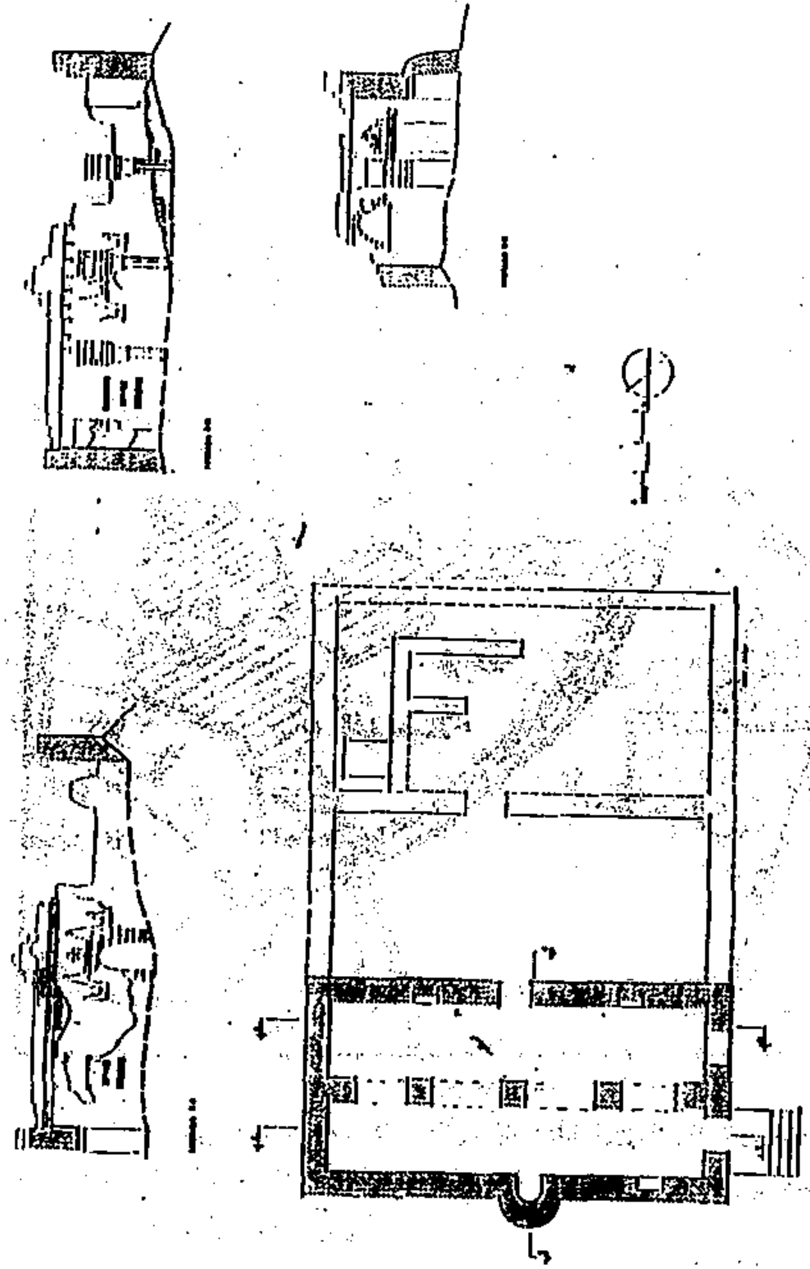
مخطط لوحدات قصر مولاى عبد الله بالمغرب ويظهر به المشور.

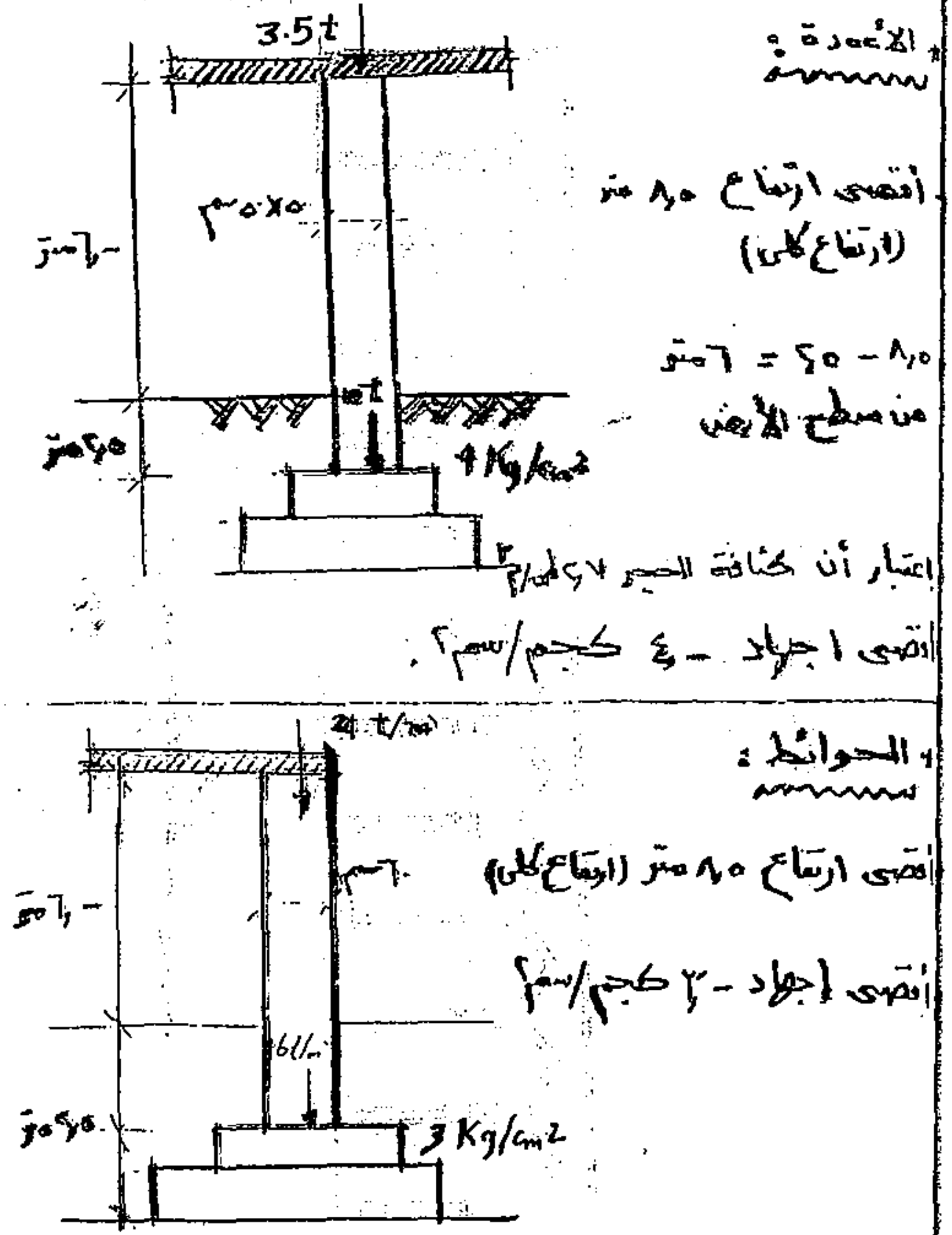


القصر وملحقاته

I. مشور باب بوجات II. مشور باب الدكاكين III. المشور القديم

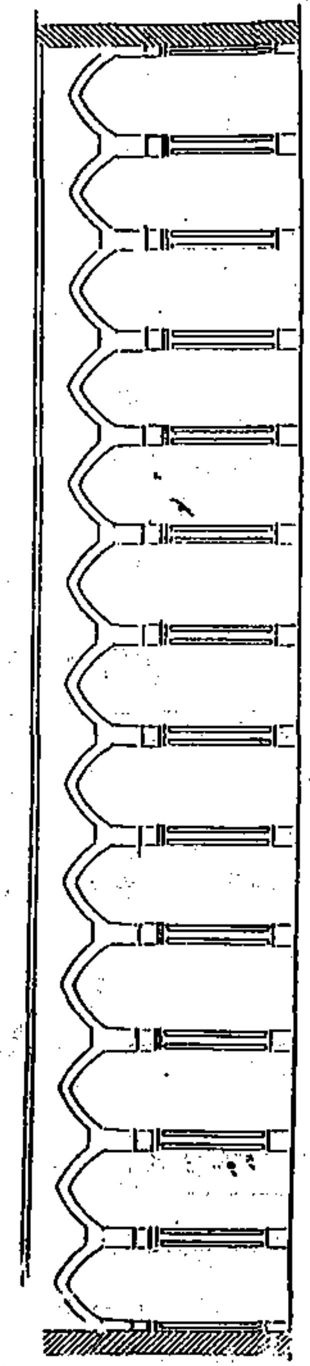
باب الدكاكين 2. الجامع الكبير 3. دار المخزن 4. القصر 5. السور المريني الذي دعمه العلويون 6. منتزه مولاي عبد العزيز.





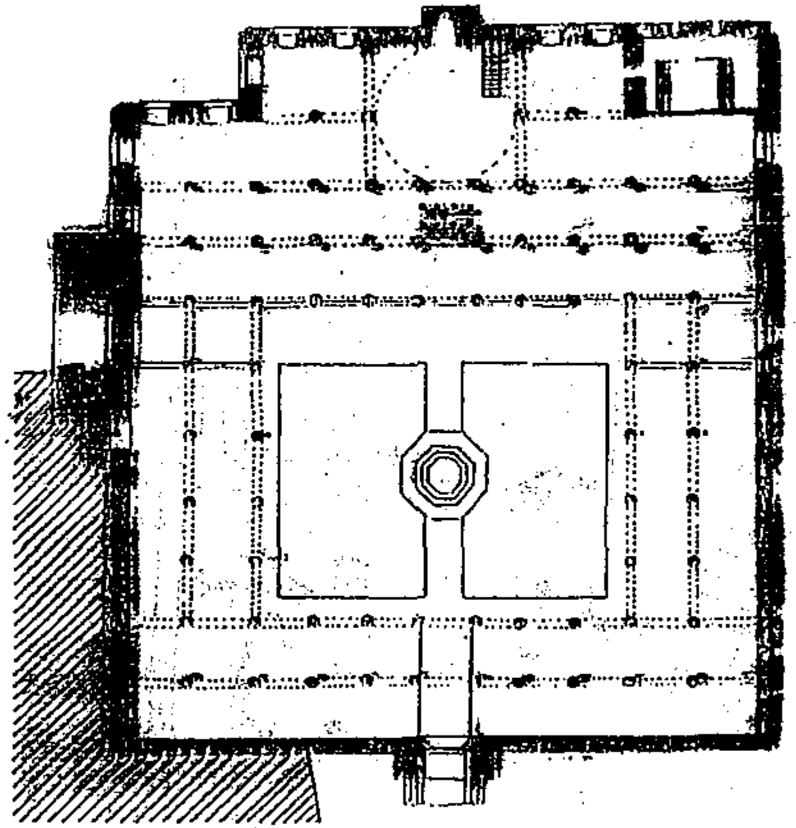
شكل (١١)

رسم تخطيطي يبين كيفية حسابات ارتفاع حوائط وسقف المسجد الجامع



شكل (١٢)

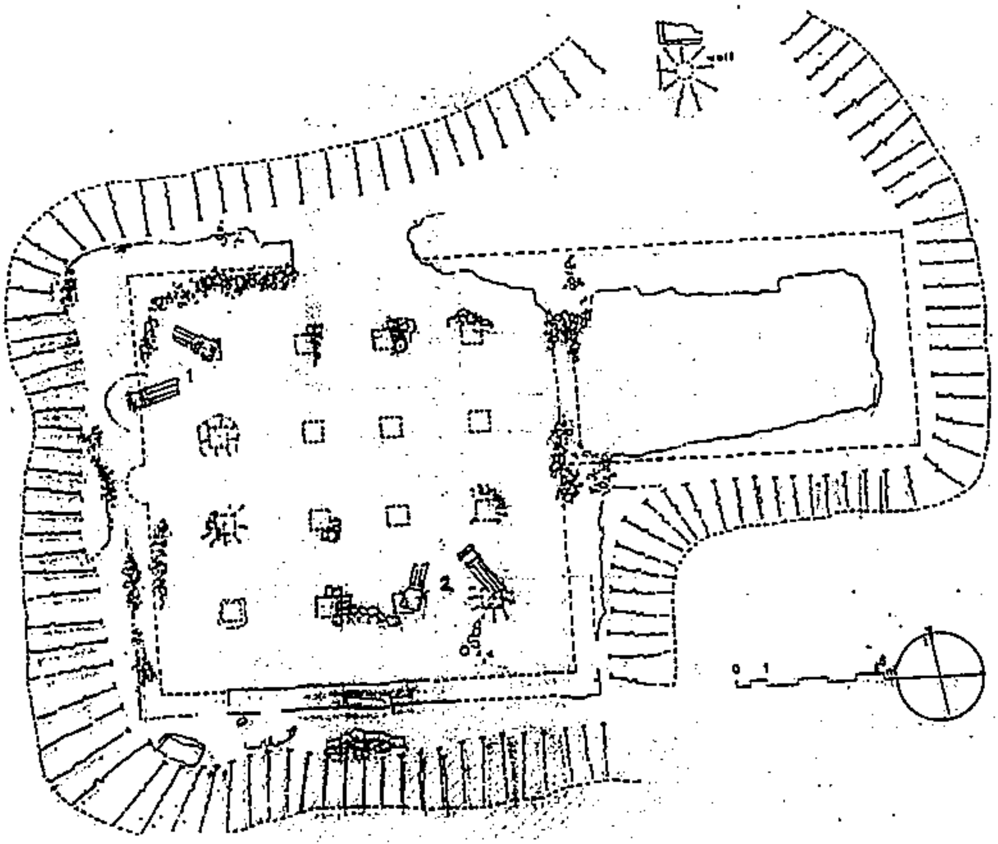
[illegible]



شكل (١٣)

مسقط افقى لجامع المارداني بالقاهرة

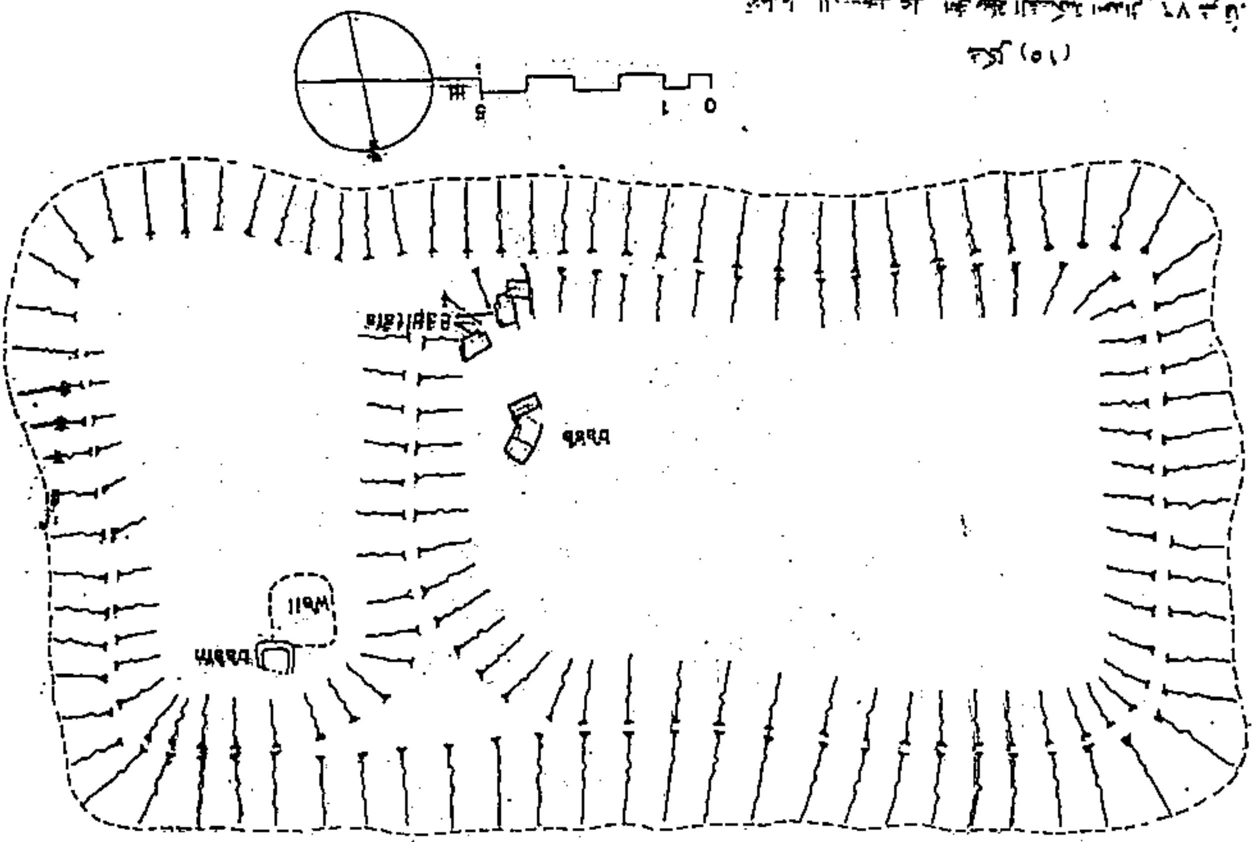
(عن: مصلحة الآثار المصرية)



شكل (١٤)

مخطط المسجد احداثي على الخريطة الشبكية احداثي ٨٧٠ شرقاً، ٢٨٥ شمالاً

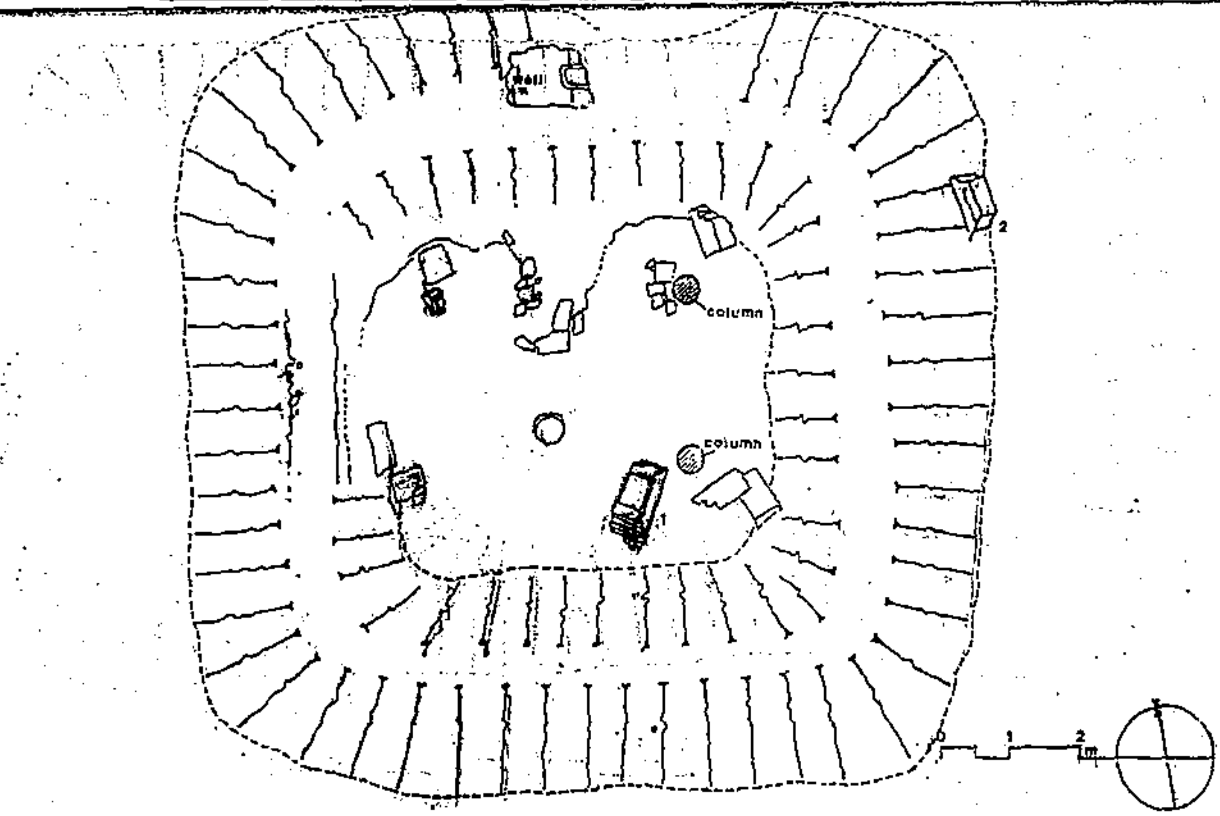
(عن: كوسجا).



شكل (١٥)

رسم تخطيطي للمسجد على الخريطة الشبكية احداثي ٧٦ شرقاً، ١٢ شمالاً

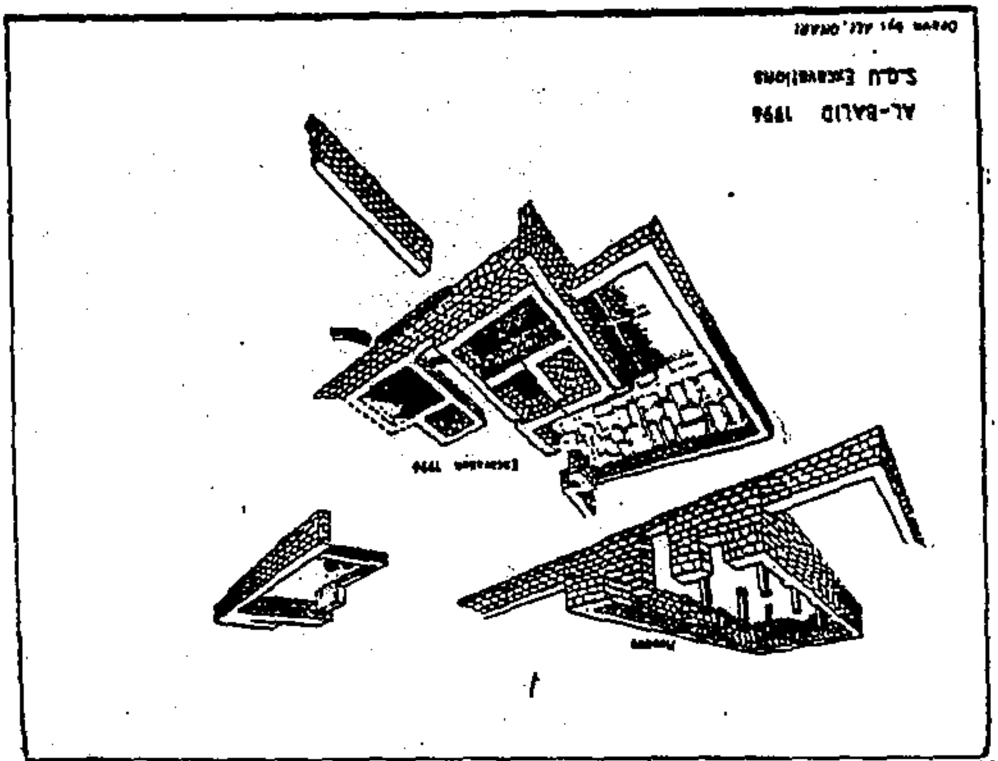
(عن: كوسجا).



شكل (١٦)

رسم تخطيطي للمسجد على الخريطة احداثي ٥٤,٥ شرقاً، [illegible] شمالاً

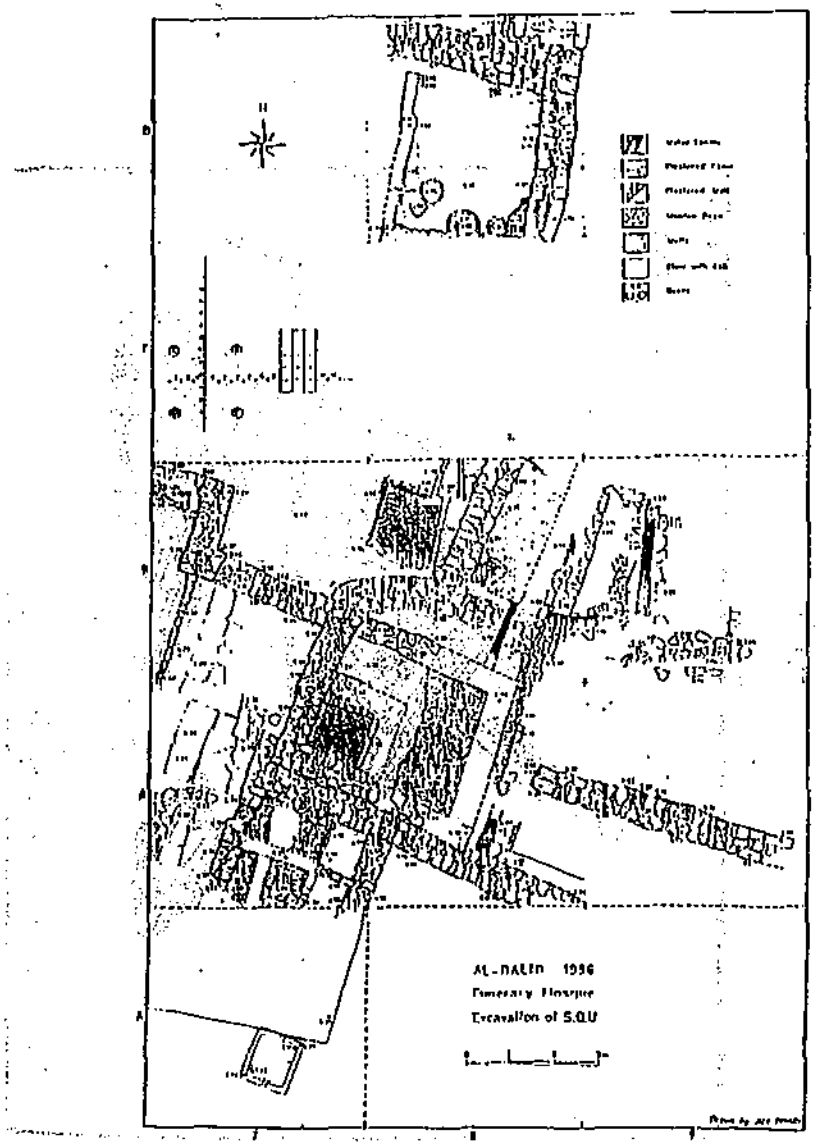
(عن: كوستا).



شكل (١٧)

شكل منظوري "للمسجد الجنائزي"

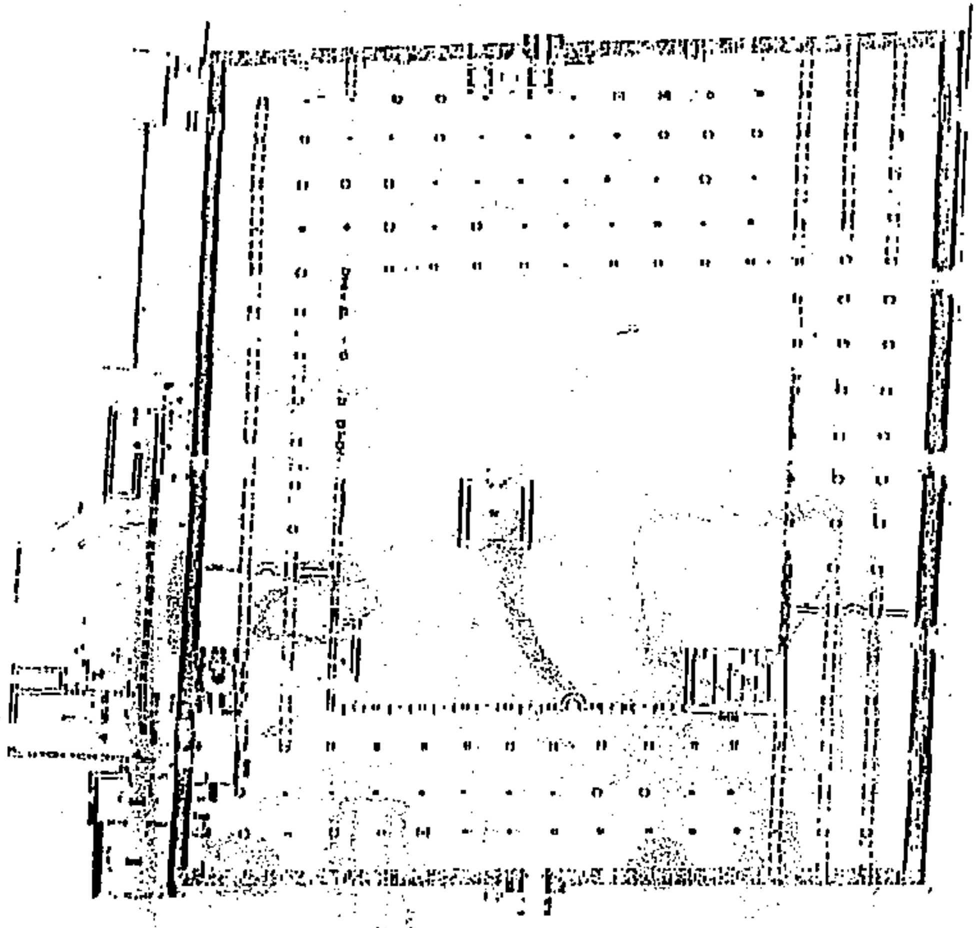
عن: قسم أرشيف الآثار - جامعة السلطان قابوس



شكل (١٨)

مسقط أفقي لحفريات منطقة الاغتسال موسم ١٩٩٦

(عن: جامعة السلطان قابوس- قسم الآثار)



شكل (١٩)

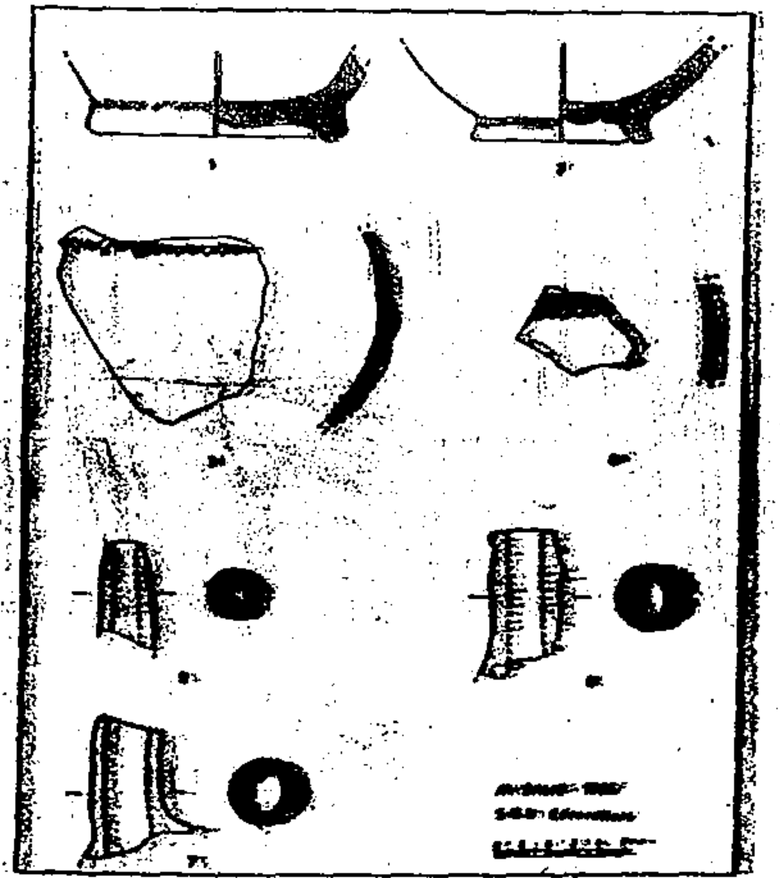
مسقط أفقي لجامع صنعاء

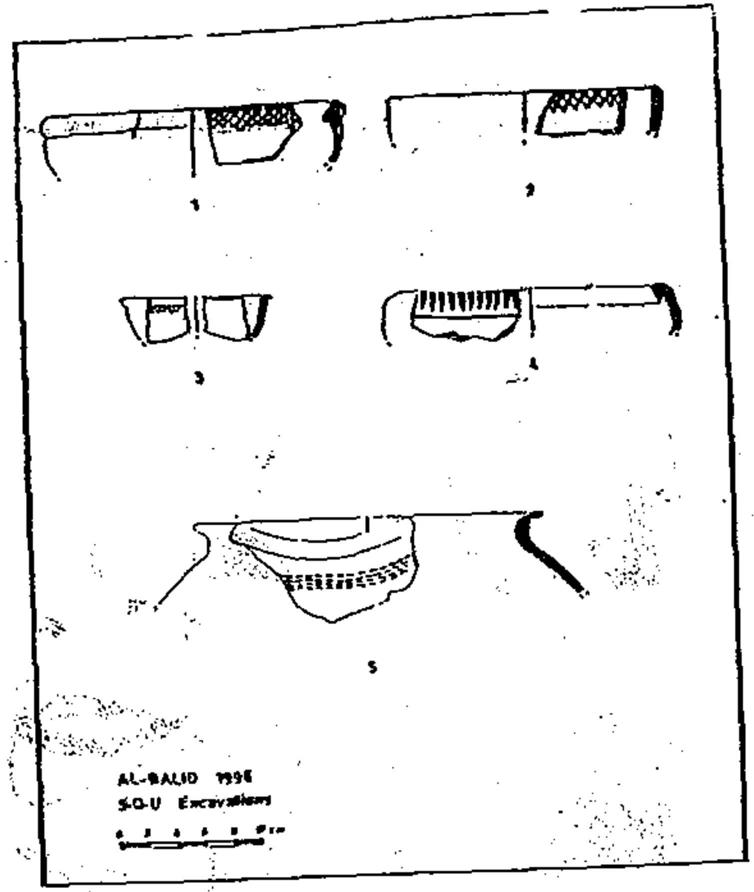
(عن: سرجنت)

شكل (٢٠)

رسم لقطع من أواني فخار من ظفار

(البليد- فخار محلي خشن)





شكل (٢١)

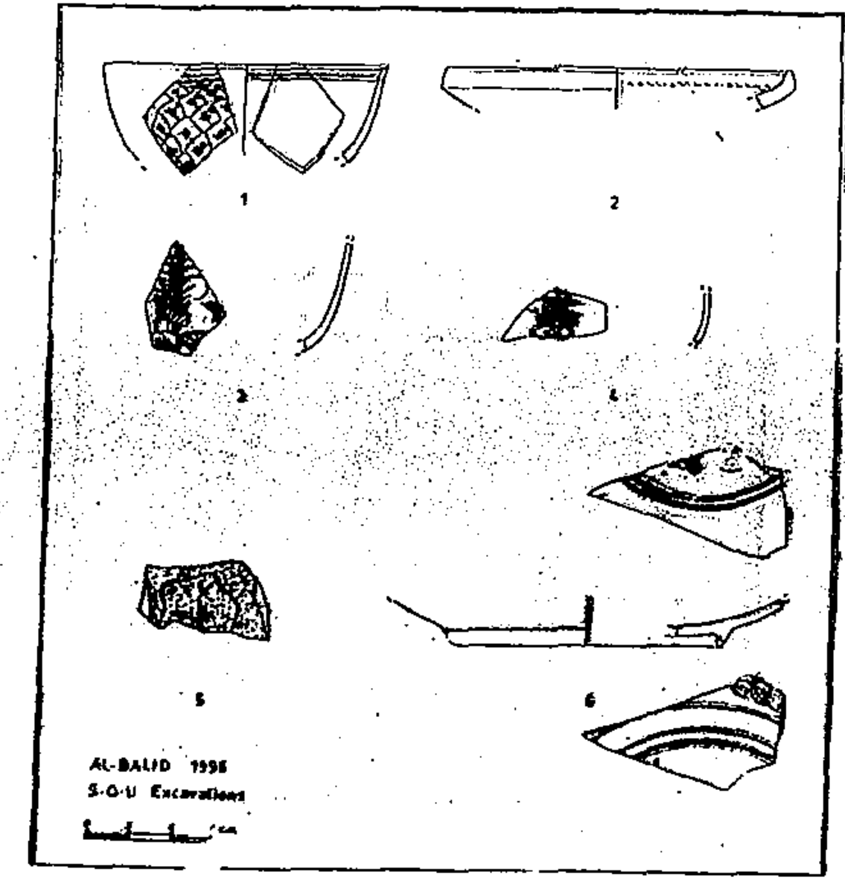
رسم لقطع من أواني فخارية من ظفار (البليد) من فخار محلي مزخرف

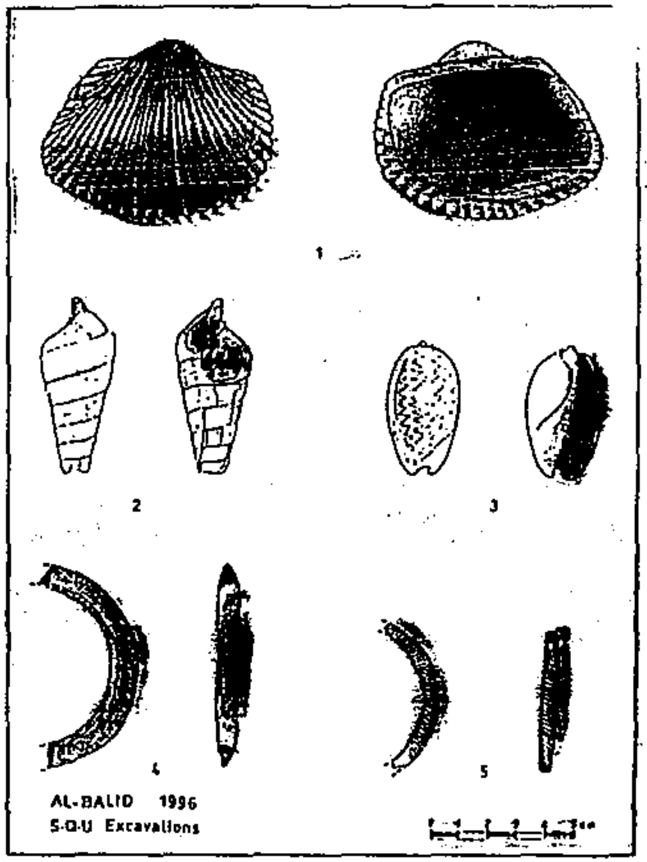
(عن جامعة السلطان قابوس - قسم الآثار)

شكل (٢٢)

رسم لقطع من الخزف السلادون والبورسلين الصينى عثر عليها فى ظفار (البليد)

(عن قسم الآثار جامعة السلطان قابوس)



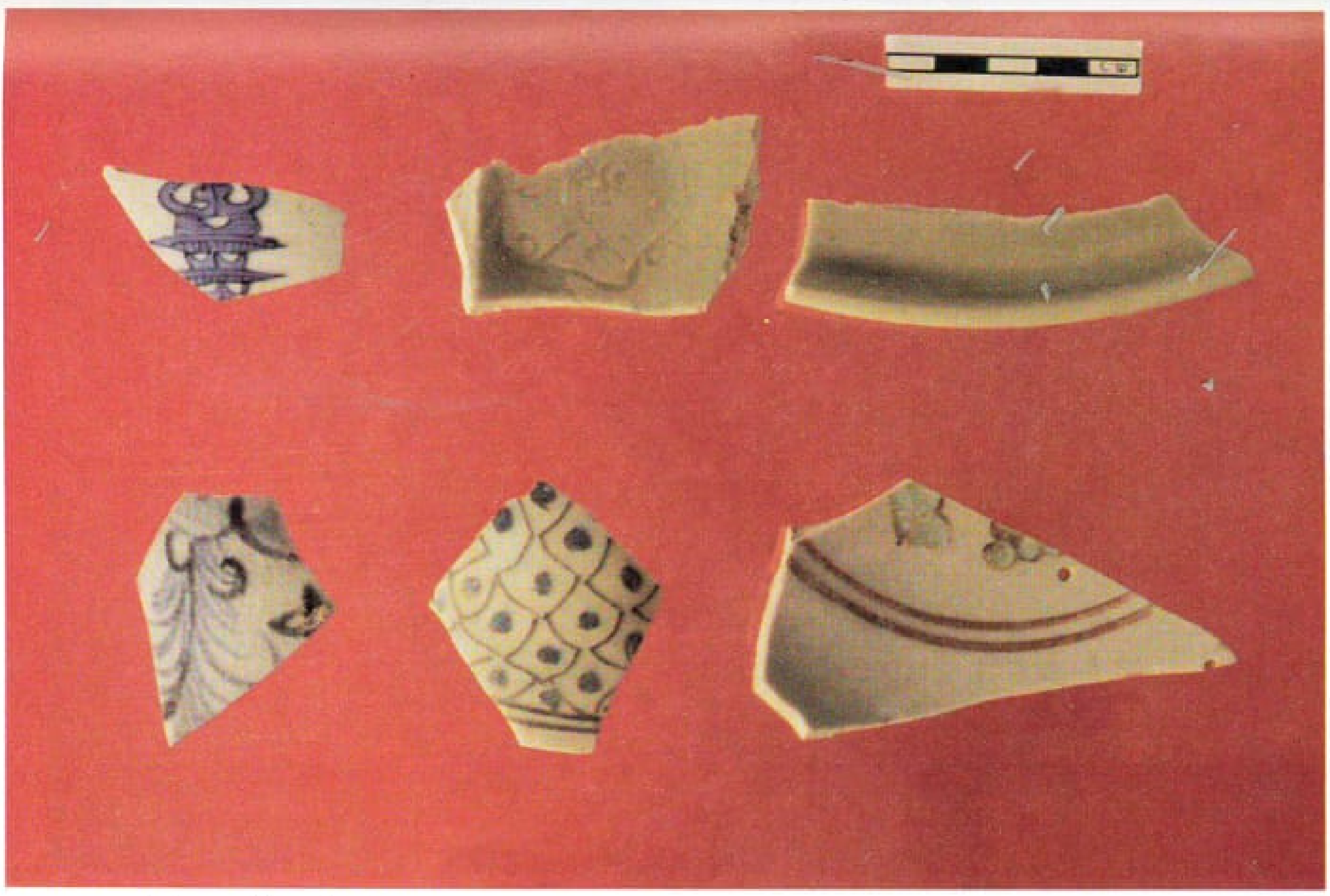


شكل (٢٣)

رسم لصدف وأساور من الزجاج

(عن: قسم الآثار -جامعة السلطان قابوس).

اللوحـــات



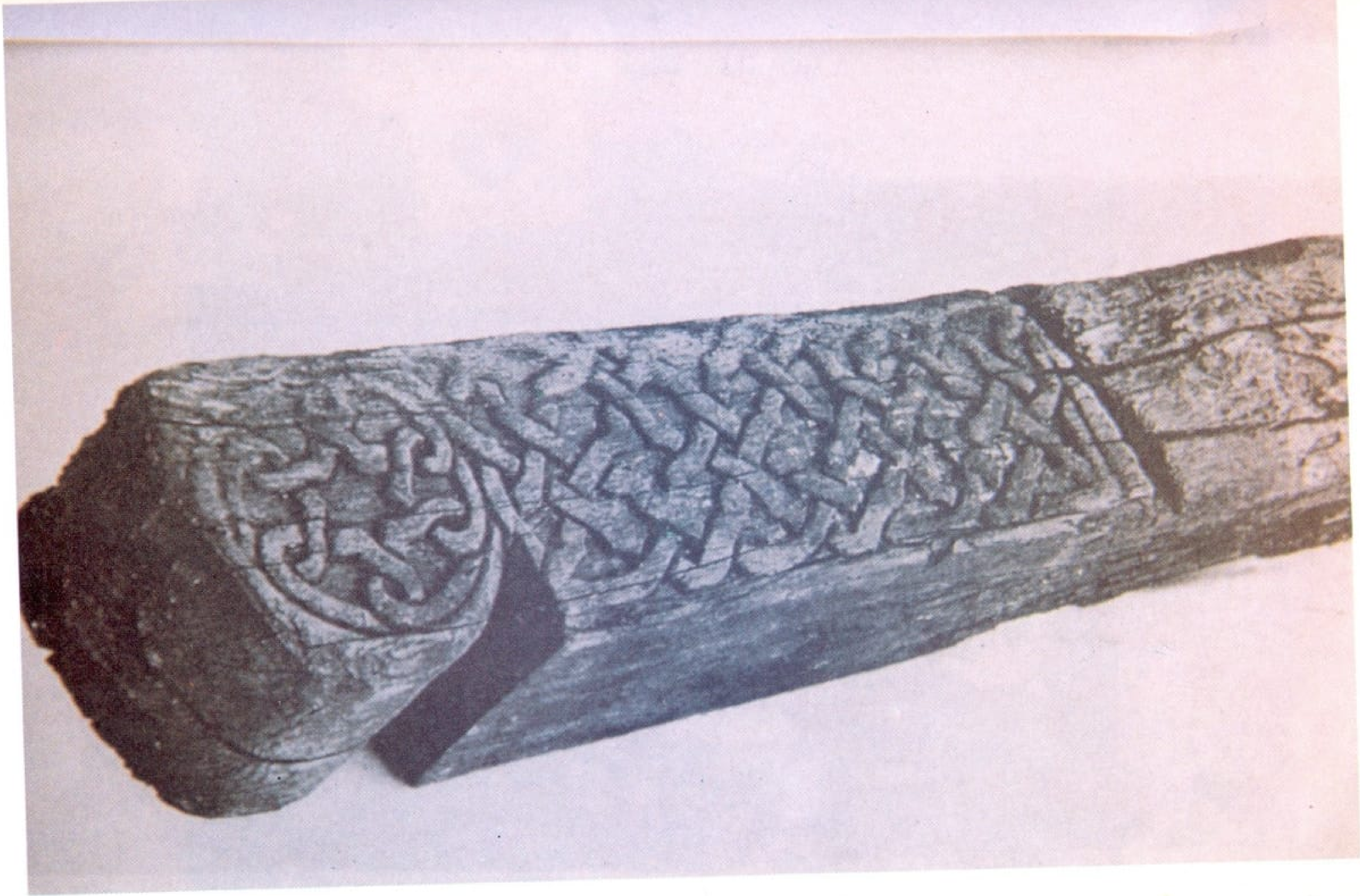
لوحة « ا » نماذج من قطع المسكوكات الصينية التى عثر عليها فى ظفار



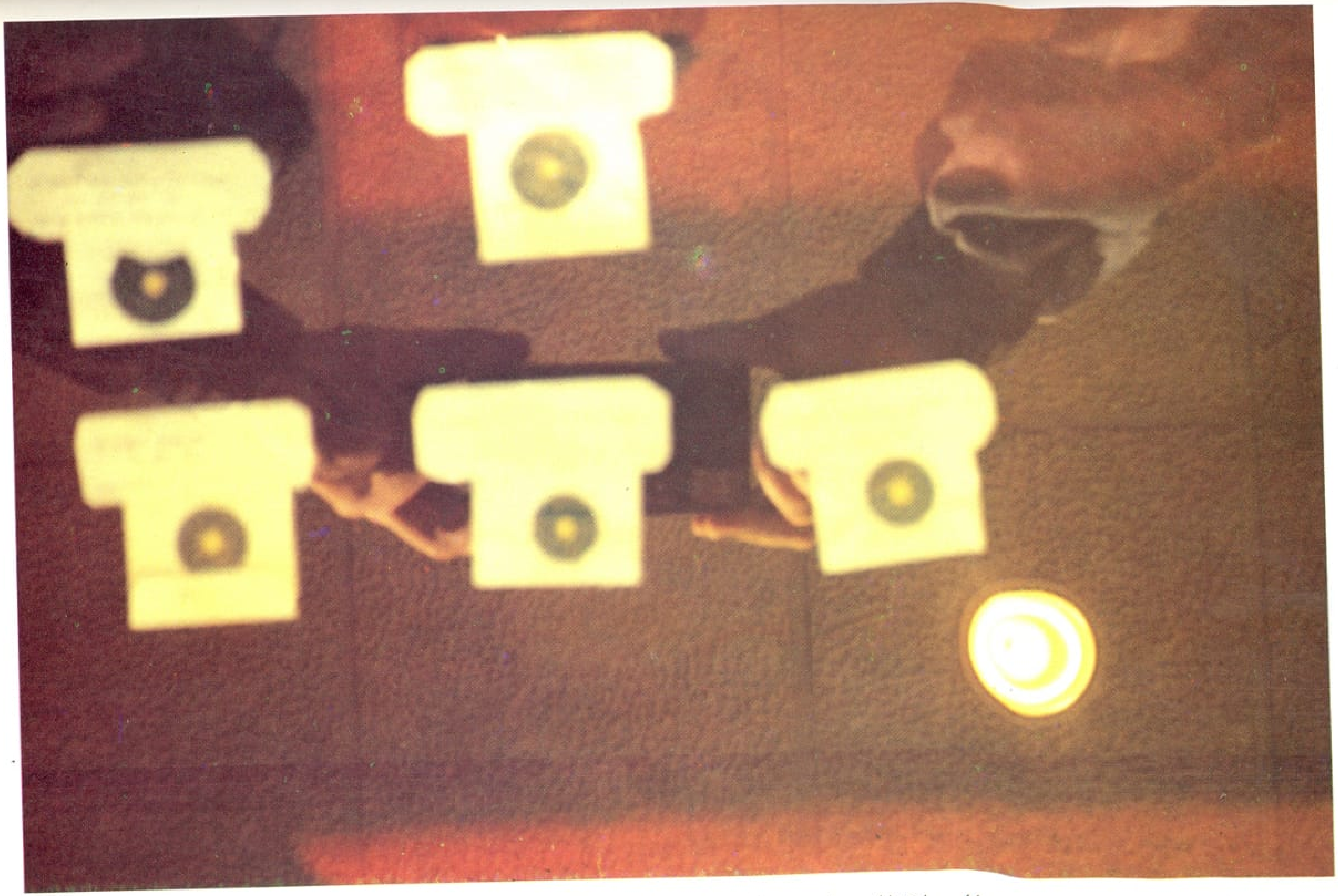
لوحة «٢» أساور زجاجية عثر عليها في مدينة ظفار



لوحة «٣» قطع من الخزف الصيني محفوظة في قسم الآثار



لوحة «٤» حامل خشبى عثر عليه فى المسجد الجامع بمدينة ظفار
(٢٨٠)



لوحة «٥» تبين قطع من العملة النحاسية المحلية التى ضربت فى ظفار محفوظة فى قسم الآثار



لوحة «٦» تبين منظر عام لأطلال المسجد الجامع بمدينة ظفار

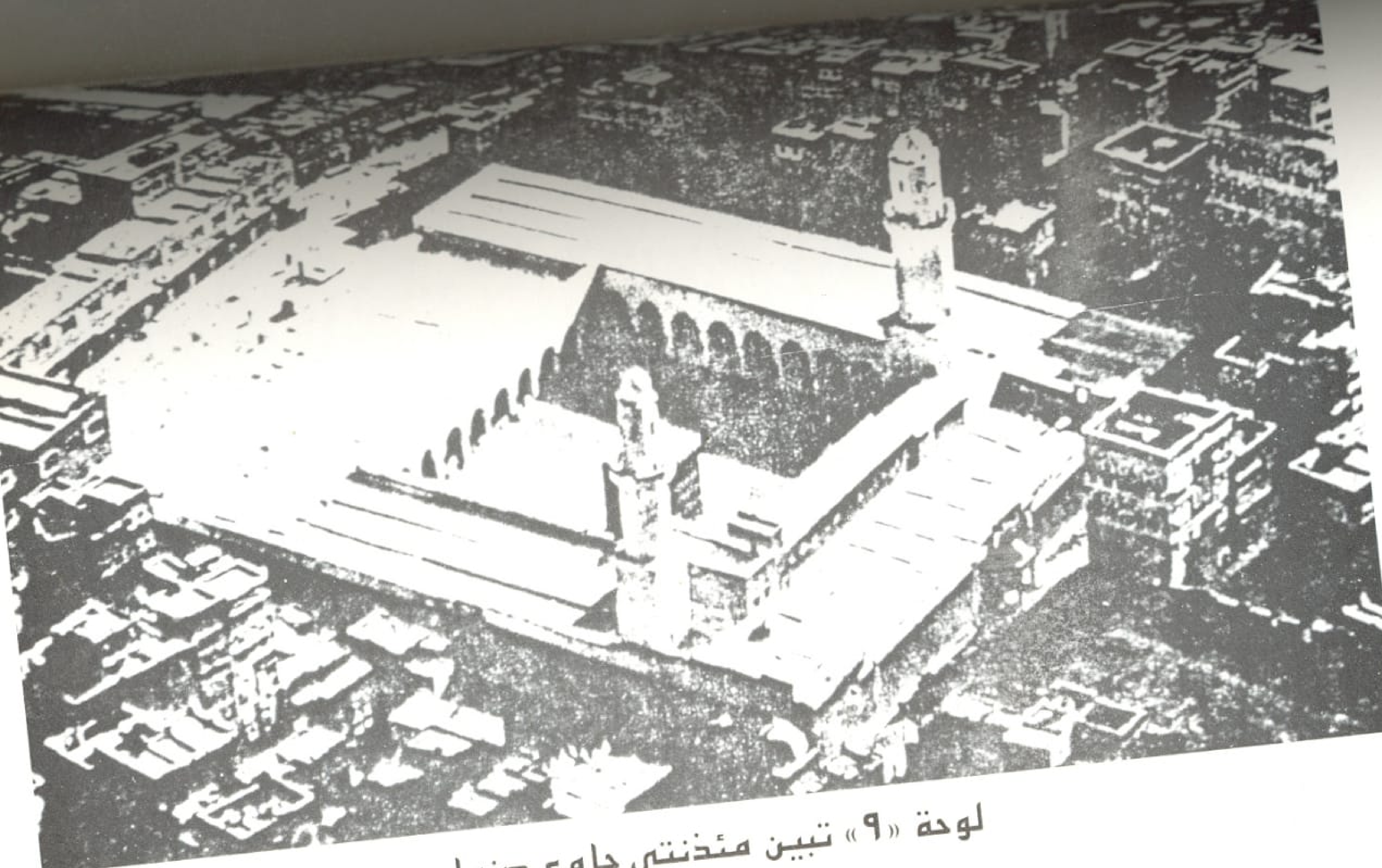


لوحة (٧) تبين أعمدة مسجد الرباط ويعلوها بناء نافذ العقود

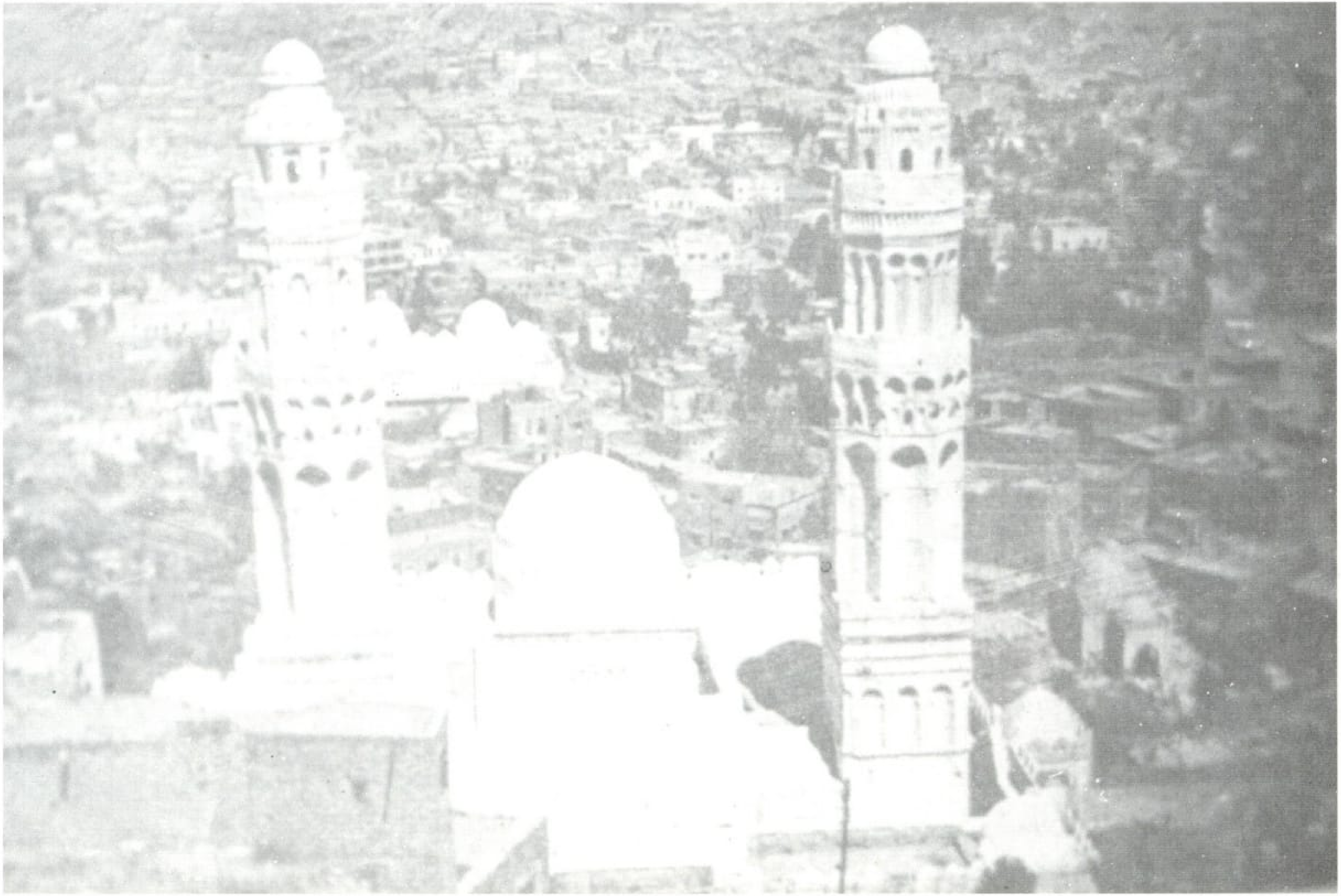
(٢٨٣)



لوحة «٨» تبين الواجهة الجنوبية لمسجد الرباط



لوحة «٩» تبين مئذنتي جامع صنعاء



لوحة «١٠» لوحتين مئذنتا المدرسة الأشرفية

(٢٨٦)



لوحة «١١» تبين مئذنة بوطريرق



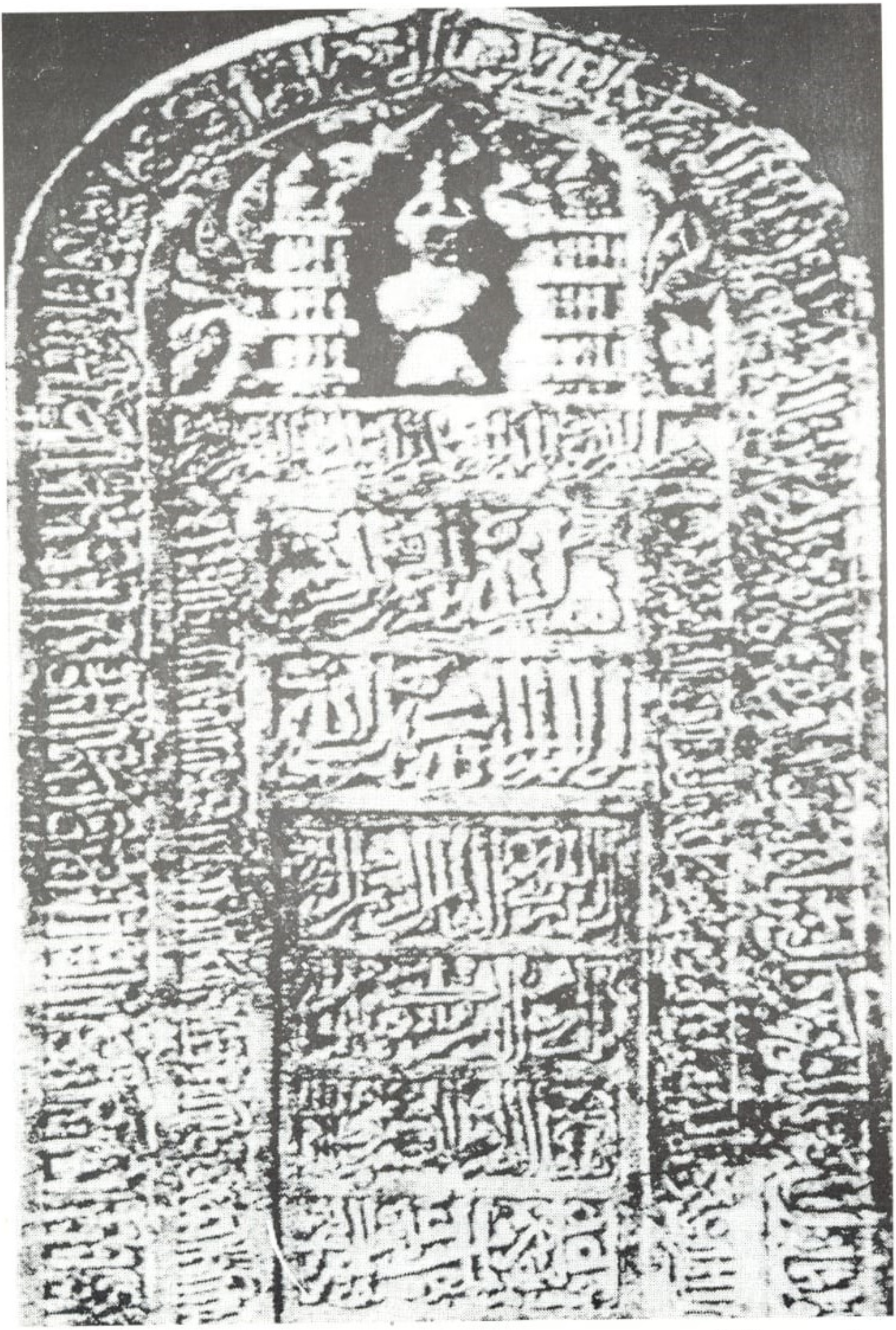
لوحة «١٢ أ» تبين وجه شاهد الرأس لقبر الملك الواثق
(٢٨٨)



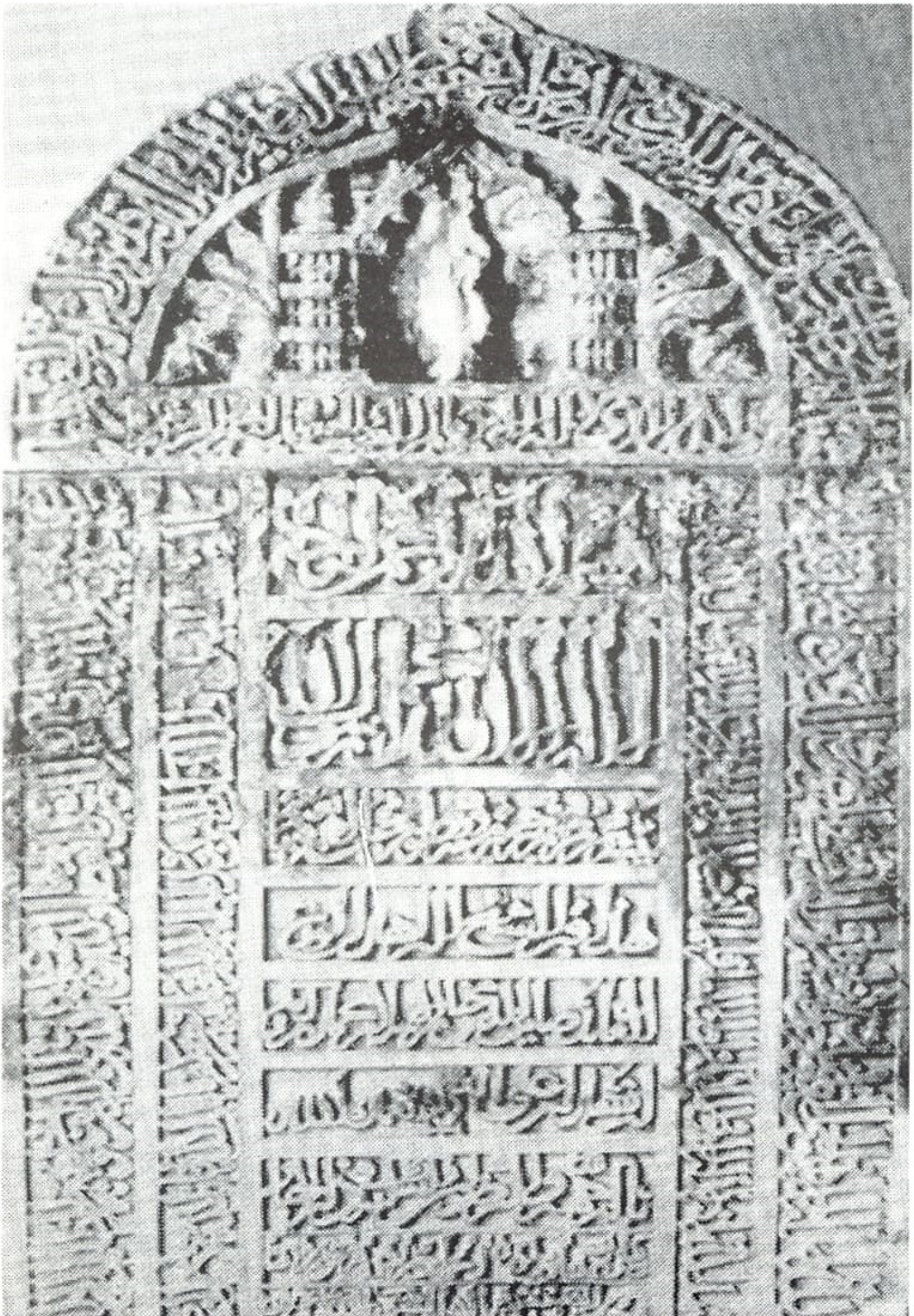
لوحة «٢١ب» تبين ظهر شاهد الرأس لغير الملك الواثق
(٢٨٩)



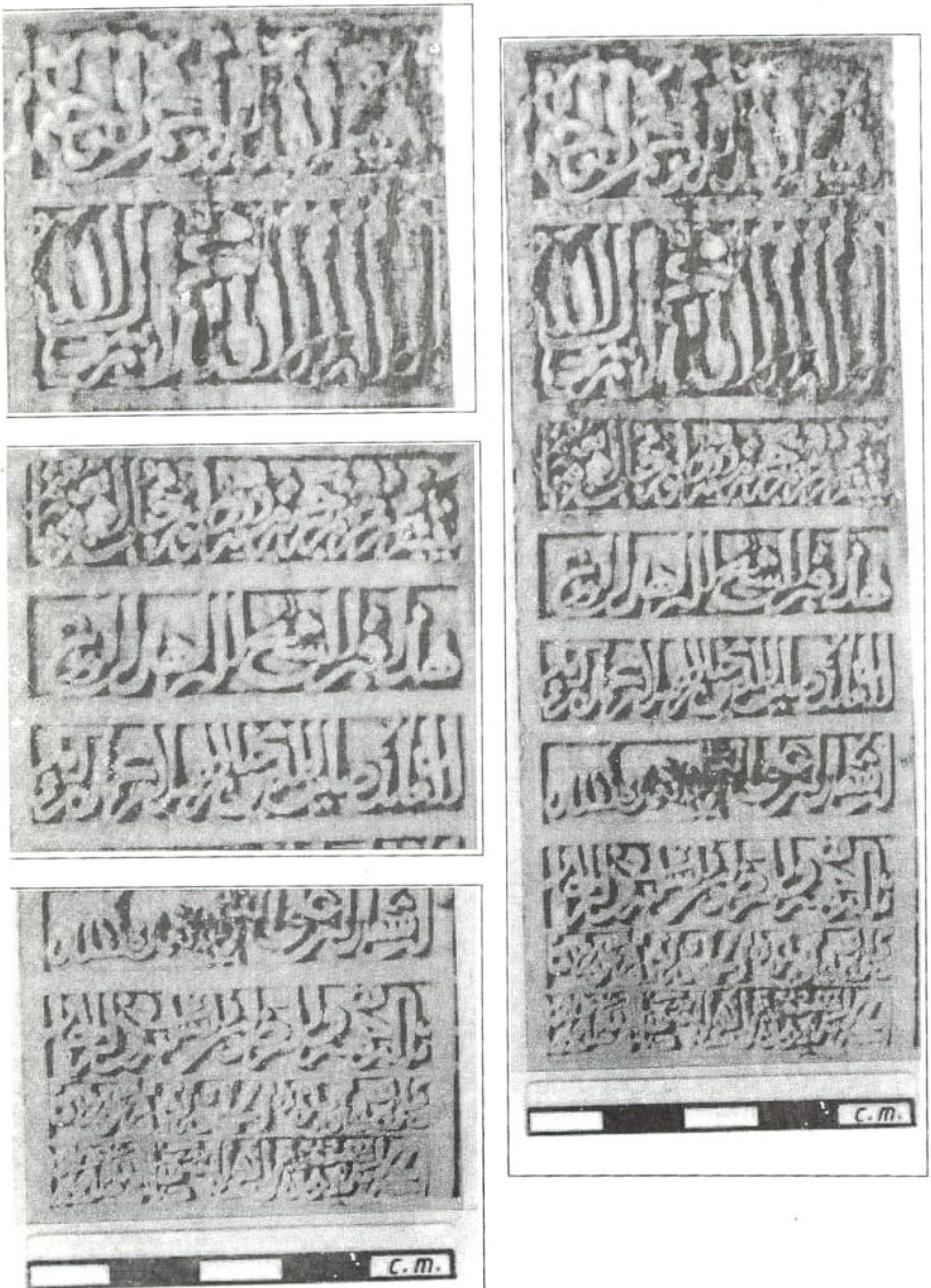
لوحة «٢١ج» تبين وجه شاهد القدم لغير الملك الواثق



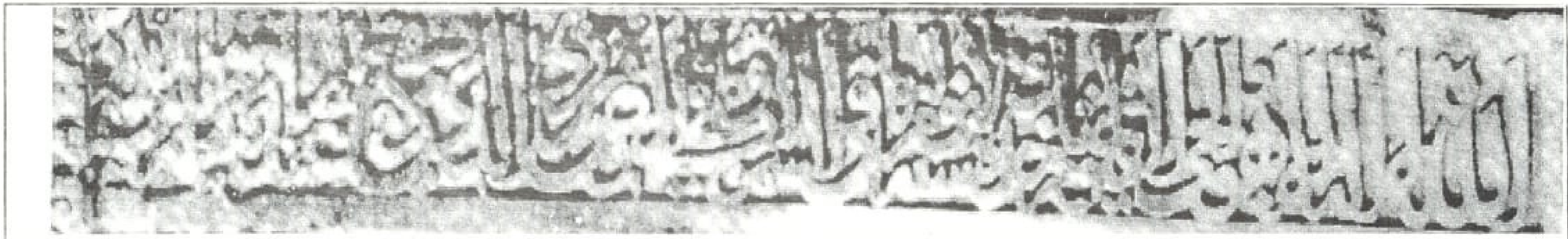
لوحة «١٢ د» تبين ظهر شاهد القدم لغير الملك الواثق

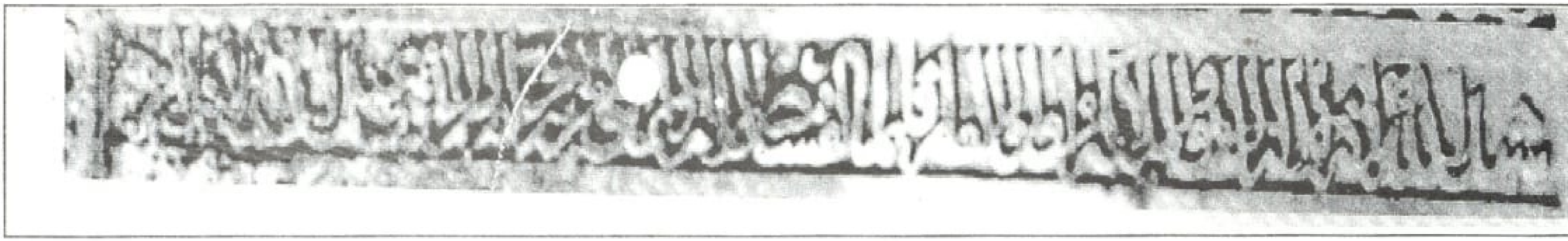


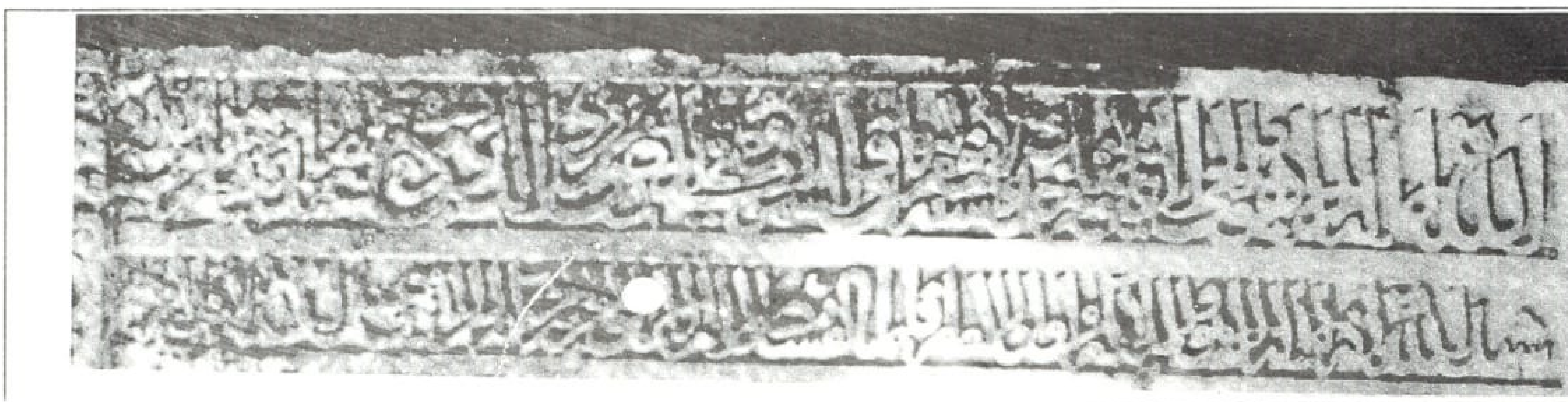
لوحة «١٣ أ» تبين شاهد قبر الشيخ محمد بن أبى بكر



لوحة ١٣ ب تبين تفاصيل كتابات من متن شاهدالشيخ محمد بن أبى بكر







لوحة ١٣ ج تبين تفاصيل كتابات هامش شاهد الشيخ محمد بن أبى بكر .



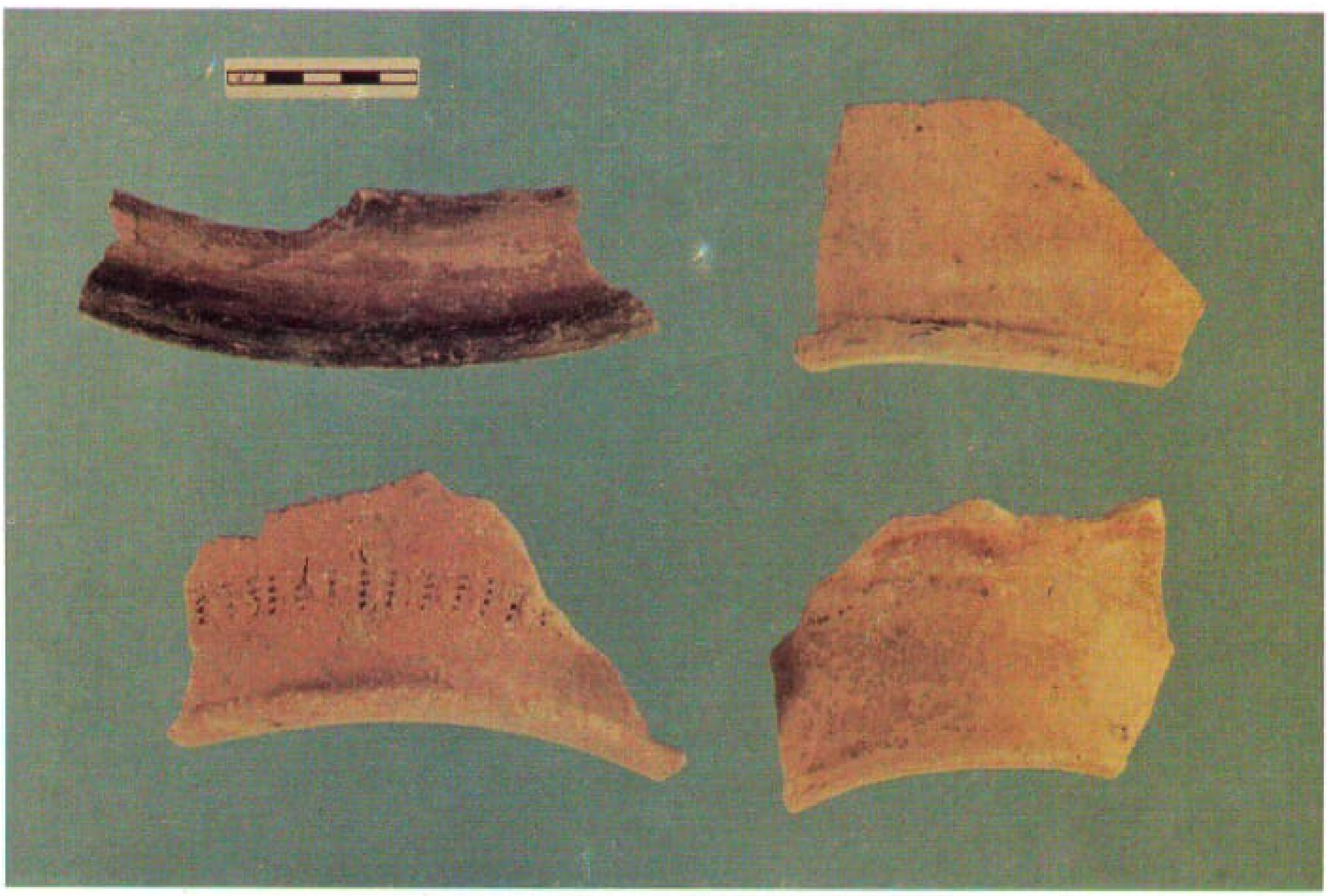
لوحة ١٤ تبين محراب المسجد الممى بالمسجد الجنائزى .



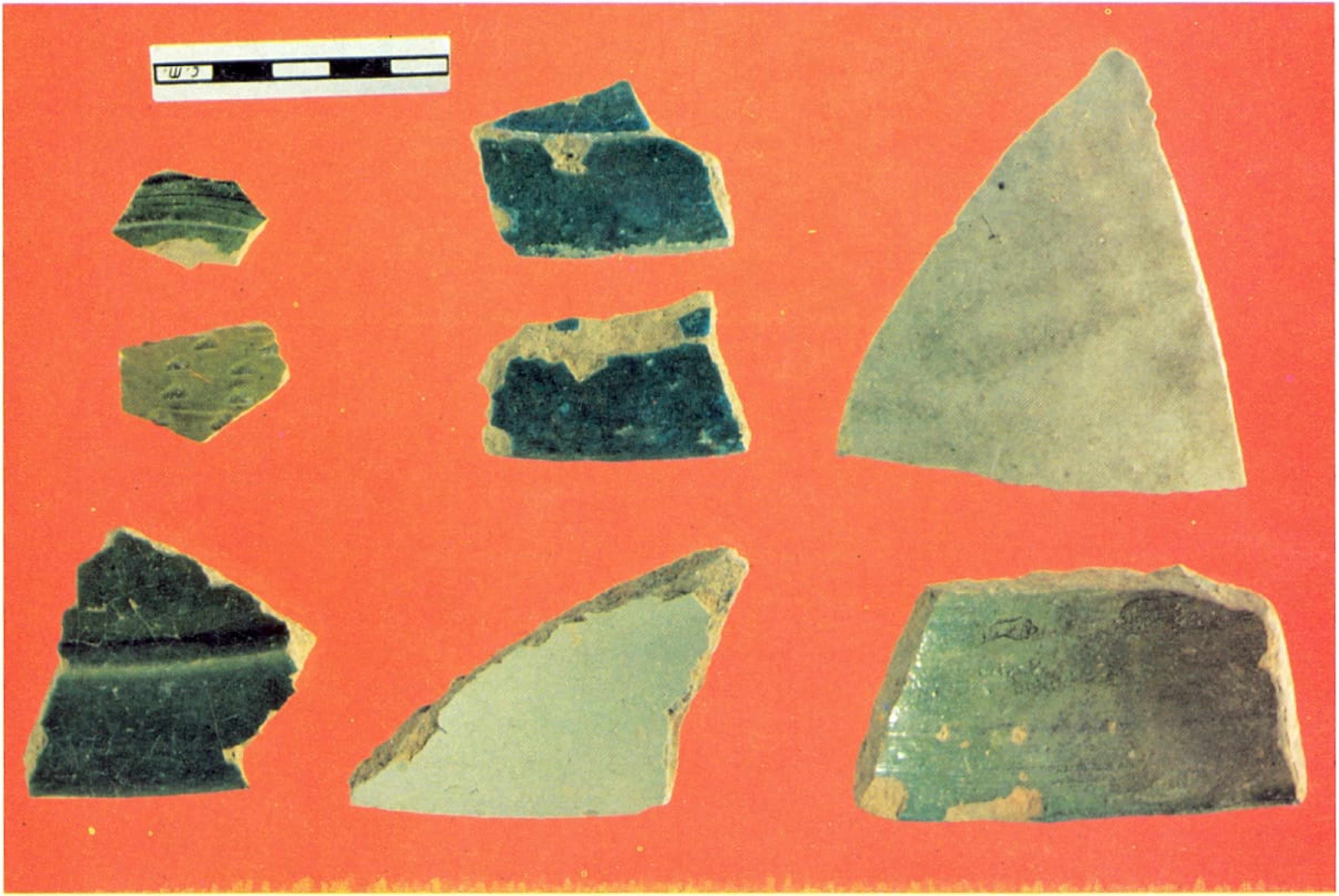
لوحة ١٥ منظر عام لحفريات جامعة السلطان قابوس .



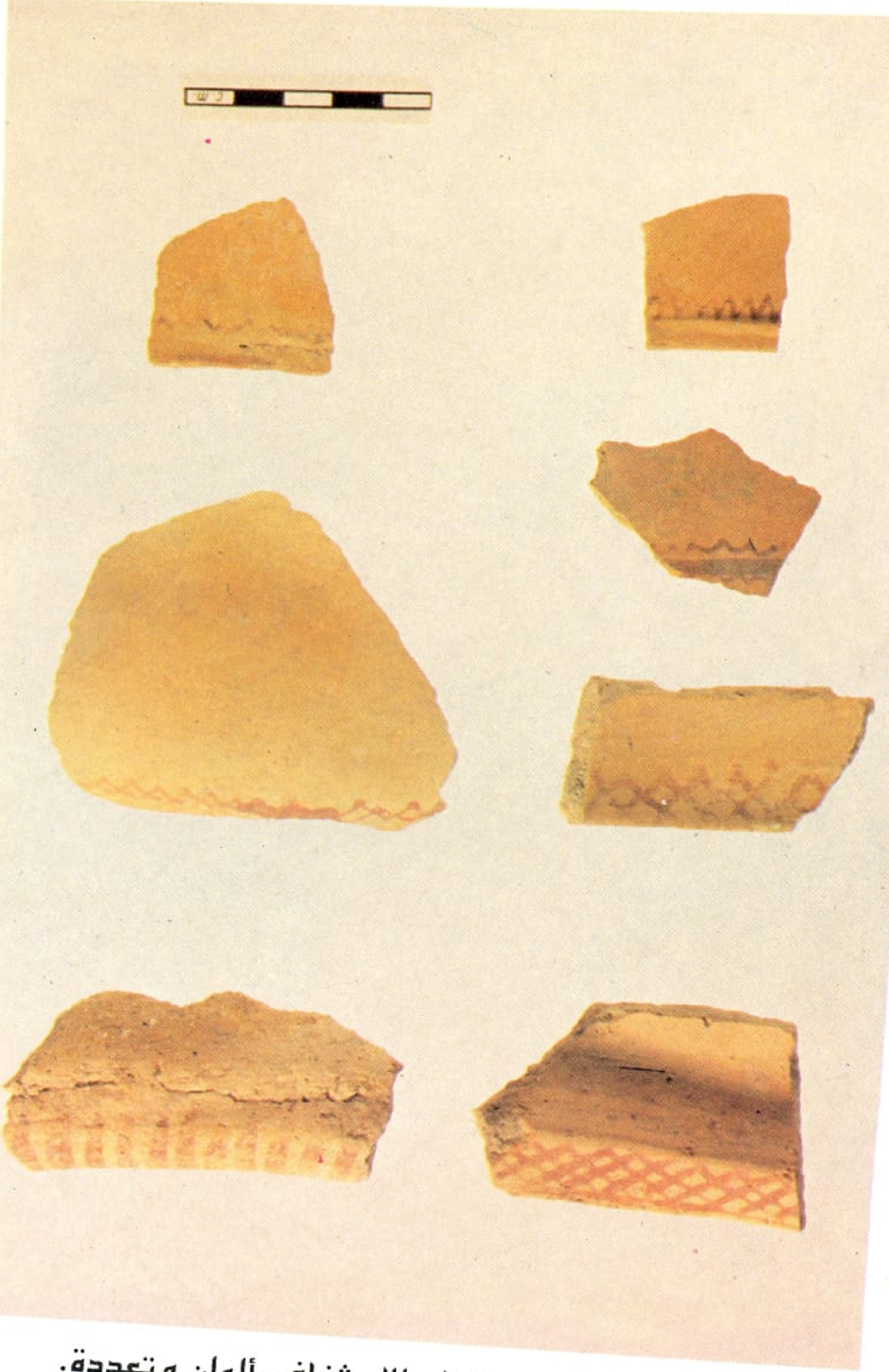
لوحة ١٦ تبين مسجد الرباط من الخارج و بجواره مجموعة من شواهد القبور .



لوحة ١٧ قطع من الفخار المحلى الخشن .



لوحة ١٨ قطع من الفخار المحلى المزخرفة باللون الأحمر.



لوحة ١٩ فخارطلاء شفاف بألوان متعددة.



لوحة ٢٠ شاهد قبر الشيخ أحمد بن مدافع إلى اليمين و بجواره شاهدان اخران .



لوحة ٢١ أ		نماذج من الكتابات على جوانب القبر .



لوحة ٢١ ب تفاصيل من الكتابات و الزخارف على جوانب القبر .



لوحة ٢٢ نموذج من الشواهد التى تزخرفها القصور .



لوحة ٢٣ نموذج من الزخارف التى تزخرفها المشكاة.



لوحة ٢٤ نموذج من شواهد القبورفى مقبرة مرباط .

تصحيح واجب

نلفت نظر القارئ الكريم إلى حدوث بعض الأخطاء التـــى لا تخفـــى على فطنته وتتمثل هذه الأخطاء فى وضع بيانات بعض اللوحات أسفل لوحات أخرى، كما وقعت بعض الأخطاء المطبعية فى النـــص الموضـــح لبعـــض اللوحات ويمكن حصر هذه الأخطاء على النحو التالى:-

١- البيان أسفل اللوحة رقم (١) هو البيان الصحيح للوحة رقم ٥.
٢- والبيان أسفل اللوحة رقم (٥) هو بيان اللوحة رقم (٣).
٣- والبيان أسفل اللوحة (٥) هو البيان الصحيح للوحة رقم (٣).
٤- البيان أسفل اللوحة (١٤) هو البيان الصحيح الخاص باللوحة رقم (١٦).
٥- البيان أسفل اللوحة (١٦) خاص باللوحة (١٤).
٦- والبيان أسفل اللوحة (١٨) خاص باللوحة (١٩).
٧- والبيان أسفل اللوحة (١٩) خاص باللوحة (١٨).

الأخطاء المطبعية فى البيانات أسفل اللوحات.

خطأ فى بيان اللوحة (٧) الخطأ نافذ والصحيح مآخذ:

فى اللوحة (١٢جـ) الخطأ لغير والصحيح لقبر.

فى اللوحة (١٣ أ) الخطأ فير والصحيح قبر.

فى اللوحة (٢٢) الخطأ القصور والصحيح العقود.

لوحة (٢٣) الخطأ الزخارف والصحيح الشواهد.

الفهـــــرس